ماجد اللحام

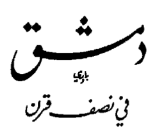
دمشق في نصف قرن



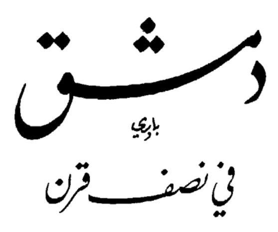
دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

بسم الله الرحمن الرحيم



ماجد اللحام



دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية



الكتاب ٨٢٩
الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ = ١٩٩٠ م

سورية - دمشق - برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد - ص.ب (٩٦٢)
برقياً: فكر - س.ت ٢٧٥٤ هاتف ٢٢٩٧١٧، ٢١١١٦٦ - تلكس FKR 411745 Sy

الصف التصويري: دار الفكر بدمشق
الطباعة (أوفست): المطبعة العلمية بدمشق

وطني لو شغلت بـالخلـد عنـه

نـازعتني إليـه في الخلـد نفسي

أحمد شوقي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي رزقني نعمة الانتماء إلى مدينة عريقة أصيلة ، تغنى الشعراء بحسنها وجمالها ، وتنافس الكتاب من أبنائها وزوارها في وصفها ومديحها . وجهد المؤرخون على مرّ العصور في جمع أخبارها ، وتناقل المحدثون فضائلها . تنبئ بعض الأحياء داخل سورها عن عمر طويل مديد . وتضم آثار عصور ودهور يتجلى فيها الوقار والهيبة ، مع القَوة والعظمة وخبرة السنين . وترى في أحياء أخرى الفتوة والحيوية والشباب ، ورفاهية الحضارة الحديثة ومتعتها ـ مدينة تجمع بين الماضي والحاضر . وتحدثنا الكتب عن تطور دائم مستمر فيها . وكل هذا أمر طبيعي في مدينة قديمة تحمل أخبار آلاف السنين . ولكن أغرب الحديث عندما نتكلم عن تطورها الأخير السريع . إنها سرعة القرن العشرين ، سرعة الصاروخ والمحرك النفاث . فبعد تطور بطيء استمر عدة قرون لانكاد ندرك أثره ، إلى قفزات واسعة سريعة .

فهل يصدق شباب اليوم أن أمثالهم من أبناء دمشق ، كانوا قبل نصف قرن لا يستطيعون الخروج إلى الشوارع دون وضع الطرابيش على رؤوسهم ؟

وهل تصدق فتاة اليوم التي تخرج سافرة الوجه حاسرة الرأس ،

وتتجمل بمختلف الزينات ، أن طالبات دار المعلمات خرجن في مطلع العشرينات بمظاهرة احتجاج ، وكل منهن ترتدي الملاءة السوداء التي تغطي كامل جسدها حتى وجهها ، لأن شوارع دمشق لم تكن تعرف التبرج بعد ؟

وهل يصدق رواد المسرح وعشاق التمثيل ، أن الفرقة التمثيلية ، إن لم يتوفر لها فتاة غير سورية ، كانت تطلب من أحد أفرادها أن يتخلى عن شاربيه ، ويمسح أثر الشعر من ذقنه ، ويضع أحمر الشفاه على شفتيه ليمثل دور الفتاة على المسرح ، لأنه من المستهجن ظهور الفتاة على خشبة المسرح وممارسة التمثيل . فذلك مخالف للعادات والمعتقدات ؟

وهل يصدق هواة السباق (التشفيط) بالسيارات أن شوارع أبي رمانة والمالكي التي يتسابقون فيها ، كانت قبل خمسين سنة جزءاً من أراضي الغوطة الغربية ، وكلها أشجار مثمرة ، تعشعش على أغصانها أنواع الطيور التي تطرب بتغريدها كل زائر ، وتنساب بينها مياه نهري تورا ويزيد لترويها وتدير الطواحين فيها ؟

فما كنا نستعظمه ، أصبح يألفه بعض الناس ، وما كنا نستهجنه ، لم يعد عند البعض نابياً غريباً . وإن كان التطور من سنة الحياة ، فإن الغريب أن يتم هذا التطور بسرعة كبيرة في فترة قصيرة ، فقد عاصر الكثيرون هذه المراحل ، وهذا الانتقال السريع . فكثير من شيوخ دمشق اليوم ، عاصروا مراحل التطور خلال خمسين سنة ، فنشؤوا في الأحياء القديمة وتنقلوا على الدواب في أزقتها الضيقة ، ثم انتقلوا إلى الأحياء الحديثة ، وشوارعها العريضة . وركبوا الترام ، ثم امتلكوا السيارات الحديثة الفاخرة

ليتمتعوا بها في نزهاتهم مع أبنائهم في كل مكان . ولبسوا في طفولتهم القنباز والشروال ، ووضعوا على رؤوسهم الطرابيش ، ثم استعاضوا عنها بالثياب الغربية ، وربطة العنق ونزعوا الطربوش . وسكنوا في طفولتهم بيوتاً لم يكن يعلم ما يجري بداخلها إلا الله ، ثم انتقلوا إلى بنايات وطوابق يرى أحدهم من شرفته ونافذة غرفته ، جاره وهو في سريره . إنه عصر الانفتاح .

إن سرعة التطور هذه ، جعلت أسئلة عديدة يطرحها الأبناء على الآباء ، والبنات على الجدات ، والشباب على الكهول ، مستفسرين عن نبأ مستغرب ، وحديث مستهجن في حديث دمشق ومجتمعها .

لذلك رأيت أن أصف في هذا الكتاب عدداً من المشاهد ، وأصور عدداً من اللوحات تمثل مراحل من هذا التطور فيكون فيه لكل سؤال جواب . ويضم تسجيلاً موجزاً لدمشق عبر نصف قرن من الزمن ، انتقلت دمشق فيه من مظاهر العصور الوسطى ، إلى أحدث ما في حياة وحضارة القرن العشرين ، فلعله يحيي في نفوس الشباب الحنين إلى ماضيهم القريب . فيعتزوا ببعض مظاهره ، لأن من لا يملك ماضياً يعتز به ، يفقد أصالته .

وعندما أعرض بعض العادات والأخلاق ، والصفاتْ والواقع الذي عاشه المجتمع الدمشقي في الثلاثينات والأربعينات من هذا القرن ، لا أقصد بذلك المطالبة بالعودة إلى كل ما كنا عليه ، فهذا أمر مستحيل في سنة التطور . فلكل زمان حضارته وطابعه وعاداته لا تصلح إلا له . إنما الهدف عرض ما كانت عليه دمشق ، وكيف كان يعيش المجتمع الدمشقي . وأحاول تتبع التطور الذي حدث خلال فترة وجيزة من الزمن .

ومع استعراض هذا التطور ، لاأقول أن مظاهر الحياة الحديثة دخلت كل أنحاء دمشق دفعة واحدة وبشكل كامل ، وقضت على آثار الماضي ، بل لازالت بعض مظاهر الحياة من فترة العقد الثاني والثالث لهذا القرن موجودة في الأحياء القديمة ، إلى جانب أحدث مظاهر الحضارة في أحياء أخرى .

وأما الفترة التي اخترت دراستها وحددتها بين عامي ١٩٢٠ ـ ١٩٧٠ فهي فترة متميزة انتقلت خلالها دمشق من حياة الحكم العثماني ، إلى مفاهيم الحضارة الغربية . وشهدت مولد عصر جديد استعادت فيه مركزها كعاصمة سياسية وإدارية ، وبدأت تتعرف على العالم والحضارة الحديثة ، وخالط مفاهيمها وعاداتها شوائب أجنبية متعددة . وتمتاز هذه الفترة بالنسبة لدمشق بظاهرتين متباينتين سياسياً وحضارياً ، تقسمها إلى مرحلتين :

المرحلة الأولى ١٩٢٠ ـ ١٩٤٥ : كان الاستعمار الفرنسي يخيم فيها على البلاد بعد أن فشلت في تثبيت الحكم الوطني الذي ظهر إثر انتهاء الحكم التركي . وقد أراد المستعمر خلال هذه الفترة أن يحدد النافذة التي تطل دمشق من خلالها على الحضارة العالمية ، وأن يرسم لهذه البلاد مستقبلها بما يضمن مصالحه فيها .

المرحلة الثانية ١٩٤٦ ـ ١٩٧٠ : فترة الحرية والاستقلال الذي ناضل من أجله الآباء وسعد به الأبناء . وحدثت في هذه الفترة مخاضات سياسية عديدة ، وإضرابات متلاحقة حدت من مسيرة التقدم والتطور ، ولكنها انتهت في مطلع العقد السابع عندما نعمت البلاد باستقرار سياسي وحياة حضارية متميزة ، رسمها أبناء البلاد بأنفسهم . عندها شهدت دمشق مع باقي

مدن وقرى القطر عهداً جديداً ، وفترة لها مظاهرها . وهي تختلف كلياً عن الفترة التي أتناولها بالبحث .

وقد جمعت مادة هذا الكتاب من بعض المصادر القديمة والحديثة ، واستفدت من زملاء يحملون ذكريات شخصية لفترة العشرينات والثلاثينات . وأضفت ذلك إلى ذكرياتي التي تعود إلى نهاية الثلاثينات . وشجعني على متابعة هذا العمل الكتب التي تتناول جوانب من حياة دمشق ، فرأيت أن أسهم بعملي هذا في استكمال صورة فنية رائعة لتاريخ هذه المدينة التي لاتتم دراستها كاملة بجهد شخصي فردي .

وأخيراً أتوجه بالشكر الجزيل لكل من ساهم في إتمام هذا العمل الذي أؤدي به خدمة لمدينتي التي نشأت وترعرعت فيها وأعتز بماضيها ونضالها . وأسأل الله أن يحفظها لنا ولأولادنا عزيزة كريمة مستقلة ، يتمتع أبناؤها بالحرية والسعادة والحياة الرغيدة . إنه سميع مجيب .

ماجد اللحام

دمشق : أهميتها وما قيل عنها

أقدم عاصمة تنعم بالحياة حتى الآن ، وجنة الله في أرضه . أود الكتابة في وصفها ومديحها والتعريف بها ، في مطلع هذا الكتاب ، ولكني وأنا الدمشقي الذي ولد وعاش فيها ، أشعر بالتقصير كيفما وصفتها ، وبالنكران للجميل مهما كتبت عنها ، لأنني لن أوفيها حقها . فأستعيض عن شهادتي بمدينتي بشهادة الآخرين ممن زارها ، أو أقام فيها ، من أدباء وشعراء مقتدياً في ذلك بابن عساكر ، ابن دمشق الذي يقول عندما يتحدث عن دمشق : وذكر إبراهيم بن أبي الليث الكاتب ، وكان قَدِمَ دمشق سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة في رسالة له قال : ثم أمرنا بالانتقال ، فانتقلت منه إلى بلد تمت محاسنه ، ووافق ظاهره باطنه ، أزقته أرجة ، وشوارعه فرجة ، فحيث مامشيت شممت طيباً ، وأينما سعيت رأيت منظراً عجيباً .

ويضيف ابن عساكر في مكان آخر قائلاً : وأنشدني بعض المحدثين في جامع دمشق ، عمره الله بذكره وفي دمشق فقال :

دمشق شاع حسن جامعها	وما حوته ربى مرابعها
بديعة الحسن في الكمال لما	يدركه الطرف من بدائعها
طيبة أرضها مباركة	باليمن والسعد آخذ طالعها
بنيت بالإتقان قد وضعت	لا ضيَّع الله سعي واضعها
ولا تزال المياه جارية	فيها لما شق من مشارعها

وسـوقهـا لاتـزال آهلـة	يـزدحم النـاس في شـوارعهـا
لـما يشـاؤون من فـواكههـا	ومـا يريـدون من بضـائعهـا
كأنهـا جنـة معجلـة	في الأرض لولا مسرى فجائعها
دامت برغم العـدى مسلمـة	وحـاطهـا الله من قـوارعهـا

وقال اليعقوبي عنها في كتابه « البلدان » : مدينة جليلة قديمة ، وهي مدينة الشام في الجاهلية والإسلام ، وليس لها نظير في أجناد دمشق في كثرة أنهارها وعمارتها ...

ويصف ابن بطوطة دمشق بقوله : ودمشق هي التي تفضل جميع البلدان حسناً ، وتتقدمها جمالاً ، وكل وصف وإن طال فهو قاصر عن محاسنها .

ولا أبدع مما قاله ابن جبير رحمه الله في ذكرها ، قال : وأما دمشق فهي جنة المشرق ، ومطلع نورها المشرق ، وقد تحلت بأزاهير الرياحين ، وتجلت في حلل سندسية من البساتين ... وقد سئمت أرضها كثرة الماء حتى اشتاقت إلى الظماء ... وقد أحدقت البساتين بها إحداق الهالة بالقمر والأكمام بالثمر . وينهي كلامه بقوله : إن كانت الجنة في الأرض ، فدمشق لاشك فيها ، وإن كانت في السماء فهي تساميها وتحاذيها .

ولدمشق أصدقاء كثيرون من الأجانب ممن زاروها وتحدثوا عنها وشهدوا بحسنها وجمالها . فيقول الكاتب الفرنسي موريس باريس : في دمشق يتلاقى الشرق والغرب ، لا ليتنابذا ويهدما بعضهما ، ولكن ليتحدا ويتفاهما .

ورأى الكاتب الفرنسي بيير لوتي في تاريخ دمشق ، ملخص تاريخ الإنسانية .

وأوحت دمشق للكاتبة ميريام هاري فكتبت : نشرف على دمشق من مرتفعات الصالحية ... فيحسب المرء نفسه أنه يرى مدينة الأحلام ، أو مدينة ألف ليلة وليلة . وبعد أن تصف الأشجار والأنهار والغروب في دمشق ، تقول : يا جنائن دمشق ، يا بساتينها السماوية ، أنت التي كنت حلماً للأنبياء ، وفردوساً تلجأ إليه القوافل ، وما زلتِ إلى اليوم تعزية للنفوس الطاهرة الملتهبة ورعاً وإيماناً ، كما أن الأوربيين عشاق جمالك إذا رأوك أيتها البساتين القديمة ، تعزّوا برؤيتك عن رؤية دمشق الجديدة التي شوهتها حضارة أوربية .

ولن أسترسل في ذكر ما كتبوا لأن الوصف لا يغني عن النظر شيئاً ، بل أقول لمن يريد أن يعرف دمشق ما قاله الشاعر :

يا ابن الكرام : ألا تدنو فتبصر ما قد حدثوك ، فما راءٍ كمن سمعا

وتشغل دمشق اليوم دوراً كبيراً بين العواصم العربية في نضالها وكفاحها ضد التخلف والمؤامرات الاستعمارية بكل أشكالها ، وهي تؤدي واجبها تجاه القضايا القومية والشعب العربي كله . وتسعى نحو الحياة الأفضل بعزيمة وإصرار .

أهميتها السياسية : استعادت دمشق عام ١٩١٨ مكانتها السياسية ومركزها القيادي ، عندما أسس فيها الأمير فيصل بن الحسين أول حكومة

عربيــة ، بعــد أن تخلصت البــلاد من الحكم التركي ، ورفرف في سمائهــا العلم العربي ، وتنسم أهلها رائحـة الحريـة وسعـدوا بها . وأصبحت دمشق عـاصمـة البلاد كما كانت أيام الأمويين وفي عهـد صلاح الـدين . ولكن المستعمر سلبهـا هذه الحرية بعـد فترة وجيزة ، ولم تجـد مقـاومـة أهلهـا في ميسلون في ٢٤ تموز ١٩٢٠ للدفاع عنهـا ، فـاحتلتهـا الجيوش الفرنسيـة وبـدأ أهلهـا ينـاضلون مع إخوانهم في كل قرية ومدينة في سورية مدة ربع قرن حتى تحقق الجلاء .

عنـدمـا احتفلت دمشـق عـاصمـة الجمهـوريـة السـوريـة بجـلاء الأجنبي المستعمر عن أراضيها في ١٧ نيسان عـام ١٩٤٦ ، كانت أول عـاصمـة عربيـة في القرن العشرين تنـال استقـلالهـا الكامـل ، وتتخلص من كل أشكال الاستعمار وقيوده ومعاهداته .

وبعـد كارثـة فلسطين وفرض دولـة إسرائيل على المنطقـة عـام ١٩٤٨ ، استعادت دمشق مكانتها التاريخيـة التي كانت لهـا زمن الزنكيين والأيوبيين . وخاصـة أيـام صلاح الـدين الأيوبي ومعركـة حطين . فسعت إلى وحـدة مع مصر تحققت عام ١٩٥٨ وأصبحت بعدها عـاصمـة الصمود والتصـدي . وكرست جهودها وكل إمكانيـاتهـا الاقتصـاديـة والبشريـة لتقضي على الخطر المـاثل في فلسطين ، والذي يهدد العروبة في عقر دارها . فالتاريخ يعيد نفسه . وتبقى دمشق قلب العروبة النـابض ، رغم أنهـا تعرضت لضغوط وتهـديـدات عـالميـة بسبب مواقفها القومية .

دورهـا القومي : لم تنس دمشق واجبهـا القـومي على مرّ العصـور . فهي منطلق الجيوش للفتوحـات والتحرير ، وملتقى الأحرار من كل مكان ،

وتفتح صدرها للوافدين عند الملمات . ودراسة سريعة لسكان دمشق وأصلهم توضح الدور القومي الذي لعبته عبر التاريخ . فعندما غزا الصليبيون ديار الشرق ، وعاثوا في فلسطين فساداً ، وحولوا شوارع القدس وساحاتها إلى بحر من الدماء وقتلوا الأبرياء ، هرب عدد من أهلها عام ١١٥١ ووصلوا إلى دمشق عاصمة العرب وعلى رأسهم شيخهم أحمد بن قدامة . وقد بنى بنو قدامة[1] في ذلك الوقت حي الصالحية وأقاموا فيه .

وفي منتصف القرن التاسع عشر وفد إلى دمشق الإخوة الجزائريون وعلى رأسهم زعيمهم المناضل الأمير عبد القادر ، بعد أن احتلت فرنسا بلادهم ونفتهم من ديارهم . فأسسوا في منطقة السويقة على طريق الميدان حي المغاربة ، واستقروا في أحيائها .

وفي أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين استقبلت دمشق أعداداً من مهاجري البلقان والروملي وجزيرة كريت ، وصلوا هرباً من الظلم والطغيان وأسسوا حي المهاجرين .

وفي عام ١٩٤٩ تكررت مأساة الحروب الصليبية ، عندما احتل الصهاينة أرض فلسطين وشردوا أهلها فهاجر قسم منهم إلى دمشق التي استقبلتهم بدافع الواجب القومي ، فسكنوا مناطق متعددة وأسسوا مخيم اليرموك .

---

(١) القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية : محمد بن طولون ، تحقيق محمد أحمد دهمان : ٦٥ ، مطبوعات المجمع العلمي العربي .

لذلك كان شعار أبناء دمشق دائماً ونشيدها المفضل :

بـــلاد العرب أوطــــــاني   من الشـــــام لبغـــــدان
ومن نجـــــــــد إلى يمن   إلى مصر فتطـــــــــوان

أهميتها الثقافية : تحتل دمشق اليوم مكانة ثقافية كبيرة كما كانت بالأمس القريب والبعيد . فقد اشتهرت بالعديد من المدارس التي لا يزال بعضها ماثلاً للعيان حتى الآن . كما تحفظ كتب التاريخ لنا أسماء مئات من أعلام العلماء بمختلف العلوم اشتهروا في دمشق نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر : ابن نفيس ، وابن عساكر ، وتاج الدين السبكي ، وابن كثير ، والحافظ الذهبي ، وابن تيمية .... وعندما فقدت سيادة نفسها ، وأهمل التعليم فيها ، وانتشرت الأمية حتى مطلع القرن العشرين ، كان الجامع الأموي يقوم بدوره في الحفاظ على تراثنا العلمي والثقافي . فكان يضم العديد من حلقات العلم التي يدرّس فيها أشهر العلماء والمحدّثين . وبقي للجامع الأموي دوره العلمي حتى ظهرت المدارس الحديثة وتأسست الجامعة السورية وأخذت منه هذه المهمة ، لتسير حسب المنهج العلمي الحديث .

وسرعان ماامتازت دمشق بنهضة ثقافية واسعة أبرزها تأسيس المجمع العلمي العربي . وانفردت كلية الطب فيها عن الجامعات العربية كلها باعتمادها اللغة العربية في تدريس مناهجها .

أهميتها الاقتصادية : اشتهرت دمشق بموقعها ومياهها وغوطتها فكانت محطة تجارية للقوافل التي تنقل البضائع بين الشرق والغرب والشمال والجنوب ويستأنس التجار بها بعد قطع مسافات في بادية الشام أو الصحراء .

وتدل على شهرتها ، خاناتها وأسواقها العديدة التي كانت توجد فيها بضائع الشرق والغرب . كما غزت منتجاتها الصناعية كل أسواق العالم القديم لما لها من شهرة في جودتها مثل الصناعات النسيجية وخاصة الدامسكو والبروكار ، كما اشتهرت بالموزاييك وصناعة ونقش الأواني النحاسية وغيرها .

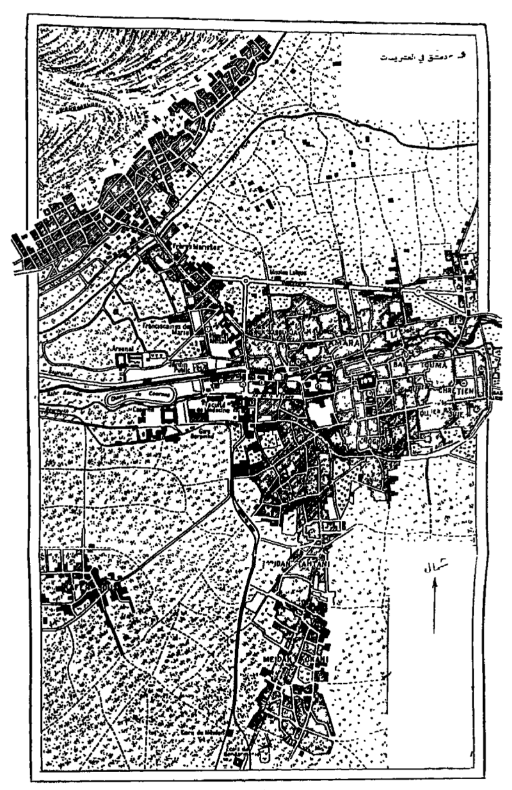
وعندما احتلها المستعمر حال دون قيام صناعات حديثة فيها ليجعلها سوقاً لمنتجاته الصناعية ، فكانت حتى الحرب العالمية الثانية تفتقر لكثير من الصناعات ، ولكن سرعان ماشهدت مع فجر الاستقلال نهضة صناعية واسعة وأصبحت الطبقة العاملة تشكل نسبة كبيرة في المجتمع .

مركزها السياحي : تعتبر دمشق أحد المراكز السياحية العالمية لما حباها الله من جمال طبيعي بغزارة مياهها واتساع غوطتها ، وما أعطاها من عمر مديد جعلها تحمل تاريخاً طويلاً حافلاً بالأحداث ، وما ضمت تربتها من أجساد العظماء والمشهورين بكل فن وعلم ، وما شيد على أرضها من معالم حفلت بأخبارها الكتب . فكانت ملتقى قوافل الحج واشتهرت عند الشعوب باسم شام شريف فاكتسبت مكانة قدسية عندهم ويقصدون عند المرور بها التبرك ببعض المزارات مثل : السيدة زينب في قرية الست ، وضريح الشيخ محي الدين في الصالحية ، ومقام النبي يحي في الجامع الأموي ... كما يحرص بعض الناس على زيارة بعض القبور التي تحمل أسماء الصحابة كأبي الدرداء وبلال ومن القواد الأبطال ، نور الدين وصلاح الدين والظاهر بيبرس ومن العلماء ورجال الدين : ابن تيمية والشيخ أرسلان وغيرهم ... ومن أشهر آثارها التي يقصدها السياح السور القديم للمدينة وأبوابها كباب شرقي وباب توما

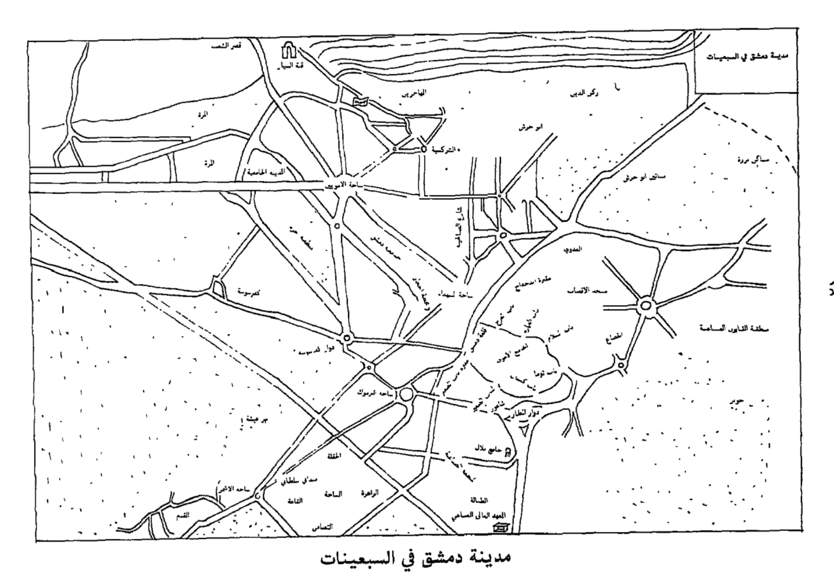
وبـاب كيسـان وبـاب الجـابيـة وغيره ... وكنيسـة حنـانيـا والجـامع الأموي والبيمارستان النوري وقلعتها الشهيرة ، وعدد من مدارسها وجوامعها وحماماتها وخان أسعد باشـا وقصر العظم والتكيـة السليمـانيـة وبيت السبـاعي والمتحف الوطني .

وتهتم وزارة السيـاحـة بتوفير كل مـا يخـدم الزائر ويوفر لـه الراحـة من وسائل نقل وفنادق ومتاحف واستراحـات وأدلاء سيـاحيين ، كما اعتـاد أبنـاء دمشق وخـاصـة التجـار منهم الـذين يتعـاملون مع السيـاح أن يلمـوا بلغـات السياح كالتركية والفارسية والفرنسية والإنكليزية ...





مدينة دمشق في العشرينات



مدينة دمشق في السبعينات

وصف دمشق

لـو أمعنـا النظر في مخطـط دمشـق لـوجـدنـاهـا تجلس مستنـدة على قاسيون ، وتمتد ساقاها نحو الجنوب ، وتحمل بيسراها تاريخها وطابعها القـديم تحاول التمسك به ، ولكنه ينسـاب من بين أصـابعهـا ولن تستطيع الاحتفـاظ بـه . وتحمل بيمنـاهـا مظهرهـا الحـديث وتنوء بحملـه . وتراهـا تتايل تمـايـل أشجار الحور في غوطتها الغناء لتحافظ على التوازن بين مايحمله ذراعاها .

هي أقدم المدن العامرة في العالم ، ومن أهم العواصم ذات الحضارة القديمة الأصيلة . فهي تضم آثار حضارات متلاحقة عبر عصور عديدة تبدأ منذ خمسة آلاف سنة . وقد وردت أخبـارهـا في الكتب المقـدسـة والنصوص التـاريخيـة القديمة .

أسماؤها : أطلق على المدينة أسماء عـديـدة أشهرهـا دمشق وهي تسميـة قديمة وردت تفاسير كثيرة في معنـاهـا منهـا أن دمشق تعني السرعـة ، ونـاقـة دمشق ، أي ناقة سريعة خفيفة . ومن أسمائها جيرون ، نسبـة إلى جيرون بن سعـد بن عـاد بن أرم بن سـام بن نوح ، وسماهـا إرم ذات العماد . وعرفت في كثير من النصوص الأدبية باسم جلق . ويلقبهـا البعض بـالفيحـاء لاتسـاعهـا وروائحها الزكية التي تفوح في أحيـائهـا من أزهـار وورود بيوتهـا القـديمـة . ويطلق عليها أحياناً الشام .

وعندما نذكر اسم مدينة دمشق فإننا نحدد الطرف الثاني لمعادلة طرفها الأول بردى وقاسيون والغوطة ، فهي الأسماء الملازمة لكلمة دمشق لأن المدينة بنيت بين هذه المعالم الطبيعية الثلاثة .

بردى : روح دمشق وباعث الحياة فيها ، فلولاه لما كانت الغوطة ، ولما ظهرت دمشق ، فهي هبة بردى . ينبع النهر من سهل الزبداني الخصب الجميل ثم يدخل عند التكية في واد ضيق تحف به الأشجار على الجانبين ، ويمر بعدة قرى حتى يصل قرية عين الفيجة فترفده مياهها ، وهي تعادل بغزارتها مياه بردى ولكن معظمها يستغل لإرواء دمشق عبر أنابيب خاصة . ويتابع النهر مجراه حتى قرية الهامة حيث يتفرع منه نهر يزيد الذي يتجه شرقاً مع سفح قاسيون ليروي مناطق عالية في أحياء المهاجرين والصالحية والأكراد . وعند الشادروان يتفرع منه نهر تورا ليروي الأراضي المحصورة بين يزيد وبردى ، وهذان النهران يجريان عن يسار نهر بردى . بينما يتفرع عن يمينه : الديراني وقناة المزة والقنوات وبانياس . وعندما يخرج النهر وفروعه من خانق الربوة تتباعد هذه الأنهار وتتسع الأراضي الزراعية لتشكل الغوطة . وقد كانت بعض هذه الأنهار مصدراً رئيسياً لمياه الشرب قبل مدّ مياه الفيجة إلى المدينة . وقد جمع أحد الفضلاء بردى وفروعه بقوله :

شوقي يزيد ودمع الصب ما بردا   وبان يأس من المحبوب حين بدا
ومدمعي قنوات والعذول حكى   تورا يلوم الفتى في عشقه حسْدا
على مغنية بالجنك جاوبها   وخلها مات في خلخالها كمدا

يشق بردى مجراه وسط المدينة ويكسبها ما بين صدر الباز (ساحة الأمويين) والمرجة منظراً جميلاً ، كثيراً ما كان يستهوي الزوار والغرباء ليلتقطوا عند حواجزه الصور التذكارية لزيارته . وكانت مياه النهر تساعد في تلطيف جو المدينة صيفاً ، وتفيض شتاء في معظم السنين لتغمر الأسواق والشوارع المجاورة لمجراه ولساحة المرجة . وعندها يصبح التنقل بين طرفي المدينة على الدواب والطنابر والحمالين . ولكن ازدحام السير في المدينة وتزايد عدد السيارات أدى لتغطية قسم من مجرى النهر حتى شرقي المرجة ، للاستفادة من كل جزء في تنظيم السير المزدحم في مركز المدينة . وقد مضت سنون لم يشهد أهل دمشق منظر فيضان النهر وتراكم الطمي في الشوارع المجاورة وذلك لشح المياه وقلة الأمطار .

قاسيون : الجبل الأشم ، يطل على دمشق من شمالها . كان المسكن الأول للسكان ثم هبطوا منه إلى ضفاف النهر ، فكان هو مدينتهم الأولى ، وله قدسيته التي ترويها بعض الأساطير الغريبة البعيدة عن التاريخ ، ولكنها تعرب عن حب السكان لجبلهم حباً يصل إلى حد التقديس ، فنسجوا هذه الأساطير ليفرضوا حبه على الآخرين .

تروي بعض الأخبار أن في سفحه كان يسكن أبو البشر آدم ، وعلى سفوحه قتل قابيل أخاه هابيل وتوجد مكان الحادث صخرة تنقط منها دموع الجبل الذي يبكي على هابيل ، وبقي لون الدم على سطح الصخرة في مغارة الدم التي يزورها الناس اعتقاداً أن الدعاء عندها مستجاب . وبجانب المغارة مقام الأربعين (هم أربعون من الأبدال كلما مات رجل منهم أبدل الله مكانه

رجلاً يسقى بهم الغيث ويُنتصر بهم على الأعداء ، ويصرف عن أهل الشام بهم العذاب . والأبدال أخص من مطلق الأولياء) . وفي شرقي الجبل كان مولد إبراهيم الخليل عليه السلام وفي غربيّه آوى المسيح وأمه عليهما السلام إلى الربوة . وقد كتب عدد من الشيوخ في فضل قاسيون ومزاراته ونظموا القصائد فقال أحدهم :

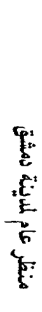
وقاسيون به خير لساكنه	وعونه وأمان من ذوي القيم
قد كلّم اللهَ جهراً في تضرعه	من زاره قد برئ من سائر السقم
فيه الدعاء مجاب لا مرد له	والغار فيه إغاثات لكل ظمي

وقد ضعفت قدسية قاسيون في النفوس وبقيت محبته . فكان حتى منتصف هذا القرن ملتقى سكان دمشق أيامَ الجمع وفي الليالي المقمرة يتمتعون بنسمات عليلة ، وكانت بعض المقاهي في غربي حي المهاجرين تستقبل الزوار حتى منتصف الليل من أيام الصيف ، وكان الشباب والأطفال يتسلقون سفوح الجبل ليبرهنوا له عن قوتهم وقدرتهم .

أما اليوم فقد غزاه البناء والسكن في معظم سفوحه . وامتدت الطرقات المفروشة بالإسفلت حتى قمته . ورغم التبدل الكبير في مظهره لا زال يحتفظ بالرمز الذي يميزه منذ عهد بعيد ، وهو قبة السيار التي تتضارب الأقوال في أصل بنائها[1] .

---

(١) أرجح الأقوال أن بانيها هو سيار الشجاعي وسميت باسمه .



منظر عام لمدينة دمشق

الغوطـة : وتعني مجمع النبـات . فهي كثيرة الميـاه ، نضرة الأشجـار ، ملتفة الأغصان ، تحيط بها جبال عاليـة من جميع جهاتهـا . إنهـا لوحـة فنيـة طبيعية رائعة ، دائمة الخضرة أعجب بها أهلهـا والقـاصـدون إليهـا . حتى قـال أبو بكر الخوارزمي : إن جنان الأرض أربع : صغـد سمرقنـد ، ونهر الأبلـه ، وشِعب بوان ، وغوطة دمشق . وقـد زارهـا كلهـا فكان في رأيـه فضل غوطـة دمشـق على الثـلاث كفضـل الأربـع على غيرهن . وتغنى بهـا عـدد كبير من الشعراء . وقد أوردها بعضهم بلفظ التثنية ويقصدون بذلك الغوطـة الغربيـة والغوطة الشرقية ومن أجمل ماقيل في وصفها ، قصيدة طويلـة للشـاعر خليل مردم بك ، نورد مقتطفات منها :

حيا جنان الغوطتين وجـادهـا ... سمحُ القياد من السحاب المـاطر
حلم من الإبـداع فيهـا مـاثـل ... من دونـه يعيـا خيـال الشـاعر
قم في مشارف قاسيون وعج بهـا ... تشرف على صنع البديع القـادر
دوح كساميـة القبـاب حيـالهـا ... من باسقـات الحور مثل منـائر

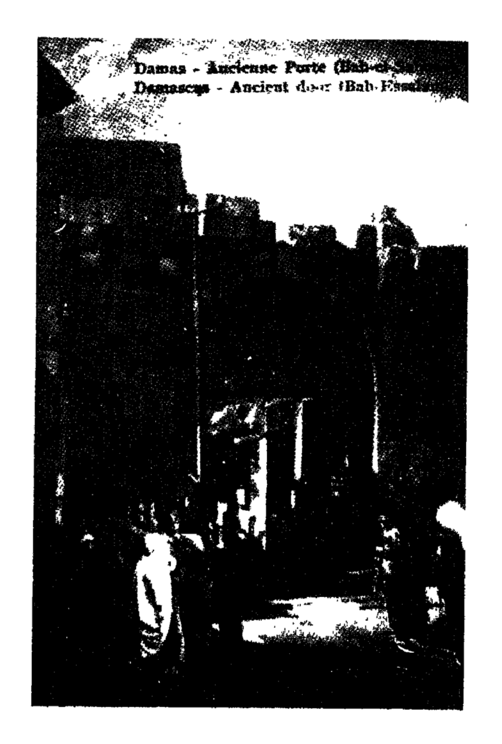
تتجـاوب الأطيـار في أفنـانهـا ... من هـاتف أو سـاجع أو صـافر
تتراقص الأغصان من تغريدهـا ... ميـادة لتطـاول وتقـاصر
غنت بلحن يستثير لـواعجـا ... ويهيـج من طربٍ دفينَ ضمائر

وهي شبـاب متجـدد وفتنـة سـاحرة وعطـاء دائم . تمـد دمشق بـأنواع الخضـار والفـواكـه ، وتستقبـل زوارهـا في فصـل الربيـع . قراهـا عـديـدة وأشجـارهـا كثيفـة . وكانت معقلاً لأبنـاء دمشق إبان الثورة السوريـة عـام ١٩٢٥ ، تؤويهم ليلاً ، ويأتمنوها على سلاحهم بين أشجارها وتربتها نهاراً .

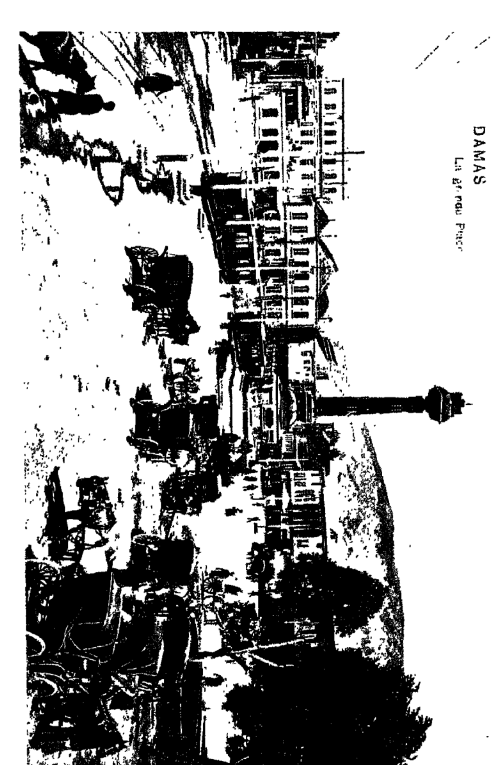
وإن صمدت لكل عوادي الأيام عبر العصور ، فإنها لم تستطع أن تصمد اليوم أمام الغزو الحضاري بالإسمنت المسلح الذي غزاها في كل أطرافها فبنيت المصانع ، وارتفعت الأبنية الحديثة واتسعت القرى ، وشقت الطرقات أرضها الخضراء فاقتلعت أشجارها وعاثت يد الإنسان فيها فساداً . ولو أنها تكلمت لعلمنا شكواها وسمعنا عتابها وخجلنا أمامها .

التطور العمراني : كانت دمشق القديمة محصورة داخل السور حول معبدها الوثني . ويخترقها الشارع المستقيم (سوق مدحت باشا) من غربها إلى شرقها . ثم شيدت في طرفها الشمالي الغربي القلعة لتصد عنها خطر المعتدين . وكان للمدينة عدة أبواب لا زال بعضها قائماً كباب شرقي وباب توما وباب الجابية وباب العمارة وباب السلام ، وزال بعضها الآخر كباب النصر . ومع ازدياد السكان كانت تظهر أحياء جديدة بين فترة وأخرى واتسعت المدينة خارج السور .

وكانت أشهر الأحياء في مطلع العشرينات من هذا القرن هي : سوق ساروجة (وقد امتد التنظيم والتشويه إلى بعض أقسامه) العقيبة ، العمارة ، مسجد الأقصاب ، القيمرية ، الخراب ، مأذنة الشحم ، باب شرقي ، القصاع ، باب توما ، حي اليهود ، الشاغور ، الميدان ، باب مصلى ، الجزماتية ، الساحة والقاعة ، باب مصر ، القنوات ، باب سريجة ، قصر الحجاج ، السويقة ، قبر عاتكة ، الشويكة (وقد تبدلت معالم هذا الحي كثيرا) الخضيرية ، المهاجرين ، الأكراد ، الصالحية . وتعتبر المرجة مركز المدينة ويوجد في وسطها نصب تذكاري لذكرى مد الأسلاك البرقية إلى دمشق .



أحد أبواب دمشق القديمة : باب السلام



ساحة المرجة يتوسطها النصب التذكاري

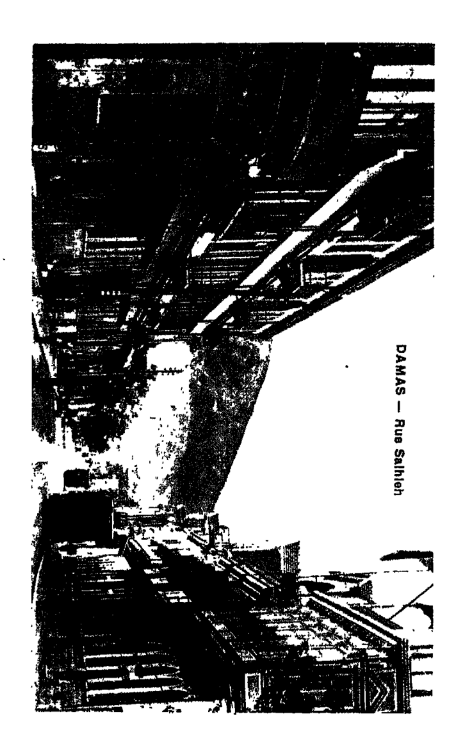
وحول الساحة توجد أشهر الدوائر الرسمية وهي : سراي أحمد عزت باشا (لا تزال قائمة حتى اليوم) ، ودار البلدية (هدمت في أواخر الخمسينات) وخلفها دار الحكومة (وزارة الداخلية حالياً) ، والعادلية والبرق والبريد (هدمت في بداية الخمسينات) وجامع يلبغا الذي يتم تجديد بنائه مؤخراً . وكانت ساحة المرجة مركز انطلاق المواصلات الداخلية سواء العربات التي تجرها الخيول أو السيارات التي حلت مكانها ، أو حافلات الترام التي تربط بين مركز المدينة وأطرافها في الشيخ محي الدين والمهاجرين والميدان والقصاع ودوما . وقد شهدت المرجة إعدام عدد من الوطنيين البررة عام ١٩١٦ فأصبحت تعرف باسم ساحة الشهداء . وقد تم فرش هذه الساحة بالإسفلت عام ١٩٣٠ . وكان في طرفها الغربي ساعة كبيرة بثلاثة وجوه يعتمدها السكان لضبط ساعاتهم ، ولكن كثيراً ما كانت تعبث بها أيدي المغرضين .

شهدت دمشق خلال الفترة المعنية بالدراسة تبدلاً عمرانياً كبيراً ، بسبب مركزها السياسي والإداري كعاصمة للبلاد . فسكنها عدد كبير من الموظفين الفرنسيين مع بدء فترة الانتداب . وازداد عدد سكانها كثيراً فكان يقدر عام ١٩٢٥ بنحو ٢٢٠ ألف نسمة وبلغ عام ١٩٦٧ ، ٦٠٠ ألف نسمة . ودمرت الكوارث والأحداث بعض أحيائها مثل سيدي عامود عام ١٩٢٥ والكلاسة عام ١٩٤١ فكان لا بد من ظهور أحياء جديدة .

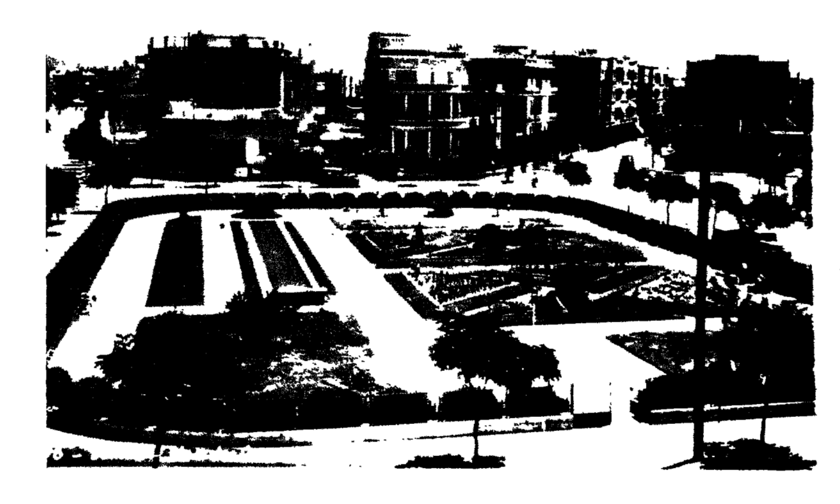
اتسعت دمشق في جهاتها الأربعة على حساب الأراضي الزراعية والأشجار المثمرة التي تحيط بها . وتميزت الأحياء الجديدة بهندسة البناء ، ونظافة الشوارع وكثرة الحدائق . وامتد العمران حتى وصل إلى القرى المجاورة

فأصبحت جزءاً من المدينة ، كما هو الحال في قرى المزة وبرزة وعربين . ووصل البناء بين أحياء الصالحية والمهاجرين غرباً والأكراد شرقاً وامتد إلى سفوح جبل قاسيون . أما طريق الصالحية فظهرت فيه أحياء جديدة مع بدء العشرينات كالشعلان والشهداء وعرنوس والحبوبي ، وتم تشييد المجلس النيابي عام ١٩٢٩ وأعيد ترميمه وتوسيعه عام ١٩٤٦ بعد العدوان الفرنسي . أما نادي الضباط القديم فلا يزال يحافظ على طابعه القديم بينما هدم المستشفى العسكري ومن خلفه مبنى الأركان العامة الذي يذكرني بأمسيات مطلع عهد الاستقلال عندما كانت تقف يومياً في الساعة السادسة مساءً ثلة من حرس الأركان لتحية العلم وإنزاله من على المبنى ، فعندما كان يصدح صوت البوّاق تحية للعلم مع تقديم السلاح ، يقف كل من في الشارع من مدنيين وعسكريين احتراماً للعلم الذي أصبح يخفق دون أن ينافسه أي أثر للاستعمار .

وفي آخر الأربعينات تم تنظيم شارع أبي رمانة وسط الأراضي الزراعية . وسرعان مابنيت على طرفيه أحدث الأبنية التي احتلتها السفارات حتى سمي في ذلك الوقت حي السفارات ، وكان أحدث الأحياء في المدينة ، حتى نافسه في مطلع الخمسينات شارع المالكي بهندسة وتنظيم وبناء أحدث . وتابع العمران الامتداد على حساب الصبار والآس والأشجار المثمرة ، وتوالى ظهور أحياء الميسات وركن الدين في المناطق الشمالية الشرقية ، وأحياء التجارة والقصور والعباسيين في الشرق . وامتد البناء جنوباً إلى أحياء جديدة في البرامكة والمجتهد والمنصور والزاهرة والتضامن والمخيم ، والمنطقة الصناعية التي تم نقل عدد من الصناعات إليها من داخل المدينة .



طريق الصالحية



أحد أحياء دمشق الحديثة

وفي الستينـات شب حريق كبير في منطقـة عرنـوس التهم جـامـع دك الباب والبيوت القديمة . فتغيرت معالم المنطقـة وتم تنظيم سـاحـة الشـامن من آذار .

وبـذلـك اتسعت دمشـق خـلال نصف قرن أضعـاف مـا كانت عليــه ، ووضعت عدة مخططات لتنظيمها . ورغم أن بعض الأحيـاء القـديـة اخترقتهـا الشوارع العريضة وظهرت فيها الحدائق وتم فرش أزقتهـا بـالإسفلت ، لكنهـا لا زالت تحتفظ بطابعها وبيوتها القديمة المتداخلة مع بعضهـا . وبعـد أن كانت مقـابر المـدينـة في أطرافهـا أصبحت وسـط العمران الـذي طـوقهـا من كل الجهات .

ومن الظـواهر التي زالت خـلال نصف قرن ، تـوزع السكان فكانت الأحياء القديمة تتميز أحياناً بتجانس سكانها فحي الأكراد يضم الأكراد ، وحي المهاجرين يقطنه الوافدون إلى دمشق من البلقان وجزيرة كريت ، والقصاع مع حي في باب مصلى يضمان المسيحيين ، ويوجد حي خـاص بـاليهود ، وفي السويقة حي المغاربة . أما اليوم ففي البنـاء الواحـد يسكن عـائلات مختلفـة الأهواء والمشارب ، يجمعها الجوار ولا يفرق بينها مذهب أو دين .

ورغم أن الأحياء الحديثة ظهرت في منتصف هذا القرن ، فـإنهـا لم تكن تـزدحم بـالسيـارات ، ولا يكاد المرء يجـد في الحي إلا بضـع سيـارات ، لأن السكان كانوا يعتمـدون على وسـائل النقـل العـام وخـاصـة الترام . أمـا اليـوم فتزدحم الشوارع بأنواع السيارات ولا يستطيع المرء السير مساء على الأرصفـة التي تحتلها السيارات لكثرتها ، حتى في الشوارع الفرعية .

الأسواق : اشتهرت دمشق بنشاطها التجاري منذ أقدم العصور ، لأنها تقع على حافة الصحراء . وكانت تمر بها القوافل التجارية المتنقلة بين الشمال والجنوب والشرق والغرب ، ولا تزال الخانات الموجودة حتى الآن تشهد على ذلك . أما أسواقها فاكتسبت عبر التاريخ سمعة كبيرة . وكان معظمها يتمركز حول الجامع الأموي . ويصف الشاعر هذه الأسواق حول المسجد بقوله :

من حوله الأسواق تشرق في الدجا	مثل النهار بما بها قد علقا
فيها ترى ما تشتهي وتلذه	وبيوت قهوات شذاها عبقا

ويصف شاعر آخر كثرة البضائع فيها وتنوعها فيقول :

قد رتع الربيع في ربوعها	وسيقت الدنيا إلى أسواقها

وتمتاز بعض هذه الأسواق بالقباب ، كما يمتاز بعضها الآخر بالسقوف المعدنية أو الخشبية لتقي الزوار حرّ الشمس صيفاً ، والأمطار شتاء . ومما يلفت النظر في أسواق مدحت باشا والحميدية كثرة الثقوب في هذه السقوف نتيجة إطلاق الرصاص في المناسبات ، فينساب النور من خلالها ويرسم نقاطاً بيضاء لؤلؤية على الأرض ، يصل بينها وبين الثقوب خيوط من الأشعة تشكل منظراً جميلاً وتساعد في إضاءة الأسواق . وتزدحم الأسواق بزوارها إلى جانب أبنائها فتتعدد فيها الأزياء والوجوه والألسن .

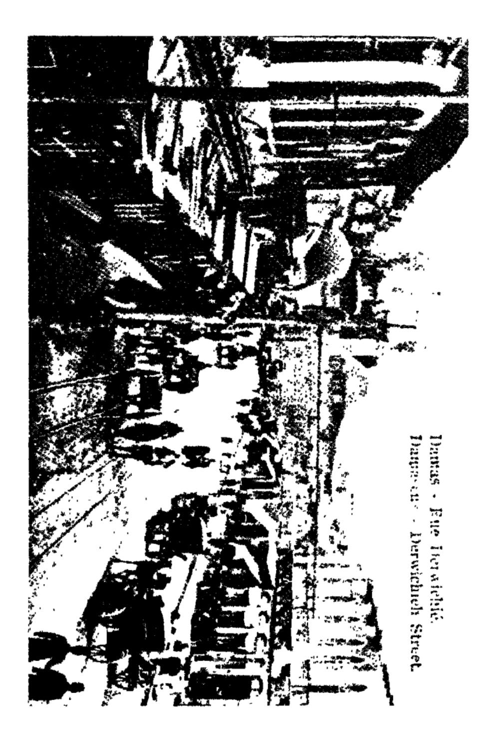
وتتميز الأسواق القديمة بالتخصص ، فيجتمع في السوق تجار وبائعو أنواع معينة من البضائع مما يسهل على الزوار الحصول على ما يرغبون بسهولة . ولكل سوق رئيس ينظم شؤونه ، ويعالج مشاكله يسمى شيخ السوق . ولم

يكن للأسواق القديمة نظام معين للدوام ، بل يتسابق الناس لفتح متاجرهم باكراً ففي البكور بركة . ويستمر العمل حتى المغرب دون انقطاع ، وعندما توفرت الكهرباء في الأسواق ، أصبح العمل يستمر حتى بعد العشاء . وكان لبعض الأسواق مراسيم معينة في العمل . ففي سوق الحميدية مثلاً حيث تباع المعروضات القديمة لصالح أصحابها عن طريق الدلالين كان لهؤلاء رئيس يسمى شيخ الدلالين ينتظر يومياً حضور شيخ السوق فينادي الدلالين ليشكلوا حلقة أمام دكان شيخ السوق ، ويدعون الله طالبين التوفيق والرزق الحلال ، ثم يقرؤون الفاتحة ، ويستأذن شيخ الدلالين شيخ السوق ليبدؤوا العمل . وفي أسواق أخرى كسوق الصاغة كان ينتظر الباعة حضور شيخ السوق ليفتح لهم باب السوق ويدخلوا إلى محلاتهم . وعادة يساعد التاجر في أعماله ، أولاده الكبار ويتردد الصغار أيضاً فرحاً بالحصول على الحلوان من الزبائن (الحلوان : هو بعض النقود يعطيها الشاري للأطفال إكراماً لهم) .

ومن الأسواق التي لا تزال موجودة في المدينة وتحافظ على طابعها القديم تقريباً : **سوق مدحت باشا** : وهو ثلاثة أقسام : الأول لبيع الأحذية والثاني للعباءات وكان يسمى سوق العبجية والثالث سوق العطارين ويليه سوق الخضر والحوانيت المختلفة حتى ينتهي في باب شرقي . **سوق البزورية** : وتباع فيه العطورات ولوازم الأفراح من سكاكر ومربيات وحلويات . **وسوق الطويلة** : وسمي كذلك لضيقه وطوله ، وتباع فيه أنواع من الأقمشة القديمة كالديما والمانيفاتورة . **وسوق القطن** : لبيع القطن . **وسوق الصوف** : لبيع الصوف . **وسوق الذراع** : تباع فيه الأقمشة النسائية . **وسوق القيشاني** : تباع فيه المطرزات . **وسوق الأروام** : لبيع الملابس القديمة . **وسوق الحميدية** :



سوق البزورية



Damas - Rue Derwichié.
Damascus - Derwichieh Street.

شارع الدرويشية

لبيع الأجواخ والأقمشة . **وسوق العتيق** : لبيع الخضار واللحوم . **وسوق النحاسين** : لبيع الأدوات النحاسية ، ويشتهر بكثرة ضجيجه المنبعث عن حركة المطارق . وكان في الميدان عنابر الحبوب وحوانيت خدمة الدواب .

ومن الأسواق التي زالت ولم يبق لها أثر بسبب التنظيم الحديث للمدينة ، أو بسبب الكوارث والحرائق :

سوق الصاغة : بين الجامع الأموي وسوق البزورية وكانت له أربعة أبواب تغلق وتفتح يومياً ، ودكاكين السوق مفصول بعضها عن بعض بألواح خشبية فقط . وقد احترق هذا السوق عام ١٩٦٠ ، وانتقل الصياغ إلى مناطق أخرى خاصة في شرقي منطقة الحريقة . **وسوق الزرابلية** : وكان امتداداً لشارع السنجقدار وحل مكانه شارع الثورة وكان يضم مصلحي الأحذية القديمة . **وسوق علي باشا** : متفرع عن المرجة ، وكان مشهوراً بفن عرض البضائع وهي من الفواكه الممتازة الطازجة والمجففة . **سوق الخجا** : للألبسة العسكرية والمحافظ الجلدية وكان ملاصقاً للجدار الغربي لقلعة دمشق فهدم في الثامنينات لإخلاء ماحول القلعة ، ونقل السوق إلى بناء جديد في شارع الثورة . **سوق المسكية** : كان تجاه الباب الغربي للجامع الأموي ، وكان مخصصاً لبيع الكتب والقرطاسية ، وكان يزدحم بالطلاب في مطلع العام الدراسي لبيع وشراء الكتب المدرسية القديمة . **وسوق القباقبية** : لبيع القباقيب وبعض المصنوعات المنزلية الخشبية . **وسوق القوافين** : لبيع الأحذية . وقد هدمت الأسواق الثلاث الأخيرة لإخلاء المنطقة حول الجامع الأموي .



سوق القطن

وبالمقابل ظهرت أسواق جديدة تمتاز بتنوع البضائع ، والتفنن بعرضها حسب هندسة حديثة خاصة ، وكلها في الشوارع الحديثة من المدينة ، أو التى أصابها بعض التنظيم . ومن هذه الأسواق : طريق الصالحية ، وشارع الحمراء ، والقصاع ، ومنطقة الحريقة .... وقد نظمت الدوائر المعنية مؤخراً مدة الدوام لكل سوق أو مهنه وحددت العطل الأسبوعية لها .

وتوجد في الأحياء أسواق فرعية لتلبية حاجات سكان الحي ، ومعظمها لبيع الأطعمة من فواكه وخضراوات وغيرها .

كما اشتهرت الأحياء القديمة بمرور الباعة المتجولين الذين يحملون بضائعهم على الدواب أو العربات ، وحلت محلها الآن السيارات الصغيرة ، وكان هؤلاء الباعة يتغنون في التعريف ببضائعهم حتى أصبح لكل مادة نداء خاص معروف ومنها :

الكْمِه : (بنت العرب يا سمرا ، بدوية يا سمرا) لأنهم يأتوا بها من البادية .

الطرخون : (خاين يا ، ويلك يا ابن الزنى يا خاين) لأنه ينبت في غير المكان الذي كان فيه ، كمن لا أصل له .

البندورة : (يا ريّان أحمر يا ريان) وعندما تنضج جيداً وتصلح للعصير يميزها البائع بقوله : (شَخّاخَة يا بندورة) .

الخيار : (ما بَلّيتو ، بَلْبَل حالو ، أصابيع البوبو يا خيار) دليل على أنه صغير ورفيع ومروي بشكل جيد .



شارع الدرويشية

الشوندر : (بَردان تعى صوبي بردان ، دَفّي بطنك بالعسل يا بردان) لأنه يباع شتاء بعد سَلْقِهِ بأوعية كبيرة (الحلّة) .

الفول : (طلْعِتْ إيدو هالنابِت يا شباب) ، ويباع مسلوقاً وحاراً في فصل الشتاء .

الأنكينار : (طرايا وصغار يا أنكينار ، أرضي شوكي الأنكينار) . لم يكن مرغوباً من قبل العامة ، وازداد الإقبال عليه في الستينات ، فانتشرت زراعته حسب الطلب .

الباذنجان : (يا ريّان أسود يا ريان . أسود من الليل يا ريان) .

الفجل : (أحمر ومُوَتّر يا فجل) .

الملفوف : (يخنا وطبوخ والجارية بتنفوخ) .

النعناع : (من على طراف السواقي يا نعناع) .

الكوسا : (هَيّه موز يا كوسا) . وكانت تباع بالعدد ثم أصبحت تباع بالوزن .

الذرة : وتباع مسلوقة ومشوية وينادي البائع (بيضا وريّانة ، طريّة يا درا) .

الخس : (الله الدايم ، الله الدايم . يا مال اللوان ، العشرة الكبار) والمقصود باللوان ، منطقة زراعية خارج دمشق تعرف باسم كيوان .

التوت : (دَق العصاية يا توت ، بلح يا توت) إشارة إلى أنه نظيف لم يجمع من الأرض بل توضع عادة تحت الشجرة قطعة قماشية كبيرة وتُضرب الأغصان بعصا طويلة . فيتساقط التوت على القماش ولا تصيبه الأوساخ والأتربة .

التوت الشامي: ويصنع منه شراب أيضاً (شامي يا شـامي ، بِرَوّق الـدم يـا شامي ، للشراب يا شامي) .

الدراق : (يْرْحَم يللي نصب هالدراقِن) ولما تعـددت أنواعـه ظهر نـداء جديد (هادا الغتمي يللي بقَشِّر يا دراقِن) .

اللوزالأخضر: ويسمى عقابية أو عوجا (أول فواكي الشام يا عوجا) لأنها أول ما ينضج من الفواكه وتبشر بالربيع .

الموز : (أبو نقطة يا موز) لوجود نقاط سوداء على قشرته وهـذا يتميز بمذاق جيد .

العنب : (هدّوا خيامك وراحت أيامـك ومـا بقي بـالكرم غير الحطب يا عنب . ودِّع والوداع لسنة يا عنب) وأحياناً يكتفي البائع بتحـديـد النوع فيقـول : (دومـاني يـا عنب ، أو ديراني ، أو زيني ، أو بلدي ...) .

الزعبوب : (شْرْنّ بْرْنّ يا زعبوب ، البزر محنّن يا زعبوب) .

التين : (بَعل يا تين ، عسل يا تين) .

الصبارة : (باردة وعلْ نيده هـالصبـارة بْتْبل القلب يـا حلوة ، مزّاويّـة يـا حلوة) لأن منطقـة المزة كانت مشهورة بـأشجـار الصبـارة وجودتها . وقد تطورت طرق عرض وبيع الصبارة في الشوارع الحديثة .

البطيخ : (عَلْ المكْسَر يا بطيخ) .

الثوم : (للمونة يا توم ، كسواني يا توم أو يبرودي يا توم) .

البرتقال : (يـافـاوي هـالبرتقـان يـافـاوي) أي مصـدره من يـافـا لأن فلسطين تشتهر بالحمضيات كثيراً . ويحددون أحيـانـاً نوعـه مع النداء بقولهم : (مغربي يا بردقان) أي أنه حلو المذاق .

البصل : (يا عيّار البصل ، للمونة يا بصل) .

البَليلَة : (بَليلَة بلبلوكِ وسبع جواري خدموكِ يـا بَليلَـة) وهي الحمص المسلوق ويباع ساخن وفوقه قليل من الكمون الناعم .

الكعك : له أنواع منها نداء (كعك بدبس ، يا مهوِّن يـا كريم ، تمـاري وكعك) .

المخَلَّل : (حَمْضُه طَرْبَش الخوابي يا مخلَّل ، الحامض يا ، الحامض يـا) دلالة على جودة صنعته وحموضة مرقته .

الناعم : أطبـاق من عجين رقيق مخبوز وعليـه بعض الـدبس وتبـاع في رمضان (ناعم يا ناعم ، الهوا رماك يا ناعم) .

حورسنين : (حورسنّين يا نَفا) نبات صغير من نوع البصليات يستخرجـه الفلاحون من الأرض في الربيع فقط .

السويق : كان أبناء القلمون وجبل الشيخ يفدون إلى دمشق صيفـاً ومعهم الثلج المضغوط والمـوضـوع في صنـاديـق خشبيـة (سحـاحير) لبيعه حيث يستخدم مع الشراب قبل معرفة البرادات وينـادي الباعة (يومينا السويق) .

عرق السوس : وهو شراب شعبي محضر من نبـات عرق السـوق (هـلأ عَبّينـا وعلى النبي صلينا ، تعا دوق هالعسل ، طـاستين بفرنـك) وكان يفصل بين النداء والآخر صوت موزون لضرب الطاسات ببعضها .

دبّوسَك : أشبه بشكل الدبوس وهو عبارة عن التفاح الصغير يغطى بقشرة رقيقة من السكر الأحمر المغلي ، وتغرس في كل تفاحة قطعة من القنب ليسهل مسكها وتناولها وكان يرغبها الأطفال كثيراً . وينادي البائع خاصة أمام المدارس الابتدائية (دبوسك يا ولاد) .

قشرالرمان: كانوا يجمعون قشر الرمان وبذور المشمش الكلابي لاستخدامها في الصناعة ويعطون مقابل ذلك قليلاً من القضامة بدل النقود وينادي المتجول لجمع القشور والبذور : (بقشر رمان يا قضامة) (يللي عنده بزر مرّ) .

ويتجول بعض الباعة بين الأحياء لجمع المفروشات القديمة من البيوت وبيعها في الأسواق فينادون : يَللي عْنْدَه تْخوتِه ، يللي عنده طْقومِه ، يللي عنده خزانات ، يللي عنده كراسي ، يللي عنده طرابيزات ...) .

وممن يتجولون أيضاً ويحملون أدواتهم معهم لممارسة مهنهم أمام الأبواب ، مصلح بوابير الكاز ، وله نداء بلحن خاص (مصلّح بوابير ، مصلح حنفيات) .

والذي يشحذ السكاكين ، يحمل مجلخة وينادي : (مْجَلِّخ سكاكين ، مجلخ مواس ، مجلخ مقصات) .

أما أدوات الطهي فكان معظمها من النحاس قبل استخدام الألمنيوم والتيفال ، وكانت تحتاج بين فترة وأخرى لطلي النحاس بمادة القصدير . فيتجول الْمُبَيِّضْ وينادي : (مْبَيِّض ، مْبَيِّض) . ومنهم من يتخذ مركزاً له وتُرسل الأدوات إلى دكانه .



صورة المجلخ

وأحدث أنواع النداء وأصعبها على السمع اليوم ، صوت بائع المازوت ويرافقه المنبه الخاص به . ولم يكن هذا معروفاً حتى منتصف القرن ويصعب وصف ندائه ، وما من أحد من سكان دمشق إلا يعرفه ، ومع ذلك فهو محبب في فصل الشتاء (مآزوووت) .

وكان فقراء اليهود يختصون بجمع بعض الأحذية القديمة والأدوات المنزلية البالية ، وينادون وهم يحملون كيساً كبيراً لوضع المشتريات (صبابيط للبيع ، عُتَق للبيع) . ومن العادات السيئة عند الأهل أنهم كانوا يهددون أطفالهم المشاكسين ، بأن يعطوهم لليهودي ، وأن الكيس الذي يحمله يضع فيه الأطفال .

صناعات مميزة : كانت لبعض الصناعات في مطلع القرن ميزات قد تثير العجب عند أبنائنا ، ولكننا عرفناها وشاهدناها بأنفسنا منها :

الحلاق : كان يمارس عدة اختصاصات ، توزعت الآن على أصحابها ، وكانت دكانه تتميز بأنها تضم عدداً من المرايا الكبيرة ولوحات الحكم والمواعظ التي ينشغل الزبائن أثناء انتظارهم بقراءتها أو تأمل ألوانها وزخارفها ويوجد على الطاولات بعض الأواني الزجاجية (قطرميزات) المملوءة بالمياه وتتمايل فيها ديدان العَلَق ، التي يبيعها للمرضى المصابين بالاحتقان لتمص دماءهم . وفي ركن آخر توجد أوعية خاصة لتحضير الأدوية والمراهم .

كان بعض الحلاقين يمارسون إلى جانب الحلاقة ، عدة مهن أتقنوها بالخبرة والوراثة ، منها : الفصادة والحجامة . وعندهم آلاتها . ولبعضهم معرفة بالجراحة ، وعندهم أدواتها . ومراهم ولصوق للأمراض الجلدية . ويختنون

الأطفال والكبار ، ويعالجون بالكي . ويخلعون الأسنان والأضراس . لذلك يقول المثل العامي : (بيكون عَم يحلق بيصير بيقلع ضراس) . والحلاق يدعى للبيوت لمعالجة المرضى أحياناً . وهو يتصل بالناس ويداويهم ويستمع إليهم . وقد يُحضر الأدوية بنفسه ، أو يكتب وصفة بها ليحصل المريض عليها من عند العطار .

ودكان الحلاق ملتقى كل رجال وشباب الحي . فأذنه تسمع كل شيء ، ولسانه يتحرك آلياً مع حركة المقص بين أصابعه . فهو مركز إعلام ووكالة أنباء لأخبار الحي . وطبعاً لم يكن يوجد حلاق للنساء قبل العقد الخامس .

العطار : ويجمع مهنتي الطب والصيدلة أحياناً . فلم يكن عدد الأطباء كبير ، والاختصاص شبه معدوم في مطلع هذا القرن . وعدد كبير من المرضى يقصدون الصيدلاني (الأُجَزْي) أو العطار للعلاج . وكان العطار يسمع شكوى المريض ويصف له العلاج ، ويعطيه بعض الأعشاب أو المراهم ، وكان معظم العطارين في سوق البزورية لذلك تأسست أقدم صيدلية حديثة في المدينة ، وهي صيدلية فارس ، في سوق البزورية حيث يتواجد المرضى ، والعطارون .

أما الصيدلاني فكان ماهراً في تحضير الأدوية ، لأن الأدوية المستوردة (الأفرنجية) قليلة في الصيدليات . وكثيراً ما كان المريض يأتي إلى الصيدلاني ، فيراقب حرارته ولون لسانه ، ويسأله بعض الأسئلة ثم يصف له الدواء .

وبعض العلاجات البدائية كانت مستعملة حتى الأربعينات بسبب عدم

الـوعي الصحي ، فكثيراً مـا يكتفي المريض بفتـح (الْمُصرِف) بسـاقـه أو ذراعـه ، أو أخـذ (كاسـات الهوا) في ظهره ، ووضع (اللـزقـات) مكان الألم وهي من النشا أو البابونج أو اللبن ... وكانت الحمية أساس العلاج .

أمـا اليـوم فـالـوعي الصحي ، وتـوفر المختصين من الأطبـاء ، وتعـدد الأطباء والمراكز الصحية . كل ذلك أدى لتـدني نسبـة الوفيـات . وهـذا أحـد أسباب تزايد السكان بنسبة كبيرة خلال نصف قرن .

وبعـد زوال عـدد من المهن القـديمـة ، ظهرت مهن حـديثـة تتطلبهـا مظاهر الحياة الجديدة ، إضافة إلى مختلف المعامل والمصـانع . ومن هـذه المهن على سبيل المثال : مكاتب الهنـدسـة بـأنواعهـا ، ورشـات الصيـانـة للكهربـاء والراديـو والتلفـزيـون والمكيفـات والسيـارات ... ومهن الغسيـل والكـوي والمطاعم ...

ومن المهن التي زالت تقريباً أو زوالها جزئي : الطرابيشي ، الكلاس ، الطيان ، الإسكافي ، الحطاب ، المبيض ، البيطار ، البوايكي ...



التطور السياسي

انتهى الحكم العثماني في بلاد الشام عام ١٩١٨ بعد أن استمر أربعة قرون ، كانت دمشق خلالها مركز إحدى الولايات الإدارية كما كانت من قبل في عهد المماليك . واستعادت مكانتها السياسية وأصبحت عاصمة البلاد . وإن كنا نستعرض هنا تطور دمشق من الناحية السياسية فإننا نتكلم عن أحداث هامة تمثل التطور العام في كل مدن القطر . فما أصاب دمشق كان يصيب حماه وحلب وحمص . وما قدمته دمشق ، شاركتها به اللاذقية ودير الزور والسويداء ودرعا . فقد ارتبط مصير هذه المنطقة ببعضها منذ أن نجح المستعمر بتقسيم بلاد الشام وفرض معالمها السياسية ، وحدودها الوهمية .

تقسم الفترة التي نتكلم عنها من تاريخ دمشق إلى قسمين : الانتداب ، والاستقلال وسنمر ببعض الأحداث الهامة في كل منها :

١ ـ الانتداب الفرنسي ١٩٢٠ ـ ١٩٤٥ : ضاع الحلم الكبير بتأسيس حكومة وطنية أعلنها الشعب في الثامن من آذار عام ١٩٢٠ . وبدأت مرحلة الاستعمار الفرنسي ، بدخول القوات الفرنسية إلى دمشق في ٢٥ تموز عام ١٩٢٠ ، بعد معركة ميسلون التي روت دماء الشهداء أرضها طوال يوم ٢٤ تموز . ودخل القائد الفرنسي غورو دمشق ، وتوجه مباشرة إلى ضريح صلاح الدين الأيوبي يريد أن يتحداه قائلاً : هاقد عدنا يا صلاح الدين .

مؤكداً أن دخول الفرنسيين دمشق هو امتداد للحروب الصليبيـة التي تعرضت لها البلاد منذ عدة قرون .

دمشق العاصمة : رغم التجزئة السياسية التي فرضها المستعمر على بلاد الشام لم تنعم دمشق طوال فترة الاستعمار بجمع كل المناطق التي تتألف منها الجمهورية السورية في دولة واحدة . وكان المندوب السامي الفرنسي يتحكم بالوضع الإداري فتارة يقسم البلاد إلى دويلات ، وتارة ترضخ السلطات المستعمرة أمام نقمة الشعب وثورته فتعيد توحيد بعض الأجزاء . وبذلك كان ترابط دمشق مع بقية المدن السورية في اضطراب دائم . ولما كان بحثنا يختص بدمشق فسنذكر أهم الأحداث التي شهدتها المدينة ، وهي مرآة عاكسة لما كان يحدث في بقية أنحاء البلاد .

تـوالى على الحكم عـدد من رؤسـاء الـوزارات الـذين كلما رفض أحـدهم الرضوخ لمطالب المستعمر ، استبدله المندوب السامي المقيم في بيروت برئيس آخر . وكان أول رئيس جمهورية تم انتخابه في دمشق هو محمد علي العابد عام ١٩٣٢ ، وكان انتخاب الرئيس يتم من قبل أعضاء مجلس النواب . وبعد استقالته انتخب هاشم الأتاسي عام ١٩٣٦ الذي استقال عام ١٩٣٩ بعد أن تأزمت العلاقات السياسية بين سورية وفرنسا بسبب سلب لواء إسكندرون وضمه إلى تركيا . وعندها استلمت السلطات الفرنسية الحكم مباشرة مستعينة ببعض الوزراء حتى تم تعيين الشيخ تاج الدين الحسني رئيساً للجمهورية عام ١٩٤١ . فلم يستقبل الشعب هذا التعيين بارتياح ، ولم يلبث تاج الدين طويلاً في سدة الرئاسة بل توفي عام ١٩٤٣ . وقد أعلنت فرنسا استقلال سورية مرغمة خلال هذه الفترة فانتخب المجلس النيابي شكري القوتلي رئيساً للبلاد .

ومن النكبات التي أصيبت بها المدينة في ظل الانتداب :

حريق حي سيدي عامود : كانت الثورة السورية عام ١٩٢٥ رداً طبيعياً على سياسة المستعمر في البلاد . وكانت دمشق وغوطتها من مراكز هذه الثورة . وقد نال المدينة وأهلها من وحشية الفرنسيين تدمير الأحياء وتشريد السكان ، مما أثار سخط ونقمة العالم كله .

كان الجنرال ساراي في دمشق عندما بلغه نبأ دخول الثوار إلى المدينة قاصدين مركز إقامته ، فهرب عائداً إلى بيروت بعد أن أصدر أوامره بضرب المدينة بالقنابل وذلك في تشرين الأول . فتعرضت بعض الأحياء للقصف المدفعي ، ومنها حي سيدي عامود الممتد بين سوق مدحت باشا وسوق الحميدية . واستمر القصف ثلاثة أيام فكان من نتائجه سقوط قذيفة على قبة حمام الملكة في الدرويشية فاشتعلت النيران وامتدت إلى المتاجر والبيوت المجاورة في محلة سيدي عامود . وتساقطت القنابل في مناطق مختلفة ، فمات النساء والأطفال تحت الركام ، وداهم اللصوص البيوت والحوانيت ، وتهدم نحو ستمائة دار بينها أشهر البيوت الدمشقية ببنائها وزخارفها وكانت فيها دار تضم قاعة فخمة فيها بركة مصنوعة من ألف وثلاثمائة قطعة صغيرة من الأحجار الملونة . وسقفها الخشبي يقدر بآلاف الدنانير وكان السواح يؤمونها ويبدون إعجابهم عند مشاهدتها . كما أصاب الدمار دار السعادة والمدرسة القجماسية وحمام عذراء والمدرسة الصلاحية وضريح سيدي عامود نفسه (وهو أحد الأولياء الصالحين) . وقدرت الخسائر بنحو ثلاثة ملايين جنيه . وأصبحت المنطقة تعرف باسم الحريقة ونزح السكان إلى المهاجرين وأحياء طريق الصالحية .

كارثة حي الكلاسة : حلت في حي الكلاسة عام ١٩٤١ كارثة تسببت في دماره وقتل الأبرياء من أبنائه ، وهذا دليل آخر على ما يسببه الاستعمار في البلاد المستعمرة من دمار وويلات . ولا ذنب للمفجوعين إلا أن البلاد تخضع لمستعمر اشترك في الحرب العالمية الثانية .

هاجمت القوات الإنكليزية سورية لطرد القوات الفرنسية التابعة لحكومة فيشي الموالية للنازية . وتعرضت دمشق أثناء ذلك لغارة جوية ليلية ، نشرت أصواتُ الانفجارات الرعب والخوف في أنحاء المدينة واستيقظ الناس صبيحة الأربعاء وهرعوا للتعرف على مناطق الانفجارات . فكان القصف قد أصاب منطقة الحريقة التي كانت تستعيد نشاطها إثر الدمار السابق إبان الثورة السورية ، وحي الكلاسة بجوار ضريح صلاح الدين شمال الجامع الأموي . وأسرع رجال الإطفاء (وكانت استعداداتهم محدودة) وفرق الكشافة وأصحاب الحمية لتقديم العون للمنكوبين . فرفعوا الأتربة والأنقاض بحثاً عن صوت يستنجد من تحت التراب ، أو رفع جثة لم يظهر منها إلا يد تتحرك حيث لم يستطع الفم المدفون تحت التراب أن يرتفع ، ولينقلوا طفلاً رضيعاً لا زال يرضع من ثدي أمه في الفراش وقد فارقت الحياة ، وآخر يجلس القرفصاء في المرحاض وقد أصبح جثة هامدة ... ومناظر مروعة عديدة رواها لنا من شاركوا في عملية الإنقاذ .

عدوان ٢٩ أيار عام ١٩٤٥ : على أثر إصرار الشعب والحكومة الوطنية استلام المرافق الحيوية ، والجيش وتطهيره من العناصر الفرنسية ، فكرت السلطات المستعمرة بتدبير مذبحة شبيهة بمذبحة الجزائر التي ذهب ضحيتها نحو ٤٥ ألف شهيد ، لتقضي على الروح الوطنية المتأججة في نفوس

أبناء الشعب . فبدأت القيادة الفرنسية توغر نفوس وقلوب الفرنسيين والأفارقة (السنغال) في الجيش ضد أبناء الشعب . وطلبت منهم انتظار ساعة الانتقام ، وذلك تمهيداً لعدوان ٢٩ أيار ، الذي بدأ الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم ، إثر رفض حرس المجلس النيابي (رجال الدرك) الوقوف تحية للعلم الفرنسي في موعد إنزاله في مركز رئاسة الأركان العامة للجيش الفرنسي الواقع تجاه المجلس . فاقتحم الفرنسيون المجلس بأسلحتهم النارية والسلاح الأبيض ، ومثلوا بالحرس بعد قتلهم ، وتهدم قسم من المبنى مما اضطر النواب لعقد جلساتهم في مدرج الجامعة السورية ريثما تم ترميمه . كما فتح الفرنسيون النار من البناء القديم للهاتف والإذاعة في شارع النصر على رجال الأمن في سراي الحكومة ، وتم قطع الهاتف عن الدوائر ، والكهرباء عن الأحياء ليلاً . ورافق ذلك ضرب المدينة بالقنابل من المزة ، فتساقط بعضها على مهاجع السجناء في القلعة ، مما اضطر قوات الدرك إلى كسر الأقفال وإطلاق سراح المساجين حتى لا يموتوا تحت الردم . ومات العديد من أبناء الشعب نتيجة العدوان الغاشم ولكنهم كانوا يدفعون ثمن النصر والاستقلال وتحقيق الجلاء في ١٧ نيسان عام ١٩٤٦ .

٢ ـ الاستقلال والبناء ١٩٤٦ ـ ١٩٧٠ : شهد الكثيرون من أبناء دمشق دخول الفرنسيين إلى العاصمة يوم ٢٥ تموز عام ١٩٢٠ وأضنى الأسى واعتصرت الأحزان قلوبهم ، وظنوا أن دماء شهدائهم في ميسلون ضاعت هدراً . ولكن روح النضال ، وإباء العروبة ، والإيمان بالحرية جددت عزائمهم ، فاشتعلت الثورات وتساقط الشهداء ، وتوالت الإضرابات والاحتجاجات ، وتصدى الشعب للعدوان ، حتى تحقق الجلاء في نيسان ١٩٤٦ .



صورة للمجلس النيابي

لم تشهد دمشق عيداً كعيد الجلاء الذي شاركها فيه عدد من الدول العربية ، فسارت في العرض العسكري الرايات السورية والمصرية والعراقية واليمنية والأردنية والسعودية تحملها سواعد وفود عسكرية صغيرة تمثل الدول الشقيقة . أما الجيش السوري الذي كان قبل سنوات يحمل الصبغة الفرنسية ، ويتصدى لكل حركة وطنية ، فإنه يوم الجلاء رَفع رايات النصر ومشاعل الحرية وأنشد جنوده نشيد الحرية ، نشيد الوطن : حماة الديار ...

وكان في كل حي فرح ، وفي كل شارع مهرجان ، وفي كل ساحة دبكة واحتشد الشباب والشيوخ والأطفال والنساء في كل مكان ، يعربون عن فرحتهم . ومشت آلاف العراضات تعلن بهجتها بعد أن كانت تصب جام غضبها على المستعمر ، يرافقها قرع الطبول وزغاريد النساء . ومسيرات الشباب ، وأرتال الطلاب والطالبات ، وفرق الكشافة كلها تردد :

ليس بعـــــد الظلم إلا فجر مجـــــد يتســـامى

وامتدت المصابيح الكهربائية ورفعت الأعلام في كل مكان . ووضعت مكبرات الصوت في كل منعطف وشارع ليصدح منها صوت واحد يشق عنان السماء :

حماة الديار عليكم سلام أبت أن تذل النفوس الكرام
عرين العروبة بيت حرام وعرش الشموس حمى لا يضام

لقد عاد في ١٧ نيسان عام ١٩٤٦ إلى سورية عزها ، وإلى دمشق مكانتها . وهي عاصمة أول دولة عربية نالت استقلالها وأصبح حكمها بيد أبنائها .

ولكن لم ينعم الشعب بالهدوء ، ولم يتفرغ لمسيرة البناء بل عانى من اضطراب سياسي خيم على البلاد مع بدء الاستقلال . فقد تعرضت سورية لضغوط استعمارية كثيرة بعد أن نالت استقلالاً تاماً لاتشوبه شائبة ، فانهالت عليها المساعدات المشروطة بمعاهدات مغرضة ، أو أحلاف استعمارية . وكان على الشعب أن يصمد أمام هذه الضغوط . واحتدم في البلاد صراع سياسي على السلطة والنفوذ بين فئات وأحزاب سياسية متعددة . صراع بين القديم والجديد الحديث ، بين زعماء أدوا الرسالة وشباب أرادوا أن يحملوا الأمانة . واشتد الصراع سنتين ثم نتج عنه عدة انقلابات عسكرية شهدتها البلاد كان أولها في ٣٠ آذار عام ١٩٤٩ ، وأصبح إذاعة بيان رقم (١) على كل لسان بعد أن حدث في نفس العام ثلاثة انقلابات عسكرية متلاحقة . وانتهى هذا الاضطراب السياسي بثورة الثامن من آذار عام ١٩٦٣ . ثم كان عام ١٩٧٠ بدء مرحلة جديدة في تاريخ سورية الحديث مع الحركة التصحيحية وصانعها الرئيس حافظ الأسد .

تتميز مرحلة الاستقلال بالأحداث التالية :

دمشق وكارثة فلسطين عام ١٩٤٨ : كانت دمشق مركز تجمع المواطنين المتطوعين من أنحاء القطر للمشاركة في الدفاع عن أرض فلسطين وعروبتها عندما هددها الغزو الصهيوني . وكان سكان دمشق يودعون قوافل المجاهدين من المتطوعين وأفراد جيشنا البواسل عند توجههم لأداء واجبهم القومي على أرض فلسطين . ولما تغلبت الخيانة والتآمر والدعم العسكري للصهاينة ، وعندما أُخرج شعب فلسطين مشرداً معذباً من أرضه ، فتحت

دمشـق أبـوابهـا لتستقبـل الأخـوة الـلاجئين وتشـاركهم مـأسـاتهم ، فتحـولت المدارس والمساجد إلى بيوت يأوي إليهـا ضحـايـا الظلم والطغيـان . وانهـالت التبرعـات والمسـاعـدات من كل مكان للتخفيف من شـدة النكبـة . وشعرت دمشق بنكبة فلسطين كأنها نكبتها .

الوحدة المباركة ١٩٥٨ : من أهم أحداث فترة الاستقلال هـذه ، على الصعيدين الوطني والقومي ، تحقيق مرحلة أوليـة ، من آمـال وأمـاني الشعب العربي في الوحدة الكبرى ، وهي الوحدة الثنائية بين سوريـة ومصر ، وكانت ثمرة تصاعد نضال الجماهير ، واتساع قـاعـدة الجبهـة التقـدميـة الوحـدويـة في سورية التي نادت بالوحـدة مع مصر التي تخلصت من كابوس الحكم الملكي وقـام فيهـا حكم وطني تقـدمي عـام ١٩٥٢ . واستطـاعت إرادة الشعب العربي في القطرين التغلب على الصعـاب ، وجرت مفـاوضـات موسعـة بين الحكومتين انتهت بـإعلان الـوحـدة في دمشـق والقـاهرة في ٢٢ شبـاط عـام ١٩٥٨ . لقـد عاشت دمشق عرسها الثاني بعـد عيـد الجلاء ، وعمت الفرحـة قلوب النـاس ، وأقيمت الـزينـات في كل مكان ، وانهـارت الحـدود بين القطرين ، وألغيت جوازات السفر ، وأصبحت الرحلات بين الإقليمين الشمالي والجنوبي كأنها خـط داخلي . وفي نفس الـوقت ، دق نـاقـوس الخطر في إسرائيـل التي نـادت وأمريكاه لتقضي على هذه الوحدة التي هـددت كيـانهـا وأنـذرتهـا بـالزوال . فتعرضت وحدة القطرين لهزات عنيفة أدت لانفصامها .

ثورة ٨ آذار المجيدة ١٩٦٣ : كنت في إحـدى قرى الجولان صبيحـة الثامن من آذار ، أنتظر إذاعة النبأ الذي أعلنته إذاعة دمشق في البلاغ رقم (١)

عن قيام ثورة الثامن من آذار . وكان هذا آخر بلاغ رقم (١) يسمعه الشعب ، وبه انتهى الاضطراب السياسي الذي بدأ عقب الاستقلال . وانتهت الانقلابات العسكرية ، واستلم حزب البعث العربي الاشتراكي زمام الأمور في البلاد . وبدأت مرحلة التحول الاشتراكي والسير في سياسة جديدة على الصعيدين الداخلي والخارجي .

عدوان ٥ حزيران عام ١٩٦٧ : لم تكتف إسرائيل بتأسيس موضع قدم لها في الأرض العربية بحجة ادعاءات باطلة وأكاذيب واضحة ، بل أرادت أن تدلل على سياستها التوسعية ونواياها العدوانية . فعملت بالخفاء ، وخططت لعدوان جديد على الأراضي العربية نفذته في الخامس من حزيران . فاغتصبت مناطق عربية جديدة منها الجولان ، المنطقة المعطاءة الخيرة . ومرة أخرى تستقبل دمشق إخوة أعزة على قلوب أبنائها ، نكبوا في أموالهم وديارهم وأنفسهم ، فوجدوا في عاصمة العروبة من يساعدهم على تخطي الأزمة ، وتفادي مآسي البؤس والتشريد . وإن استطاعت قواتنا المسلحة استرداد القنيطرة في حرب تشرين التحريرية فإن أملنا كبير في تحرير الجولان وكل الأراضي العربية .

المقاومة الشعبية : تفجرت حركة المقاومة في دمشق وبقية المدن والقرى السورية منذ دخول المستعمر إلى البلاد . واستمرت ربع قرن حتى تغلبت على الاستعمار وحققت الجلاء . وقد شارك في هذه المقاومة :

أ ـ **العلماء وشباب الأحياء :** أعلن الشباب الكفاح المسلح ، واعتبروا نضالهم امتداداً للثورة العربية . فأشعلوا الثورات في كل مكان ، وقد روت

دماء الشهداء كل بقعة من أرض الوطن بما فيها شوارع دمشق وغوطتها .
وكانت الثورة السورية أهم هذه الثورات ، حمل المجاهدون السلاح وأعلنوا الجهاد . وانتظموا في جماعات يرأسها زعماء الأحياء ، فكانوا يداهمون المراكز الفرنسية ، وينصبون الكمائن . وكان من ورائهم نخبة من العلماء ، يبثون فيهم روح الإيمان وحب النضال ، ويحثون الناس على تقديم العون والمال للمجاهدين وعلى رأسهم المحدث الأكبر الشيخ بدر الدين الحسني الذي قال للمندوب السامي الفرنسي عندما زاره وطلب منه العمل على تهدئة الأوضاع : لاتهدأ الثورة إلا بخروجكم ، وقام بجولة في محافظات القطر يحث الناس على الثورة ضد فرنسا .

كما كان العلماء يرصدون كل مؤامرات المستعمر ويتصدون لها ، فعندما أشعل الفرنسيون الفتنة الطائفية وحرضوا على مداهمة أحياء المسيحيين ليبرروا وجودهم لحمايتهم ، كان العلماء يحثون الناس على حسن معاملة إخوانهم المسيحيين ، وزار المجاهد حسن الخراط محلات المسيحيين وهدأ روعهم قائلاً لهم : إنكم إخواننا . وقد تلقى الشيخ بدر الدين الحسني من غبطة بطريرك الأرمن في بيروت رسالة يشكره فيها على موقفه وإخوانه العلماء في حماية الأرمن وغيرهم من الطوائف الأخرى في دمشق .

ب ـ الزعماء السياسيون : هم الذين نالوا قسطاً وافراً من الثقافة ، وزار بعضهم ديار الغرب واطلعوا على السياسة العالمية ، فناضلوا ضد المستعمر بكشف أكاذيبه ، وفضح أساليبه وأعماله الوحشية ، سواء بالندوات أو الصحافة . وأسسوا الأحزاب وشكلوا الوفود لمفاوضة الحكومة الفرنسية والمطالبة بالحقوق الوطنية . وكان لهم دور كبير في تنظيم المظاهرات



صورة الشيخ بدر الدين الحسني

والمقاومة . وأبرزها الإضراب الذي تجاوز خمسين يوماً في مطلع عام ١٩٣٦ . أغلقت فيه كل أسواق المدينة ، وتعطلت الصناعة والتجارة . وعاش الناس على ماتجود به مؤونتهم المنزلية ، ويقدم غنيهم لفقيرهم حتى يصمد الجميع رافعي رؤوسهم . وكان الزعماء السياسيون يشرفون على هذا الإضراب ويعرضون أنفسهم للملاحقة والاضطهاد والسجن . ونظموا الشباب في فرق كشفية أو شبه عسكرية مثل فرق القمصان الحديدية ، لضبط نشاطهم والاستفادة من فعالياتهم بشكل منظم . فكان لهذه المنظمات دور كبير في الأزمات التي تعرضت لها البلاد ، كمساعدة منكوبي حادثة الكلاسة . ونظموا الدوريات للإشراف على الأمن في الأحياء أثناء العدوان الفرنسي ، حيث كانت قوات الأمن الداخلي مستنفرة للتصدي للجيش الفرنسي .

جـ - الطلاب : هم الشريحة التي تجمع بين حماس الشباب ، وثقافة الزعماء . فتارة يقارعون الاستعمار بالحجارة ، وتارة بالاحتجاجات وإطلاق الشعارات . وهم يدعمون كل خطوة في سبيل نيل الاستقلال . فكانوا يهجرون مقاعد الدراسة سواء في الجامعة أو المدارس الثانوية وحتى الابتدائية ، ويعرضون أنفسهم للخطر ، ويخرجون حاملين محافظهم بأيديهم يستخدمونها لدرء الأخطار عنهم . وكان دور الطلاب في مطلع العشرينات ضعيفاً لقلة عددهم ، وأول مظاهرة لهم كانت في الأول من آذار عام ١٩٢١ حيث وقف قسم من الطلاب خارج مبنى مكتب عنبر وأفهموا القادمين أن الإضراب لون من ألوان الاحتجاج على الانتداب ، وأن التجمع يقع في المرج الأخضر (أرض مدينة معرض دمشق الدولي حالياً) فعلى الطلاب الانطلاق إليه . وقد تم ذلك بالفعل ، فلم يدخل المكتب أحد ، ولم تلق الدروس كالمعتاد .

وفي مطلع عام ١٩٢٥ ، قامت مظاهرات لعب فيها طلاب المدارس العالية دوراً خطيراً للتنديد بسياسة المستعمرين ، بمناسبة زيارة بلفور لسورية ، وسقط بعض القتلى في هذه المظاهرات بأيدي الجنود الفرنسيين . وأدركت السلطات الفرنسية خطر انضمام الطلاب للمقاومة فأصدرت القرار رقم ٧٠ ومفاده (يطرد من المدارس الرسمية كل تلميذ يثبت عليه اشتغاله بالأمور السياسية ، أو اشتراكه بمظاهرات أو جمعيات لها صفة سياسية) . ولكن هذه النخبة الواعية ما كانت لترضخ لأوامر وتهديد المستعمر وأعوانه .

كانت معظم مظاهرات الطلاب تنطلق من التجهيز الأولى (جودة الهاشمي) وتبدأ المسيرة بالنشيد الذي انتشر على كل لسان :

يا ظلام السجن خَيِّم إننا نهوى الظلاما
ليس بعد الليل إلا فجر مجد يتساما
أيها الحراس رفقاً واسمعوا منا الكلاما
متعونا بهواء منعه كان حراما

☆ ☆ ☆

يا رنين القيد زدني نغمة تشجي فؤادي
إن في صوتك معنى للأسى والاضطهاد
لست والله نسيا ما تقاسيه بلادي
فاشهدي يا نجم أني ذو وفاءٍ ووداد

☆ ☆ ☆

إيه يا دار الفخار يا مقر المخلصينا
قد هبطناك شبابا لا يهابون المنونا

وتعــــاهـــــدنـــــا جميعـــــاً يـــوم أقسمنـــــــا اليمينــــــا
لن نخــون العهـــــد يــومـــــاً واتخـــذنـــا الصــدق دينـــا

☆ ☆ ☆

يـــــا فرنســـــا لاتغـــــالي وتقـــولي الفتـــح طـــــابـــــا
ســوف تـــأتيـــكِ ليـــــالي ضَـــوْؤهـــا لمـــع الحرابـــــا

وعندما تصل المظـاهرة إلى الشوارع الرئيسيـة ينضم إليهـا معظم المـارة من رجال وأطفـال ، ويغلقون المحلات التجـاريـة والأسواق ، وخـاصـة سوق الحميدية . وإذا تصـدت لهم قوات الاحتلال ، يرشقوهـا بـالحجـارة التي كانت متوفرة في الشوارع قبل فرشها بالإسفلت ، ويحطمون زجـاج المراكز والمحلات التي يرتادها الفرنسيون . وأحياناً يملأ المتظاهرون محـافظهم بـالحجـارة خوفـاً من المفاجآت في الشوارع المرصوفة .

وكثيراً ما كانت السلطـات الفرنسيـة تحـاصر التجهيز الأولى لتمنع خـروج المظاهرات ، فكان الطلاب يضربون القوات المحاصرة بالحجـارة من على سطح المـدرسـة ومن خلال أبوابهـا ونوافـذهـا ، بينمـا يقـابلهم الجنـود بـالرشـاشـات والبنـادق . وتتصدر باحة ثـانويـة ابن خلـدون اليوم . لوحـة رخـاميـة تعود لعام ١٩٤٦ تحمل اسم الطـالب فوزي اللحـام الـذي سقـط بين رفـاقـه مضرجـا بدمائـه واستشهـد على أرض مـدرستـه خلف بـابهـا الغربي عـام ١٩٤٣ على أثر صدام غير متكافئ بين طلاب معتصين بالمـدرسـة سلاحهم الحجـارة ، وجيش مختلط سلاحه البنادق والرشاشات .

وكان للطلاب مواقف وبطولات كثيرة ، تضاف إلى بطولات كل أفراد الشعب وعواطفهم الجياشة ، منها :

ـ خرجت مظاهرة من مكتب عنبر للتنديد بوعد بلفور ، واتجهت نحو سوق الحميدية . فانضم إليها بعض العامة بدافع الحماس الوطني رغم جهلهم بالأمور السياسية ، ولم يكونوا سمعوا باسم بلفور . فكان بعضهم يردد الهتاف مع الطلاب بدلاً من : فليسقط وعد بلفور ، ليسقط واحد فركون ، وآخر يهتف : فليسقط واحد فرفون .

وأما حماس الطلاب ووطنيتهم فيدل عليها الحادث التالي :

ـ في إحدى المظاهرات وأثناء ملاحقة الطلاب ، تهشمت مقدمة أسنان الطالب فؤاد القادري فقرر رفاقه أن يلبسوا أسنانه حلة من الذهب بدل الأسنان التي فقدها . وجمعوا المبلغ اللازم من (خرجياتهم) الضئيلة .

ـ حدث في ١٦ آذار من عام ١٩٤٤ أن ثلاثة جنود من الجيش الإفرنسي المختلط أرادوا الدخول إلى الملعب البلدي عنوة أثناء مباراة بكرة القدم فمنعهم الحارس وقال لهم : هذه مباراة لا يدخلها إلا المدعوون ، فانهالوا عليه بالضرب . ولما استنجد بأقرب شرطي ، جلدوا الشرطي بمناطقهم جلداً حاداً ، فاستل مسدسه وأصاب اثنين ، قُتل أحدهما . فتدخل الجنود من خلف الملعب ورشقوا كل من في الملعب بالحجارة ، واقتحموا الملعب وانهالوا على الناس بالضرب ، فأسرع الناس إلى الهرب .

أضربت دمشق يوم السبت في ١٨ آذار إضراباً عاماً احتجاجاً على تصرفات الجنود في المباراة الرياضية . وقامت المظاهرات منذ الصباح وخرج

طلاب المدارس والمعاهد العالية بمظاهرة منظمة ، وقدموا عريضة بمطالبهم إلى وكيل رئيس الوزراء . وشاهد المتظاهرون قرب حديقة الأمة سيارة إفرنسية كبيرة فأوقفوها وأنزلوا من فيها ، ثم كبوها على وجهها وحرقوها .

- ويصف شاهد عيان بطولات الأطفال فيقول :

إثر حملة الاعتقالات التي شنتها سلطات الاحتلال بعد وفاة الزعيم إبراهيم هنانو عام ١٩٣٥ ، انفجر الغضب المكتوم وتظاهر أفراد الشعب في كل مكان ، وخرجت القوات الفرنسية بحديدها ونارها : « إذا خمسون من الأطفال ، لا تتجاوز سن أكبرهم التاسعة ، ينبعون من بين الناس ، يخرجون من بين الأرجل ، منهم التلميذ ذو الصدرية السوداء والأزرار اللامعة قد فرَّ من مدرسته ، وحقيبته لا تزال معلقة بعنقه ، وحمل مسطرته بيده ... ومنهم صبي اللحام ، وأجير الخباز ، قد اتحدوا جميعاً ، وأقبلوا يهجمون بالمساطر على الدبابة وهي تطلق النار ، وهم يطلقون من حناجرهم الرقيقة بأصواتهم الناعمة ، الأنشودة البلدية التي كان يرددها الكبار :

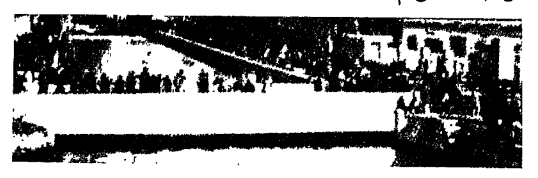
وصغارنا تحمل خناجر وكبارنا عَ الحرب واصل
يا بالوطن يا بالكفن

فوقف الناس ينظرون إليهم ، وقد عراهم ذهول عجيب ، فارتخت أيديهم بالحجارة التي كانوا يقاومون بها الرصاص ، حتى رأوا الأطفال قد تسلقوا الدبابة وركبوها فاشتعل الدم في عروقهم ، وفي أقحاف رؤوسهم ، فأنشدوا أنشودة الموت : يا سباع البرحومي ... » .

د ـ المرأة : حافظت المرأة العربية في القرن العشرين على مواقف البطولات التي عرفت بها منذ فجر الإسلام عندما خرجت ترافق جيوش التحرير . ومنذ بدء الاحتلال وقفت المرأة إلى جانب الرجل في نضاله . ولم يمنعها حجابها من الخروج إلى الشارع للتنديد بالاستعمار وسياسته . فعلى أثر اعتقال بعض الزعماء الذين رحبوا بزيارة كراين الثانية للبلاد ، أضربت دمشق في ١٠ نيسان ١٩٢٢ ، وخرجت مظاهرة للسيدات يهتفن مطالبات بالاستقلال . ولم يستطع رجال الأمن تفريق مظاهرتهن ، بل تابعن التجوال في شوارع دمشق . كما شاركت طالبات دار المعلمات في مظاهرة احتجاج على سياسة المستعمر وخرجن بحجابهن الكامل (الملاءة) يطالبن بالحرية والاستقلال .

وكان للمرأة دور حساس في ثورة عام ١٩٢٥ ، فكانت تتنقل (بملاءتها) بين الأحياء وتخرج إلى أطراف الغوطة متخطية نقاط المراقبة الفرنسية ، وهي تحمل تحت ثيابها السلاح والذخيرة والمؤونة لتوصلها إلى الثوار ، أو لتنقل إليهم بعض الأخبار .

وفي الثلاثينات بدأت المرأة بتنظيم الجمعيات وعقد الندوات والمشاركة في كل المجالات حتى تم الجلاء .



التطور الإداري

لم تكن الحكومة في دمشق عاصمة البلاد تتمتع بكل مقومات الحكومات في البلدان المستقلة ، وذلك لما فرضه المستعمر من قيود تضمن مصالحه . فامتلأت دوائر الدولة بالموظفين والمستشارين الفرنسيين ، خاصة في الدوائر الحساسة ، كالمالية والاقتصاد ، والتعليم . ولم تكن تملك من القوة إلا ما يسمى بقوى الأمن الداخلي ، وتضم الشرطة (البوليس) في المدن ، والدرك في القرى ، والحراس الليليون في الأحياء لحفظ الأمن . وكانت أسلحة هؤلاء محدودة وفردية للإشراف على الأمن .

أما الجيش حصن البلاد ودرعها المتين ، فلم يستطع درء الخطر في معركة ميسلون لأنه كان حديث العهد ، ضعيف التسليح والتدريب . فسرحته سلطات الاستعمار وشكلت جيشاً يضم جنوداً سوريين وغير سوريين من المستعمرات الفرنسية ، وقيادته فرنسية . وعندما طالبت الحكومة السورية رسمياً باستلام الجيش في مطلع الأربعينات راوغت السلطات الفرنسية ، واتخذت الحرب العالمية الثانية ذريعة للتسويف والمماطلة ، فطالبت فرق الكشافة بتشكيل جيش وطني وأبدوا استعدادهم ليكونوا عناصر فيه . كما أضرب طلاب الجامعة السورية والتجهيز الأولى والثانية في ١٩٤٤/١/١٠ مطالبين بإدخال التدريب العسكري إلى المدارس ، وجمع

التبرعات لتشكيل الجيش الوطني . وكان هذا الحماس الشعبي من أسباب عدوان ٢٩ أيار عام ١٩٤٥ .

ومع فجر الاستقلال ، أصبح لسورية جيشها الذي خاض حرب فلسطين بجنود يملأ قلوبهم الإيمان ، ولكن بإمكانيات محدودة وتشكيلات معدودة . فاتخذ قائد الجيش من نكبة فلسطين حجة لتبرير انقلابه العسكري في ٣٠ آذار ١٩٤٩ ، متهماً الحكومة بإهمال الجيش وتسليحه . ورغم ازدياد الجيش عدداً وعدة ، بقي مرتبطاً بتسليحه مع الدول الغربية ، حتى عام ١٩٥٥ عندما كسرت سورية احتكار السلاح ، وبدأت تتزود به من الدول الشرقية حسب حاجتها .

أما التجنيد الإجباري فكان فرضه تلبية للمطلب الجماهيري بعد نكبة فلسطين عام ١٩٤٨ . فقد خرجت المسيرات الطلابية والشعبية تطالب بالتجنيد الإجباري ليصبح الشعب كله قادراً على حمل السلاح ومتقناً فن القتال .

منصب رئاسة الجمهورية : كان رئيس البلاد ينتخب من قبل أعضاء مجلس النواب ، حسب الدستور المعمول به في فترة الانتداب . ومع ذلك تجاوز المندوب السامي الدستور وعين رئيس الجمهورية عام ١٩٤١ ، وبعد نيل الاستقلال أصبح رئيس الجمهورية ينتخب من قبل أفراد الشعب مباشرة . وقد توالى على سدة الرئاسة خلال الفترة المعنية كل من السادة : محمد علي العابد : أول رئيس جمهورية منتخب (١٩٣٢ ـ ١٩٣٦) . هاشم الأتاسي (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩) . الشيخ تاج الدين الحسني : تمت تسميته بالتعيين

(١٩٤١ ـ ١٩٤٣)[١] . شكري القوتلي (١٩٤٣ ـ ١٩٤٧) وجدد انتخابه بعد تعديل الدستور . حسني الزعيم : قائد أول انقلاب عسكري (١٩٤٩) . هاشم الأتاسي (١٩٤٩) . فوزي سلو (١٩٥١) . أديب الشيشكلي (١٩٥٣ ـ ١٩٥٤)[٢] . شكري القوتلي (١٩٥٥ ـ ١٩٥٨) . جمال عبد الناصر : انتخب بموجب دستور الجمهورية العربية المتحدة (١٩٥٨ ـ ١٩٦١) . ناظم القدسي (١٩٦١ ـ ١٩٦٣) . لؤي الأتاسي : رئيس المجلس الوطني لقيادة الثورة (١٩٦٣) . أمين الحافظ : رئيس المجلس الوطني لقيادة الثورة ثم اتخذ لقب رئيس مجلس الرئاسة (١٩٦٣ ـ ١٩٦٦) . نور الدين الأتاسي : رئيس الدولة (١٩٦٦ ـ ١٩٧٠) . أحمد الخطيب : رئيس مجلس الشعب ، أصبح رئيساً للدولة بموجب الدستور بعد أن شغر المنصب بتنفيذ الحركة التصحيحية في ١٦ تشرين الثاني عام ١٩٧٠ وبقي يشغل هذا المنصب حتى آذار ١٩٧١ عندما انتخب الشعب رئيس الجمهورية السيد حافظ الأسد .

مجلس الشعب : وكان يسمى مجلس النواب وينتخب أعضاؤه زمن الانتداب على درجتين ، أي ينتخب أفراد الشعب الناخبين الثانويين ، وهم على الأغلب زعماء الأحياء . وهؤلاء ينتخبون نواب المجلس . ثم أصبح انتخاب الأعضاء يتم من قبل أفراد الشعب مباشرة .

---

(١) وعند وفاته استلم بالنيابة رئيس الوزراء عطا الله الأيوبي ٣/٢٥ ـ ١٩٤٣/٨/٩

(٢) عند انسحابه من الحكم استلم نيابة عنه مأمون الكزبري رئيس المجلس النيابي .

مجلس الوزراء : كانت الوزارة تضم في العشرينات سبع حقائب وزارية هي : رئاسة الوزراء ، الداخلية ، المالية ، العدلية ، المعارف ، الأشغال العامة ، الزراعة والتجارة . وكانت دار الحكومة (وزارة الداخلية حالياً) تضم معظم الوزارات . ومع فجر الاستقلال أصبحت الحقائب الوزارية عشرة ، بإضافة : الخارجية ، والدفاع ، والإعاشة والتموين . وازداد عدد الوزارات مع اتساع الجهاز الحكومي ومتطلبات التطور فبلغت أيام الوحدة تسع عشرة وزارة منهم وزراء مخصصون للإقليم الشمالي ، وخمسة وزراء للإقليمين معاً . وفي عام ١٩٦٦ أصبحت الوزارة تضم ثلاثة وعشرون وزيراً . وبدأت الوزارات تتخذ مراكز جديدة تتناسب مع اتساع دوائرها ، فانفصلت رئاسة مجلس الوزراء عن وزارة الداخلية وتم بناء قصر العدل عام ١٩٥٢ بعد أن أصبحت المحاكم موزعة بين بناء العادلية وبناية العابد في المرجة . وانتقلت وزارة الدفاع من مبناها القديم (مكان فندق الشام) إلى ساحة الأمويين في أواخر الخمسينات ...

وكانت البلاد تعاني من الأزمات الوزارية ، لأن تشكيل الوزارة يحتاج جهود كبيرة يبذلها المكلف بتشكيل الوزارة لإرضاء الأحزاب ، وتلبية شروط كل مرشح للوزارة ، وضمان التوازن بين الكتل النيابية والأحزاب في الوزارة . وكثيراً ما يفشل المكلف بتأليف الوزارة في مساعيه ، وتعاني البلاد من أزمة وزارية بعض الوقت . وبعد عام ١٩٦٣ لم يبق مجال للأزمات الوزارية بسبب انتهاء الصراعات الحزبية ، وتنظيم السلطة من قبل حزب واحد .



مقر وزارة الداخلية (دار الحكومة سابقاً)

التجارة : كان النشاط التجاري محدوداً لعدة أسباب منها : ربط المستعمر اقتصاد البلاد بمصالحه الخاصة ، فكانت معظم البضائع في الأسواق فرنسية المنشأ . كما كانت سورية تفتقر لميناء بحري فيتم التبادل التجاري عن طريق مرفأ مدينة بيروت ، فكانت هذه المدينة تجمع كل مكاتب الوكالات والشركات التجارية وتزدحم أسواقها وفنادقها بالسوريين لتخليص بضائعهم . ولم تكن سورية دولة منتجة بل مستهلكة تعتمد على الاستيراد . وأذكر من طرق التعريف بالبضائع الأجنبية ، أن وكلاء بيع السيارات كانوا يحضرون نماذج من السيارات الجديدة كل عام ، في الثلاثينات ، ويضعونها برتل في سوق الحميدية من مدخله إلى سوق العصرونية ويضعون على كل منها رقماً ، ويختار الراغبون بالشراء النموذج المفضل ويطلبوه من بيروت . وبعد الاستقلال امتلأت دمشق بالوكالات من دول مختلفة لبضائع متعددة ، وأصبح التبادل التجاري يتم عن طريق مرفأ اللاذقية الذي تم إنشاؤه عام ١٩٥٠ . وفي عام ١٩٥٣ تم إحداث مصرف سورية المركزي ليشرف على إصدار النقد السوري ، بعد أن كان يحتكر ذلك بنك سورية ولبنان . وكانت القطع النقدية كثيرة منها الفضية والبرونزية أو النحاسية والورقية . وأصغرها قطعة معدنية بنصف قرش ثم القرش والقرشان والعشرة قروش .... وكانت في عهد الانقلاب تصدر باسم بنك سورية ولبنان ويكتب عليها باللغتين العربية والفرنسية .

وفي عام ١٩٣٦ أقامت السلطات الاستعمارية بالتعاون مع شركة الجر والتنوير (الكهرباء) معرضاً للتعريف بالبضائع الأجنبية والتشجيع على

شرائها ، خاصة الأدوات الكهربائية . وكانت أجنحة هذا المعرض موزعة بين بناء التجهيز الأولى والحديقة الممتدة أمامها وفي منطقة المتحف الوطني والمرج الأخضر . ولم يتجدد هذا المعرض حتى عام ١٩٥٤ ، عندما نظمت الحكومة معرض دمشق الدولي السنوي . وكان أول الأمر يشغل منطقة الملاعب غرب المتحف الوطني وشارع بيروت والحدائق الممتدة شمال الشارع . ثم تحددت المساحة بعد ذلك بمدينة المعرض المعروفة حالياً بين ساحة الأمويين والمتحف الوطني جنوب نهر بردى .

وكانت العطل الرسمية لدوائر الدولة محددة بقرار رقم ٤٢١ تاريخ ١٩٢٥/١٠/١٠ وهي كالتالي :

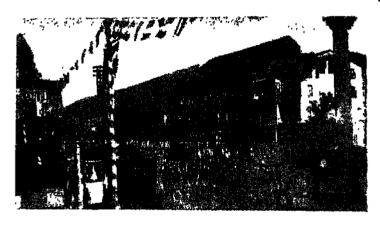
خمسة أيام لعيد الأضحى ـ أربعة أيام لعيد الفطر ـ يوم عيد المولد ـ رأس السنة الهجرية (وقد تم إحداثه ليوازي عطلة رأس السنة الغربية التي أحدثها المستعمر) ـ عيد الميلاد ـ عيد الجمهورية الفرنسية في ١٤ تموز ـ رأس السنة الغربية ـ ذكرى شهداء ٦ أيار ـ عيد الفصح ـ عيد الهدنة ١١/١١ (ذكرى انتهاء الحرب العالمية الأولى) . ويعطل الموظفون الإسرائيليون يوم عيد الغفران .

ويصدر قرار بتعطيل الملاهي ومسارح الرقص والحانات في الليالي المباركة (ليلة المعراج والنصف من شعبان و ٢٧ رمضان وليلة المولد الشريف) . وقد تم تعديل هذه العطل بعد عام ١٩٤٧ ، فألغيت بعض العطل كعيد الهدنة وعيد الجمهورية الفرنسية . وأحدثت أعياد أخرى كعيد الجلاء وعيد قيام الوحدة وعيد الثامن من آذار ...

وكان الـدوام الرسمي لـدوائر الـدولـة يقسم إلى قسمين : صبـاحي ومسائي ، وتم توحيده بدوام واحد بعد الاستقلال .

العَلَم : عرف أبنـاء دمشـق عـدداً من الأعـلام رفرفت في سماء المـدينـة وأنحاء القطر . وتغيرت حسب الظروف السياسية التي مرت بها البلاد ، سواء في فترة الانتداب ، أو بعد نيل الاستقلال ، مروراً بالوحدة وثورة الثـامن من آذار وحتى الحركة التصحيحية .

السكان : لا يوجد أرقام دقيقة بعدد سكان مدينة دمشق ، لعـدم دقـة الجداول في دوائر النفوس سـابقـاً . وكانت العـادة من العهـد العثمـاني أن يكتم الناس بعض أولادهم خوفاً من التجنيد . لذلـك تختلف المصـادر بتقـدير عـدد السكان ، وربمـا أقربهم للصحـة أن عـدد سكان المـدينـة كان عـام ١٩٢٠ نحـو /٢٠٠/ ألف نسمة ، وأصبح عام ١٩٤٥ أكثر دقة وبلغ نحو /٣٥٠/ ألف نسمـة ، وبلغ عام ١٩٦٧ /٥٩٩,٦٦٩/ نسمة . وتعود أسباب الزيادة هـذه إلى الأزمـات التي أدت إلى وصول وافدين جدد إلى المدينة ، ولتناقص عدد الوفيـات بسبب الـوعي الصحي الـذي انتشر بين النـاس ، والرعـايــة الصحيــة التي تـوفرت للأطفال .



التعليم

كان التعليم مهملاً ونسبة الأمية كبيرة جداً ، وليس للدولة إشراف عليه إلا في مدارس محدودة بدأت بتأسيسها . وكان التعليم يقسم إلى مرحلتين :

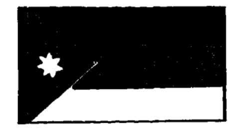
١ ـ **الكتّاب** : كان في كل حي كتّاب لتعليم الأطفال مبادئ الكتابة والحساب ، وقراءة القرآن . ويشرف على الكتاب شيخ متقدم بالسن اتخذ من التعليم مهنة يمارسها في إحدى غرف داره ، أو في غرفة مجاورة للمسجد . وإن كان المشرف امرأة ، فتسمى « خجا » . وكان في الكتاب أحياناً غرفة صغيرة مظلمة لتأديب الأطفال المذنبين بوضعهم فيها بعض الوقت (حبس) . ويشيع الشيخ ، أن فيها فئران ليزداد الطلاب خوفاً منها . وكانوا يحرصون على طاعة الشيخ والخجا خوفاً من الضرب أو الحبس . وإذا خالف الطفل أوامر والدته في الدار ، تهدده بإبلاغ الشيخ . وترسل مع ولدها رسالة شفوية لشيخه ، بشكل رمزي بأن يقول له : « ربوط الجدي بالعامود أو انفوض الحصيرة » أي الطفل يستحق التأديب لشغبه في المنزل .

ويصف فخري البارودي الخجا بقوله : كان في دمشق نساء يعلمن القرآن الكريم دون سواه ، فأرسلتني والدتي إلى دار إحداهن (الخجا نفوسة) في محلة التعديل في القنوات .. كانت دارها صغيرة فيها غرفة متسعة يجلس فيها الأولاد . منهم من يأتي بطراحة ، ومنهم من يأتي بجلد شاة . ولا يزيد عمر أكبرهم عن السابعة . يجلسون من الصباح إلى المساء في هذه الغرفة

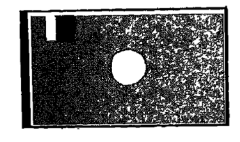
الأعلام التي رفعت رسمياً في سوريا منذ انتهاء الحكم العثماني عام ١٩١٨



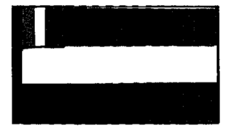
علم الثورة العربية وقد تم رفعه على دار البلدية في ساحة المرجة بدمشق يوم ١٩١٨/٩/٣٠ مكان العلم العثماني . وأعيد رفعه ثانية على الدوائر الرسمية في ١٩٢٠/٨/٤ بعد الاحتلال الفرنسي لسورية ، ومنع رفع الراية ذات النجمة البيضاء .



الراية العربية ذات النجمة البيضاء وقد تم رفعها في ١٩٢٠/٣/٨ بمناسبة إعلان استقلال سورية وملكية فيصل . ووضعت النجمة لتمييزه عن علم الثورة العربية .



راية حكومة دمشق التي رفعت في صباح ٢٤ تشرين الأول ١٩٢٠ بعد تقسيم سورية إلى دويلات بحجة انتظار اجتماع مجلس الأمة السورية لوضع دستور وعلم جديد للبلاد .



العلم السوري الجديد الذي رفع على دوائر الدولة بتاريخ ١٩٢٥/١٠/١ بعد أن تم ضم حلب إلى دمشق بانتظار اجتماع مجلس الأمة السورية وإقرار علم جديد للبلاد .



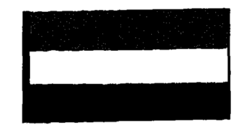
العلم السـوري الـذي نص عليـه دستـور عـام ١٩٢٨ ، وتم رفعـه على دوائر الـدولـة في ١٩٣٢/٦/١٢ وبقي يرفرف حتى ١٩٥٨/٤/١ حين تمت الوحدة بين سوريـة ومصر . وأعيـد رفعـه ثانية مع انتهاء الوحدة وأكد عليـه الـدستور الـذي وافـق عليـه المجلس التـأسيـي في ١٩٦٢/٩/١٣ .

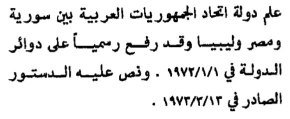


علم الوحدة الثنـائيـة بين سوريـة ومصر وقـد رفـع على دوائر الـدولـة في الإقليمين السـوري والمصري منـذ تـاريـخ ١٩٥٨/٤/١ . ونص عليـه دستور الوحدة الصادر في ١٩٥٨/٤/٨ .



علم الـوحـدة الثـلاثيـة بين سـوريـة ومصر والعراق الـذي رفـع على الـدوائر الرسميـة في ١٩٦٣/٥/١ ونص عليه الـدستور المؤقت الصـادر عام ١٩٦٤ .





علم دولة اتحاد الجمهوريات العربية بين سورية ومصر وليبيـا وقـد رفـع رسميـاً على دوائر الـدولـة في ١٩٧٢/١/١ . ونص عليـه الـدستـور الصادر في ١٩٧٣/٢/١٣ .



العلم الـوطني للجمهـوريـة العربيـة السـوريـة الـذي حـدده القـانـون الصـادر بتـاريـخ ١٩٨٠/٤/٣ .

الرطبة ، وإذا تكلم أحدهم أو لعب ، أكل « فلقة » (الفلقة عصا غليظة بطول ٧٠ ـ ١٠٠ سم مربوط في طرفيها حبل أطول منهـا ، توضع في رجلي الطفل ، وتلف العصا حتى تشتد الحبل على القدمين ولا يستطيع الطفل الحركة ، بينما يمسك شخصان بالعصا من طرفيها ، ويأتي الآذن أو الشيخ بعصـا أو خيزرانـة ويضرب بها الطفل على أسفل قـدميـه أمـام الطلاب ، وهو مستلق على ظهره وقدماه مرفوعتـان بـالفلقـة) . وكانت الخجـا نفوسـة كسيحـة ، لـديهـا عصي كثيرة مختلفـة الطول لضرب الأطفـال ، فلا يفـوتهـا طفـل قريب أو بعيـد . وكانت كبيرات البنـات يقمن بخـدمـة الـدار من كنس وشطف وجلي . أمـا الصبيـان فمنهم من يشتري حـوائـج الخـوجـا ، ومنهم من ترسلـه لجلب « الزوادات » (الزوادة : وجبة طعام محضرة خصيصـاً يسهل حملهـا ونقلهـا) من دور الأغنياء .

ويتقاضى الشيخ والخجـا أجراً أسبوعيـاً يسمى « خميسيـة » لأن الأولاد يحضرونه كل خميس . وكان كل طفل يحضر معه إلى الكتاب صندوقاً صغيراً أو كيساً قماشياً له « سريدة » (قطعة قمـاشيـة أو حبل ليحملـه الطفل برقبتـه) ويضع فيه الجزو « جزء عمَّ » ، والصُبَّرة وهي الدفتر الـذي يقرأ فيـه ، ويتعلم الحروف بطريقـة خـاصـة ، وبترديـد جمـاعي ذو لحن معين يـألفـه الأطفـال ويسـاعـدهم على الحفـظ . فيقولون لتعلم الحروف : ألف : لا شن عليهـا (أي لا يوجد لها نقاط) . ب : واحدة من تحتها . ت : تنتين من فوقها ... وعند دراسـة الحركات ، يكررون نفس الأحرف للنصب ثم للرفـع ثم للخفض . فيرددون : أ : ألف نصبه أنصب أ . بَ : بَ نصبه بَنْصب با ...

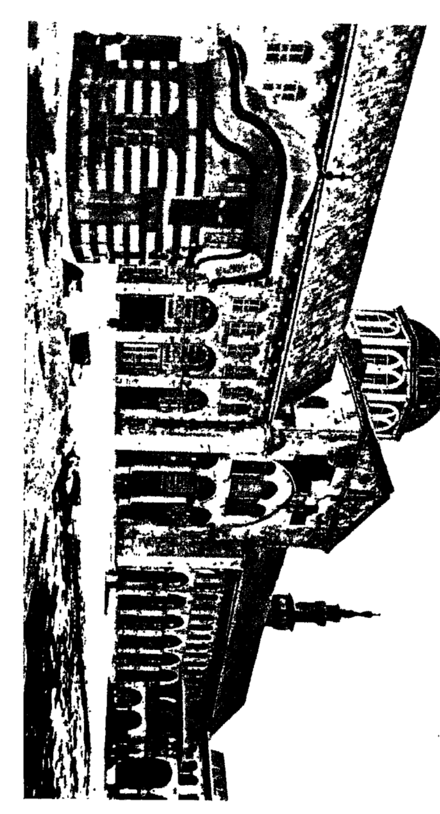
أما أطفال اليوم فيتمتعون برياض الأطفال بدل الكتّاب وبمعلمات في مقتبل العمر لاتفارق البسمة شفاههن بدل الشيخة المسنة ، وبالألعاب والجوائز المغرية بدل العصي والحبس والفلقة . فقد تغير الكتّاب بتغير الزمن .

٢ ـ **المسجد** : وأخص بالذكر الجامع الأموي حيث كانت تعقد حلقات التدريس للعلوم اللغوية والفقهية ودراسة السيرة أحياناً وقد تخرج من هذه الحلقات عدد من علماء اللغة والفقه . ورغم التخصص كان التعليم في الحلقات يعطي ثماراً جيدة حيث لا إكراه على الحضور ولا عقوبات على التقصير فيقبل طلاب العلم برغبة شديدة لسماع الدروس وتسجيل الملاحظات الهامة .

ومع ازدياد المدارس الحديثة ورياض الأطفال تضاءل دور الجامع والكتّاب .

المدارس الرسمية : بدأت المدارس الرسمية التي تشرف عليها الدولة ، قليلة في مطلع هذا القرن ، ثم تزايد عددها في الأحياء المختلفة . وكانت مدارس الذكور أكثر من مدارس الإناث ، لامتناع الأهالي عن إرسال بناتهم إلى المدارس . وكان عدد المدارس الابتدائية في دمشق عام ١٩٢٠ كما يلي :

(١٥ مدرسة ابتدائية للذكور تضم : ٥١ صفاً . و ١٠ مدارس للإناث تضم : ٣١ صفاً) . ثم تزايدت تدريجيا مع ازدياد الوعي والإقبال على العلم ، واهتمام الدولة بالتعليم ، حتى بلغ عددها عام ١٩٦٧ (٢٠٣ مدرسة ابتدائية للذكور ، و ١٥٠ مدرسة ابتدائية للإناث) .



المسجد الأموي قبل ترميمه

وكان مكتب عنبر المدرسة التجهيزية الوحيدة في المدينـة . وظهرت إلى جانبها بعض المدارس الخـاصـة كالعـازريـة ، والراهبـات الفرانسيسكانيـات . وأسست السلطات الفرنسية مدرسة الفريز في منطقة الطلياني ولكنهـا أغلقت عام ١٩٤٦ ثم أعيد فتحها باسم الأخوة . وشيـد الفرنسيون بنـاء خـاصـاً لمعهـد اللاييك (البعثة العلمانية) في شارع بغداد .

ولـما كان مكتب عنبر لا يستـوعب الطـلاب الـذين ازداد عـددهم كثيراً بـدأت الحكومـة ببنـاء مـدرسـة التجهيز الأولى (جـودة الهـاشمي) بتخطيـط خاص ، لتستوعب عدداً كبيراً من الطلاب وتحل مكان مكتب عنبر . فكانت تحوي إلى جانب الصفوف ، قاعات للخطابة ، والأشغال اليدوية ، ومكتبة ، ومرسم ، ومطعم ، ومهاجع للطلاب الليليين الذين يفدون من مناطق بعيـدة عن المـدينـة . واستقبلت التجهيز طلابها منـذ العـام الـدراسي ١٩٣٦ ـ ١٩٣٧ وأغلـق مكتب عنبر الـذي كان يضم نحـو ٥٥٠ ـ ٦٠٠ طـالـب . ثم تـأسست التجهيز الثـانيـة في الحلبوني وتعـددت مـدارس الـذكـور والإنـاث لتستـوعب الآلاف من الطلاب .

وكان طلاب المرحلتين الإعدادية والثانوية يدفعون رسوماً مدرسيـة في فترة الانتـداب . وكانت الرسـوم عـام ١٩٢٦ كالتـالي : الطـالـب الخـارجي (٣٠ ل.س) . الـداخلي (١٥٠ ل.س) . الـداخلي في المـدارس الابتـدائيـة (١٢٠ ل.س) . وهو رسم سنوي يـدفـع في مطلـع العـام الـدراسي ، ويعفى الحائزون على كرسي مجاني من كامل الرسوم . والحائز على نصف كرسي يعفى من نصف الرسم .

وعلى أثر الاستقلال وإلغاء الأقساط المدرسية ، ازداد الإقبال على التعليم فاضطرت وزارة المعارف لوضع شروط لقبول الطلاب في المدارس الثانوية وهو الحصول على حد أدنى من الدرجات في فحوص الشهادة الابتدائية . واستعانت بالأقطار العربية الشقيقة فاستقدمت عددا من مدرسيها للتدريس في مدارسنا الثانوية . ولما عجزت الأبنية المدرسية عن استيعاب كافة الطلاب ، طبقت الوزارة نظام الفوجين من الطلاب في المدرسة الواحدة ، وأصبح كل فوج يشغل المدرسة نصف النهار ، بينما كان الدوام حتى الأربعينات يمتد على فترتين ، صباحية فيها أربعة دروس ، ولكل درس فرصة . وفترة بعد الظهر وفيها درسان ، عدا بعد ظهر يومي الاثنين والخميس ، ثم أضيفت حصتان للأعمال الحرة يوم الاثنين .

وعندما استكملت الوزارة النقص في الأبنية المدرسية ألغت نظام الفوجين من الطلاب الذي يتنافى مع العملية التربوية وبقي الدوام يقتصر على فترة صباحية فقط . وبعد أن كانت الوزارة تستعين بأساتذة من الدول العربية الشقيقة أصبحت توفد الأساتذة للتعليم في بعض الأقطار العربية .

أما مراحل التعليم والشهادات : فكان مكتب عنبر يضم سبعة صفوف ، تشكل الصفوف الخمس الأولى منها ، المرحلة الابتدائية ، ويحصل الطالب بنهايتها على شهادة ابتدائية تخوله الانتساب إلى دار المعلمين أو المعلمات ، ومن يجتاز الصف السابع بنجاح يحصل على الشهادة الإعدادية ، التي تسمح لحاملها ، الانتساب إلى كلية الحقوق . أما دور المعلمين والمعلمات فمدة الدراسة فيها ثلاث سنوات . ولما اختلفت الأنظمة بين المدارس الرسمية والخاصة ، وفي

سبيـل تحقيـق وحـدة التعليم ، أحـدث المستشـار الفرنسي عـام ١٩٢٨ ، نظـام البكالوريـا بقسميـه (بكالوريـا أولى وبكالوريـا ثـانيـة) وبعـد الاستقلال تم توحيدها في الثانوية الموحدة . كما ألغيت الشهادة الابتدائية وأصبحت المرحلة الابتدائية تضم ستة صفوف بـدل الخمسـة سـابقـاً . وألغي النظـام الـداخلي من المدارس في المدينة بعد أن توفرت المدارس في كل قرية وكل حي .

وبعد الاستقلال تم تعديل المنـاهج تعـديلا جـذريـاً ، لأن تعليم اللغـة الفرنسية كان يبدأ في العشرينات من الصف الأول الابتدائي ، ثم أصبح يبـدأ من الصف الرابع بعـد احتجـاج الحكـومـات الـوطنيـة لأن ذلـك يكـون على حساب تعليم اللغـة القوميـة . ثم أصبحت اللغـات الأجنبيـة تـدرس بـدءاً من المرحلة الإعدادية . كما كان للحضارة الغربية والثورة الفرنسية النصيب الأكبر في كتب التـاريخ وأهمل التـاريخ القومي ، لـذلـك شهـدت سـاحـة الشهـداء (المرجة) حفلاً جمـاهيريـاً في أول عيـد جلاء تم فيـه حرق الكتب الفرنسيـة وخاصة الكتب المدرسية منهـا ، إيـذانـاً بـانتهـاء الاستعمار السيـاسي والثقـافي معاً .

وكانت العلاقة بين البيت والمدرسة قوية ، لأن الحي لا يضم إلا مدرسـة ابتدائية واحدة ، تجمع كل طلاب الحي . وأسـاتـذتهم أيضـاً من أبنـاء الحي . وكثيراً ما يجتمع الآباء والأساتذة هنا أو هناك ، ويتبادلون الرأي حول أوضـاع الطلاب . فكان المردود التربوي كبيراً . بينما ضعف هـذا الرابـط لمـا تعـددت المدارس في الحي الواحد ، ولا يعرف الأستـاذ آبـاء طلابـه ، ولا يتردد هؤلاء إلى المـدرسـة للاطلاع على أحوال أبنـائهم ، فـأوجـدت الـوزارة مجلس الآبـاء للمحافظة على التعاون بين البيت والمدرسة في خدمة العملية التربوية .

وكان لنتائج امتحانات الشهادات العامة أهمية كبيرة سواء الإعدادية أو الثانوية . وكانت في الأربعينات تذاع من الراديو فعندما تعلن وزارة المعارف عن موعد إذاعة النتائج ، يتجمع كافة أفراد الأسرة في كل بيت حول المذياع ، ينتظرون بفارغ الصبر وبأعصاب متوترة ، صوت المذيع وهو يقول : إليكم الآن نتائج الشهادة ... يذيعها عليكم الأستاذ مطاع الجعفري . فإذا كان الطالب في عداد الناجحين ، علا الهتاف والتصفيق في الغرفة وانقطع الاستماع لبقية النتائج ليتبادل الجميع التهاني وتنهال القبلات على الناجحين . فليس في الدنيا أجمل من النجاح بعد الدراسة والتعب . أما الآن وبسبب الأعداد الكبيرة التي تتقدم لفحوص الشهادتين ، أصبحت النتائج تنشر في الصحف بالنسبة للشهادة الثانوية ، بينما تعلن نتائج الشهادة الإعدادية في المدارس .

ولم يكن الدوام الرسمي حتى مطلع الخمسينات منتظماً ، بسبب الصراعات الحزبية والاضطرابات السياسية في البلاد ، وتدخل الطلاب في هذه الصراعات وإضرابهم عن الدروس . فقلما كانت السنة الدراسية ينتظم دوامها كاملاً ، حتى بلغ مجموع أيام الدوام في إحدى السنوات في الأربعينات ، ثلاثاً وستين يوماً فقط . ومع ذلك كان طلاب الشهادات مطالبين بكامل مناهجهم . ولذلك علقت إحدى المجلات عام ١٩٥٣ على الدوام وكأنه نبأ هام غير مألوف فكتبت : إن الطلاب على مختلف مدارسهم وكلياتهم واظبوا على دروسهم بانتظام ، ولم ينقطعوا عن الدراسة يوماً واحداً .

وتختلف أدوات الكتابة كلياً عما هي عليه الآن ، فلا يسمح سابقاً

لطـالب الابتـدائي في الصفوف الأولى أن يكتب ، إلا بقلم الرصـاص ، ليتمرن على الكتابة ويستخـدم لنفس الغـايـة اللوح الحجري . وفي الصف الثـالث أو الرابع يستخدم الحبر ويكتب بـالريشـة التي تحملهـا المسكـة . ويختلف خـط الريشة حسب رقمها (نمرتها) فتوجد ريش بأرقام ٣ ، ٢ ، ١ $\frac{١}{٢}$ ، ١ . كما توجد ريشة خاصة لكتابة اللغة الفرنسية . ولذلـك يصطحب الطـالب معـه المحبرة . وكانت مقـاعـد الصف فيهـا ثقوب لوضع محـابر خـاصـة . ولا يسمـح بـاستعمال قلم الحبر (الستيلو أو قلم طراش) حفظـاً على جودة الخـط . وكثيراً ما كان يعاني الأهل من المحابر والحبر ، سواء على أصـابع الأطفـال أو ثيـابهم أو بعض أثاث البيت . وكان الطالب يقتني أيضاً قلماً خشبياً نصفـه أحمر ونصفـه أزرق لتصحيح الأخطـاء . وفي نهـايـة المرحلـة الابتـدائيـة ، يسمح للطـالب باستخـدام قلم الحبر ، بعـد أن يتقن الكتـابـة بخـط جيـد . أمـا اليوم فتحوي محفظة الطفل ، أنواع الأقلام والألوان ترغيباً له . ولم يبق أثر للريشـة وحتى قلم الحبر ، بل أنواع مختلفة من أقلام الحبر الجاف لأنها أسهل في الاستعمال .

التعليم الجـامعي : كانت في دمشـق كليتـان ، همـا : الطب ، وهي ملحقة بالمستشفى الوطني (خستة خـانـة الغربـاء) ، والحقوق تحتل قسماً من البناء الذي يطل على بردى بجوار التكية السليمانية (وزارة التربية سابقـاً) . وعلى أثر الاحتلال الفرنسي للبلاد عـام ١٩٢٠ شغر مركز عـدد من المحـاضرين الوطنيين في الكليتين لانسحابهم منهما . وحـاولت السلطـات الفرنسيـة إغلاق الكليتين ولكنهـا فشلت أمـام إصرار المسؤولين الـوطنيين ، فـوضعت عقبـات كبيرة في سبيل الوصول إليهما للحد من انتشار التعليم الجامعي . وتـدخلت في تحديد المواد الدراسية فأصدرت عام ١٩٢٥ قراراً يلغي تدريس مادتي التاريخ

السياسي وعلم الاجتماع في المعهد الحقوقي . بينما حافظت كلية الطب على التدريس باللغة العربية وهي الكلية الوحيدة في العالم العربي بهذا التخصص تدرس موادها باللغة العربية .

وفي عام ١٩٢٣ افتتحت مدرسة طب الأسنان ، ومدرسة القبالة والتمريض . وكان مركزهما في تكية السلطان سليم . وبذلك تشكلت الجامعة السورية التي لم يكن عدد طلابها يتجاوز (٢٥٠) طالباً ، وكانت مرتبطة بوزارة المعارف . وفي عام ١٩٢٩ أنشئت في دمشق مدرسة الآداب العليا لتدريس علوم الآداب العربية والآداب الفرنسية وألحقت بالجامعة السورية عام ١٩٣٢ ، ولكنها أغلقت بعد ذلك بعامين . وعندما نالت البلاد استقلالها توسع التعليم الجامعي وتعددت الكليات بتأسيس كليات العلوم والآداب ومعهد المعلمين العالي . وتجمعت الكليات كلها في البناء الرئيسي للجامعة الذي كانت تشغله بعض قطعات الجيش الفرنسي قبل الجلاء . أما مدرج الجامعة فقد بني عام ١٩٢٩ لإلقاء المحاضرات العامة .

وأنشئت كلية الشريعة عام ١٩٥٤ ، وبعد عامين ألحق بكلية الحقوق معهد العلوم التجارية . وفصلت كلية الصيدلة عن كلية الطب . وتأسست كلية الهندسة في حلب لتكون نواة جامعة حلب . وعند قيام الجمهورية العربية المتحدة أصبحت الجامعة السورية تحمل اسم جامعة دمشق وازدادت الكليات وتعددت الأبنية واتسع التعليم الجامعي فبعد أن كان عدد الطلاب الجامعيين عام ١٩٤٨ - ١٩٤٩ يبلغ (٢٥١٦) طالباً أصبح في العام الدراسي ١٩٦٦ - ١٩٦٧ يبلغ (٢١٢١٩) طالباً سورياً و (٧٨٤٩) طالباً غير سوري .

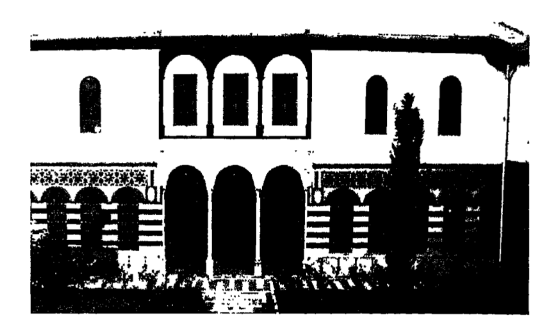
وكان الطلاب يعانون من فقدان الكتب الجامعية منذ بدء الانتداب وكان طلاب الحقوق يضطرون للحضور في كل المحاضرات وكتابة الملخصات مباشرة عن المحاضر وعند انتهاء المحاضرة ، يجتمع الطلاب ليستكملوا من بعضهم تمام المعلومات لتكون مصدرهم في دراستهم . وبقي هذا الوضع نفسه في كلية الآداب حتى منتصف الخمسينات فكان الطلاب يعتمدون على الأمالي وكتابة الملاحظات والبحث في المراجع حتى يستكملوا دراسة المقرر .

وكانت مكتبة الجامعة في تكية السلطان سليم ثم ألحقت بكلية الحقوق حتى تم بناء المكتبة المركزية في أواخر الخمسينات وأصبح لكل كلية مكتبتها الخاصة .

وكانت الامتحانات في الكليات تقسم إلى فحص تحريري وآخر شفهي ، وكانت مدة الامتحان الكتابي أربع ساعات يملأ خلالها الطالب ما يشاء من أوراق الإجابة ، ثم جددت مدة الامتحان بساعتين في بعض الكليات ، وجدد ورق الإجابة مع تزايد أعداد الطلاب في الكليات . أما فحص الشفهي فكان يَمْثُل الطالب فيه أمام لجنة تختبر معلوماته في المواد المختلفة . ويحدثنا خالد العظم في مذكراته عن الفحص الشفهي في كلية الحقوق فيقول : فلما جاء دوري ، وقفت أمام الأساتذة وسحبت أنبوباً وفتحته فإذا به يحوي رقم (٢) ، فبدأت بسرد الجواب بطلاقة وتحايلت به فأوردت جواب السؤال الأول رغبة في إظهار الكثير من المعرفة وشعر الأستاذ فارس الخوري بحيلتي وتبسم ، ولما انتهى كلامي عاودت السحب ، فإذا بالرقم (١) يظهر ضمن الأنبوب الجديد فضحكت وضحك الأستاذ الخوري فتساءل الأساتذة الآخرون عن سبب

الضحـك ، فـأجبنـاهم وسحبت أنبوبـاً ثـالثـاً ، فـإذا هو يحوي السؤال رقم (٣) وعندئذ فقعت أنـا ورفـاقي الواقفون على البـاب من الضحـك . إذ أني أخبرتهم صباحاً بـأنني حلمت في الليلـة المـاضيـة بـأنني سحبت الأسئلـة الثلاثـة الأولى بالقرعة . وكانت الأسئلة ترقم وتوضع في أنابيب نحـاسيـة صغيرة ضمن سلة من القش أمام الهيأة الفاحصة .

وكانت رئـاسـة الجـامعـة تقيم في نهـايـة كل عـام دراسي حفلـة لتوزيـع الشهادات على المتخرجين . ويؤدي طلاب كليات الطب والصيدلة القسم أمام الحاضرين . وكان يدعى لهذا الحفل أولياء المتخرجين وطلاب الجامعـة ويقف رئيس الجامعة أو وزير المعارف على المنصة لتوزيع الشهادات . وكانت المنصة عبـارة عن مجموعـة براميل مستـورة بـالسجـاد فكان الطـلاب عنـدمـا يتمنـون لبعضهم الأماني يقول أحـدهم للآخر : إن شـاء الله بتطلع (ع البراميل) هـذا العام . أي يتمنى له أن يكون من المتخرجين .



وسائل النقل

كانت شوارع دمشق وأزقتها في النصف الأول من هذا القرن تزدحم بالدواب وما تجره من عربات مختلفة . بينما كانت وسائل النقل الحديثة تتزايد تدريجياً . والأحدث منها يلفت النظر لقلته . أما في الوقت الحاضر ، فقد أصبحت المواشي قليلة والعربات نادرة . ومنظر رجل يركب حماراً في شوارع دمشق الحديثة أمر مستهجن . وإذا كان استعراض وسائل النقل الحديثة لا ضرورة له ، لأنها متوفرة ومعروفة لدى الجميع ، فإن استذكار القديم منها فيه بعض المتعة لكبار السن ، وتوثيق تاريخي لمن لم يعاصر هذه الوسائل .

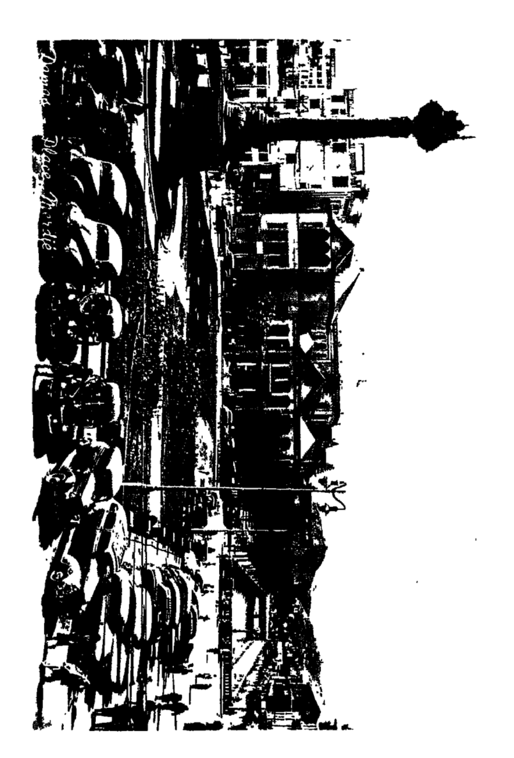
لم يكن غريباً أن نجد في جدار منزل أحد الأثرياء ، حلقات معدنية مثبتة كانت تستخدم لربط الخيول التي يمتلكها صاحب الدار لتربط بها أمام داره ، تماماً كما تقف السيارات اليوم على الأرصفة أمام البنايات الحديثة . وكان السكان يستخدمون الحمير والخيول والبغال والإبل أحياناً لركوبها ، أو النقل عليها . وكانت للدواب سوق خاصة تعرض فيها للبيع أو الأجار . ولا تزال المنطقة تعرف باسم سوق الخيل . وحافظت هذه المنطقة على مهمتها عند استخدام الباصات ، فكانت مركز انطلاق باصات النقل الخارجي حتى نهاية الخمسينات .

وعندما كان يستأجر أحدهم حماراً يركبه ، كان يسوقه المسؤول عنه وبيده خيزرانته . وعندما يصل الراكب لغايته ، يبحث المسؤول أثناء عودته عن راكب جديد للعودة . وكنا نقف محدقين بالجمل في الحي عندما يبرك

ليحط عنه صاحبه حمولة الحطب التي يحملها . وكان يثير دهشتنا بارتفاعه وحركة فمه الدائمة وذيله القصير ، أما مفاصل قوائمه فتثير شفقتنا ، لأن الوبر الذي يغطي جسمه ، قد زال عنها . وكنا نظن أنه يتألم لذلك .

وإن كان ركوب الدواب لا يحتاج إلى شهادة سواقة كالسيارات ، لكن ركوبها يحتاج لإلمام ومهارة ، وإلا عرض راكب الخيول نفسه للسقوط عنها .

وكانت هذه الدواب ، وخاصة الخيول أو البغال . تجر أنواعاً من العربات لنقل المواد ، أو لركوب الأشخاص . وكانت عربات الحمولة كلها من الخشب وعجلاتها خشبية يغطي إطارها طبقة معدنية أو من الكاوتشوك . ومن هذه العربات وأبسطها (الكرّاجة) لنقل الحمولات البسيطة والموضوعة في أكياس . أما (الطنابر) فتستخدم غالباً في نقل المواد الترابية والرملية ، لأن لها أطراف خشبية تمنع تساقط المواد المحمولة . ويوجد نوع من العربات يجرها أكثر من جواد وتسمى (الكميون) وتحمل خاصة أكياس الدقيق ، لتوزيعه على الأفران . وقد تصل حمولة الكميون إلى ٥٠ ـ ٦٠ كيس . أما العربات المخصصة للركوب فيركبها عادة اثنان وقد تتسع لستة أشخاص عدا عن مقعد الحوذي وهو السائق . ويجر العربة جوادان . وكثيراً ما كان الأطفال يتعلقون خلق العربة ، فينبه زملاؤهم السائق لذلك بقولهم : عربجي ورا ، ورا .. أي يوجد أطفال متعلقين في المؤخرة . فيضرب السائق بسوطه الطويل على مؤخرة العربة ، فيهرب الأطفال مبتعدين عنها . وكثيراً ما كان يتفنن بعض أصحاب العربات بتزيين عرباتهم وخيولهم . وكانت مواقف هذه العربات موزعة بين المرجة وشارع النصر ، وضفة بردى عند جسر فكتوريا ينتظرون الركاب المستأجرين . وكان لبعض العائلات الثرية عربات خاصة يمتطونها كآل العظم والغزي والشمعة والبارودي ...



ساحة المرجة مركز وسائل النقل

وأذكر أني كنت أتردد كثيراً إلى الدرويشية لأقف أمام بيت البنا لأشاهد الحوذي وهو يهيئ العربة ليركبها السيد . ومكان مبيت العربة قرب البيت . أما الخيول فمبيتها بعيد بعض الشيء . وكان الحوذي يخرجها من الإسطبل ويتركها تتجه وحدها حتى باب الدار حيث توجد العربة . فيسير الجوادان خلف بعضهما مع طرف الطريق دون توجيه وإشراف ، ويقفان بجوار الجدار خلف بعضهما ، ولكل جواد اسمه الخاص . فينادي كل جواد باسمه ، فيتقدم أمام العربة ويقف بوضع معين ويتراجع للوراء حتى يربطها بها . وكان هذا المنظر يتكرر يومياً ، ويستوقف الكثيرين من الأطفال وبعض الكبار لمراقبة ذكاء الخيل .

ورغم ظهور السيارة ، بقيت العربات التي تجرها الخيول تدافع عن وجودها ، وتتصدى للمنافسة الجديدة حتى الخمسينات ، ثم خسرت المنافسة بعد أن أدركت حتمية التطور وانتقال الإنسان إلى كل جديد وإهمال القديم .

أما السيارات الأولى التي عرفها أهل دمشق ، فكانت بدائية مما نسميه « فورد أبو دعسة » وكان تشغيلها بالمانويل من مقدمتها (لضرب المارش) كما كان للسيارة أطراف يمكن الوقوف عليها خارج الأبواب . وبدأت تتطور الأنواع وتتزايد الأعداد تباعاً . ولا أنسى معرض السيارات السنوي الذي كانت تقيمه في سوق الحميدية ، شركات الاستيراد ومركزها في بيروت ، لينتقي الراغبون بشراء سيارة النوع واللون المناسب لذوقهم . ولما تزايد عدد السيارات في شوارع دمشق ، كان لابد من تنظيم سيرها وتسجيلها لتسهل مراقبتها . فصدر قرار بتاريخ ١٩٢٦/٣/٨ بتنظيم حركة السيارات ومنح كل سيارة لوحتان تحملان أرقاماً بارزة تعلق في مقدمة ومؤخرة السيارة بصورة

ترى بكل سهولة وتدفع رسوم سنوية ، وكذلك الدراجة النارية . واحتلت سيارات الأجرة وسط ساحة المرجة حول الحديقة مكان العربات القديمة .

الترام : حافلات الترام من الوسائل الحديثة للنقل العام تسير بقوة الكهرباء التي تستمدها ، عبر قضيب حديدي يسمى (السنكة) ، من سلك كهربائي ممدد على أعمدة تساير القضبان الحديدية . وقد عرف أهل دمشق الترام منذ عام ١٩٠٥ عندما مدت الشركة البلجيكية التي حصلت على امتياز استثمار للكهرباء بدمشق ، خطين أحدهما إلى الجسر الأبيض والآخر إلى الميدان ، ووضع على كل خط ثلاث حافلات . ولم تلق هذه الوسائط الجديدة إقبالاً كبيراً من السكان توفيراً للنفقات . وفي عام ١٩٢٠ تم تمديد فرعين من الجسر الأبيض إلى المهاجرين والشيخ محي الدين ، وأضيف حافلتان جديدتان لهذا الخط . وفي عام ١٩٣١ أضيف خطان لهذه الشبكة هما خط القصاع وخط دوما . وكانت المرجة منطلق هذه الخطوط . وكنا نقف عند سائق الحافلة لنحول له الخط عند المقص بالمفتاح (قطعة معدنية) ، ليتجه بعد الجسر إلى أحد الاتجاهين الجديدين . وكان مبيت وانطلاق الحافلات من مبنى مؤسسة كهرباء المنطقة الجنوبية . وكانت لحافلات كل خط لافتات تحمل رقم الخط ، وتتميز كل لافتة بلون خاص لمساعدة الأميين في معرفة خط الحافلة . فالميدان يحمل رقم (١) والجسر رقم (٢) وبعد تمديد الخط ألغي هذا الرقم وأصبح للشيخ رقم (٣) . والمهاجرين رقم (٤) ، والقصاع رقم (٥) ، ودوما رقم (٦) . وعلى الأغلب مع حافلات دوما مقطورة إضافية ، وتستخدم سكة واحدة بنظام سير خاص لأنها تعتبر خطاً خارجياً . وعندما يطول انتظار حافلات دوما في القرى التي تمر بها كان الأطفال يضعون آذانهم على السكة أو العمود

حامل السلك الكهربائي لتقدير بعد الحافلة ، لأن المعدن ناقل لصوت العجلات .

وكان في الحافلات مقاعد مخصصة للنساء ، وهي أقل من مقاعد الرجال . ومن المستهجن جلوس النساء في المكان المخصص لجلوس الرجال ففي ذلك خروج على الآداب العامة . أما جلوس الرجال مكان النساء فغير مقبول إطلاقاً . كما توجد مقاعد جلدية للدرجة الأولى بأجر أعلى .

وكان الجابي (كمسياري) يتجول بين الركاب لقطع التذاكر ويحاول الأطفال جلوس القرفصاء بين الركاب وقت الازدحام هرباً من دفع الأجور والجابي مسؤول عن تسيير الحافلة عند كل موقف ، فبعد التأكد من النافذة أن الركاب انتهى نزولهم وصعودهم فينفخ بزمارته وتتحرك الحافلة . أما المفتش الذي يراقب دقة عمل الجابي ويضبط أوقات حركات الحافلات وتنقلها ، فيجب أن يجيد النزول والصعود للحافلات أثناء سيرها وهذا ما يتمرن عليه الأطفال أيضاً ليتمتعوا بالركب مجاناً أو لمجرد اللعب فيركبون على درجة الصعود (المرش) ، أو على مؤخرة الحافلة (الطّبّون) ويعرضون أنفسهم للأخطار ، فكثيراً ما كانت تكافح الشرطة شقاوتهم بإلقاء القبض عليهم بالتعاون مع الجابي . لذلك كثيراً ماانتقم الأطفال من الجباة برخي السرير أو إطلاق السنكة من معقلها فيضطر السائق لإيقاف الحافلة ، والجابي لإصلاح ماأفسده الأطفال . كما كان الأطفال يرشقون الحافلات بالحجارة لمنع سيرها أو لتحطيم نوافذها الزجاجية أيام الاحتجاجات والمظاهرات الوطنية لأن هذه الحافلات تستثمرها شركة أجنبية ، بالتعاون مع السلطات الاستعمارية . ورغم أن الترام يمتاز بنقل أعداد كبيرة من الركاب دفعة واحدة ، ولكن المفاجآت المزعجة كانت عندما ينقطع التيار الكهربائي

وتضطر الحافلات للتوقف والركاب للانتظار ، وربما استمر ذلك نحو نصف ساعة . وكان لخط المهاجرين موظف خاص يضع الرمل الناعم الأحمر على القضبان الحديدية عند منحدر العفيف والجسر لمنع تدهور الحافلات . كما يتجول موظف اخر مسؤول عن تنظيف الفراغ في القضبان الحديدية من الأوساخ مستعيناً بذراع خشبي ينتهي بقطعة معدنية أشبه بالجاروف ولها لسان صغير يدخل في الفراغ ، فيقتلع الأوساخ ويلقي بها على طرف الطريق . وعندما سيرت مؤسسة الكهرباء باصات إلى جانب الحافلات الكهربائية ، حافظت على تمييز بعض المقاعد بأجور أعلى باسم الدرجة الأولى وهي عبارة عن الصفين الأولين من المقاعد .

وعندما سمحت الحكومة الوطنية بعد الاستقلال بتسيير الباصات الوطنية ، الأهلية ، التغى مبدأ التمييز الطبقي ، وكان يحظر ركوب زيادة عن عدد المقاعد ، فلا يجوز وقوف أحد . وعندما استلمت مؤسسة النقل الداخلي الإشراف على حركة الباصات الداخلية ، وسيرت عدداً كبيراً منها على خطوط جديدة تتناسب مع اتساع المدينة وازدياد عدد السكان ، راعت ربط أطراف المدينة ببعضها ولكنها تجاوزت مبدأ عدد الركاب ، لقلة الحافلات بالنسبة لتزايد عدد السكان ، فأصبح عدد الوقوف يعادل أو يفوق عدد الجلوس ، وينتج عن هذا الازدحام مشاكل عديدة . أما حافلات الترام فقد ألغيت تدريجياً بين عامي ١٩٦١ ـ ١٩٦٢ وللأسف لم يبق لها أثر للذكرى .

الطرقات : كانت طرقات المدينة تختلف بسعتها وفرش أرضها ، فأزقة الأحياء ضيقة ملتوية كثيرة التعاريج مغروزة بالحصى . وأحياء سفوح قاسيون (الجادات) ترابية معبدة ، وبعض الأسواق أرضها مغطاة بحجارة

سوداء منتظمة الأشكال وكذلك مابين قضبـان السكـة الحـديـدة للترام . أمـا الشوارع الرئيسية فهي مفروشة بالإسفلت . وقد أقر المجلس النيابي عـام ١٩٣٨ تعبيـد وتزفيت الطرق في سوريـة ، ولكن لم يتم فرش كل الطرق في المـدينـة إلا بعد الاستقلال وتوفر مادة الإسفلت محلياً .

واشتهرت دمشق بنظافتها ، وشهد بذلك زوارها الذين علق بعضهم أن قمامة أزقة الأحياء القـديـمـة كلهـا من زهر اليـاسمين وأوراق الزروع البيتيـة . ويزيد في نظافتها ، كنسها ورشها اليومي ويشترك في ذلك عمال التنظيفات وأصحـاب الـدور والمتـاجر في الأحيـاء والأسواق . وكان رش أسواق وشوارع المدينة يتم بالطرق التالية :

القربة : وهو الرش اليدوي . يحمل الرجل قربة جلـديـة على ظهره ، ولها فوهة يجمعها بيده ويفتح منهـا بقـدر معين ، ويحرك ذراعـه يمنـة ويسرة ليرش المـاء على عرض السـوق أو الشـارع . وكلمـا فرغت القربـة يملـؤهـا من البحرات ومصادر المياه المتوفرة في الأسواق . ويصيح أثناء سيره لينبه المارة : (أوعى الْمَي ، رشاش) .

الطنْبُر : وهي طريقة أحدث وتوفر جهداً كبيراً ، وتتم بواسطة خزان من المـاء محمول على عجلات ، ويجره حصان ، وتتسـاقـط الميـاه من مؤخرتـه عبر أنبوب غليـظ مسدود الطرفين ، وكثير الثقوب . وكان الأطفال يلحقون بالطنبر ليلعبوا بالمياه .

الصهاريج : وهو الرش الحديث الذي لا زال متبعاً حتى الآن مع تطور نوع الصهريج وحجمه .

المياه

تمتاز مدينة دمشق ، منذ أن نشأت على ضفاف بردى ، بغزارة مياهها . حتى أن ياقوت الحموي قال : من خصائص دمشق التي لم أر في بلدة مثلها ، كثرة الأنهار وجريان الماء في قنواتها . كما قال شمس الدين الدمشقي : تحت الأرض مدينة أخرى من متصرفات المياه والقني وجداول ومسارب كلها تحت الأرض . حتى إذا حفر الإنسان أينما حفر من أرضها ، وجد مجاري الماء تحته مشتبكة طبقات يمنة ويسرة ، شيئاً فوق شيء .

لذلك اعتاد أهل دمشق على وفرة المياه ، واستغلوها على نطاق واسع بدقة وإحكام سواء في الغوطتين أو في أحياء المدينة .

ومرت تغذية البيوت بالمياه خلال فترة وجيزة بثلاث مراحل هي :

الآبار : كثيراً من البيوت الشامية كانت تضم في أحد أركان باحتها السماوية ، بئراً ارتوازية ، تسحب منها المياه للاستهلاك اليومي ، وكانت المياه تسحب إما بالحبل (الدلو) ، أو بالمضخة اليدوية (الكباس) ، وقد تجمع هذه المياه في مستودع صغير لتوزع الأنابيب على بعض المرافق المنزلية . وبقيت هذه الطريقة متبعة حتى الثلاثينات في بعض البيوت .

مياه الأنهار : تم تنظيم شبكة من الأقنية لتوزيع مياه الأنهار على الأحياء . وكان كل نهر يروي ويلبي حاجات سكان الحي الذي يمر به ،

وكانت مياه نهر القنوات توزع على (٩١) طـالع رئيسي تسيل منهـا الميـاه إلى البيوت والحمامات والمساجد . وكانت شبكة المياه في كل حي تتألف من :

المأخذ : الذي يحـدد كميـة الميـاه التي تسيل عبر القسـاطل ، والمخصصـة لمنطقة معينـة . وهو عبـارة عن حجر بـازلتي يتوسطـه ثقب بقيـاس معين . ويوضع الحجر عند تفرع القناة عن النهر .

القسـاطل : وهي من الفخـار المشوي تتـداخل ببعضهـا ، وتغطى عنـد الوصل بمادة من الكلس والزيت والقطن ، تسمى اللؤونة . وتغطى القساطل بعد أن تصل بين مقاسم المياه والطوالع بمزيج من الغضار والكلس والرماد .

الطـالع : يوجـد في كل حي طـالع رئيسي ، لتوزيع الميـاه على بيـوت الحي . وهو عبارة عن حوض صغير من الحجر ، في قاعدتـه فوهـة تـأتي منهـا ميـاه النهر . وفي أطرافـه فتحـات صغيرة تنسـاب منهـا الميـاه ، لتصـل عبر قسـاطـل صغيرة ، إلى المستفيـدين سـواء كانت البيـوت أو المرافـق العـامـة . وتحتـاج الطوالع للتنظيف بين فترة وأخرى من قبل المعزل والسرابـاتي . وأمـا الشاوي فهو المسؤول عن نظافة الشبكة كلها ، وتنظيم توزيع المياه فيها .

وعندمـا تصل ميـاه الأنهـار إلى البيوت تصب في البحيرات الرئيسيـة . وكان وصـول الميـاه يقتصر على الطـابـق الأرضي فقـط . أمـا الفقراء الـذين لا يستطيعون دفع نفقات وصول المياه إلى منازلهم ، أو حفر الآبـار في بيوتهم ، فيعتمـدون في تـأمين الميـاه على السقـا ، الـذي ينقلهـا من الأنهـار أو بحيرات الأحيـاء بصفيحتين يحملها ذراع خشبي يضعـه السقـا على كتفيـه أو بواسطـة وعاء جلدي كبير يحمله حمار أو حصان .

كانت الطرق السابقة لتوزيع المياه سبباً في انتشار الأمراض الفتاكة ، والحميات الخبيثة بين فترة وأخرى ، نتيجة تلوث مياه الأنهار حيث تتكاثر الجراثيم والقوارض وغيرها . وبالتالي تنتشر الوفيات بين السكان .

شبكة الري الحديثة : يعود الفضل في توفير المياه النظيفة للشرب إلى الوالي ناظم باشا الذي فكر بجر مياه عين الفيجة ، (التي ترفد نهر بردى) إلى دمشق عبر قساطل معدنية ، وخزانات محكمة الإغلاق تراعى فيها الشروط الصحية . (وكانت تغذية دمشق بمياه عين الفيجة ، موجودة منذ أيام الرومان كما تدل آثار بعض الأقنية المحفورة في الجبال بين قرية الفيجة ومدينة دمشق) . ففرض رسوماً إضافية على المواطنين لتحقيق هذا المشروع ، وتم توزيع المياه على ٤٠٠ سبيل منتشرة في أنحاء المدينة . وأصبح السقا يزود الدور بمياه الشرب ، النقية العذبة ، من هذه السبل التي اشتهرت بها دمشق فترة من الزمن .

وفي عام ١٩٢٢ ، تشكلت لجنة مياه عين الفيجة ، لدراسة توسيع شبكة المياه ، نتيجة زيادة الاستهلاك ، فحصلت عام ١٩٢٤ على امتياز إسالة مياه الفيجة إلى بيوت دمشق . وتم بناء خزان كبير لجمع وحماية المياه من التلوث عند نبع الفيجة . وإنشاء قناة لسحب المياه ، وإنشاء شلال مائي لتوليد الكهرباء عند التكية . كما تم إنشاء خزانين في دمشق أحدهما في المهاجرين بسفح جبل قاسيون والثاني عند العفيف ، وهو أصغر من الأول . وأنشئت شبكة توزيع في المدينة على البيوت بطول /٢٥٠/ كم ، وانتهى تنفيذ هذا المشروع عام ١٩٣٢ .

وقد بلغ عدد المشتركين في ذلك الوقت (٤٠٠٠) مشترك دخلت المياه النظيفة إلى منازلهم . وأمكن بذلك وصول الماء في المنازل إلى أعلى من الطابق الأرضي ، حيث تصل مياه الأنابيب عادة إلى براميل موضوعة على السطح أو في مكان مرتفع من المنزل ، ثم توزع المياه من البراميل ، إلى المرافق المختلفة في المنزل . وكان في كل منزل حنفية تأخذ الماء من الأنبوب الرئيسي ويسمونها (الحق) ، تمتاز ببرودة مياهها . وبذلك انتهى دور السقا والشاوي والسراباتي ، وأهملت الطوالع وسُدت الآبار المنزلية ، وأصبحت المياه النقية تصل إلى الدور العالية في الأبنية متعددة الطوابق .

وكلما زادت مساحة العمران زادت معها شبكة الري اتساعاً ، وطرأ تعديل على حجم الخزانات العامة للمدينة ، وأنواع الأنابيب التي تنقل المياه . وفي عام ١٩٦٥ بلغ عدد المستفيدين من مياه عين الفيجة (١٠٠٠٠٠) مشترك وارتفع الاستهلاك اليومي كثيراً بسبب الازدياد الكبير في عدد السكان الذي بلغ خلال نصف قرن عشرة أمثاله . ولم تبق مياه الفيجة للشرب فقط ، ولم تعد تكفي حاجة المدينة ، فلجأت الدولة إلى حفر الآبار الاحتياطية في أطراف المدينة ، لتستفيد منها في سد حاجات المدينة . خاصة أيام الصيف الجاف والحار . ويتم استثمار مياه الآبار بعد اتخاذ تدابير صحية وقائية بإشراف لجنة مياه عين الفيجة .



التدفئة

التدفئة المركزية (الشوفاج) ، والمكيفات صيفاً ، من مستلزمات الحياة العصرية . وهي متوفرة في معظم أبنية الأحياء الحديثة في المدينة . ولا تجد السيدة أي عناء ، في تدفئة المنزل شتاء ، فضغط الزر الكهربائي يجعل الأجهزة تعمل تلقائياً والحرارة ترتفع تدريجياً ، ويتمتع السكان بالدفء . وكذلك للهرب من حر الصيف ، فالتعامل يكون مع زر صغير . وحتى تشعر سيدة اليوم بالنعمة التي تتمتع بها ، وتحسدها عليها جدتها ، نعود إلى النصف الأول من هذا القرن ، قبل أن يبدأ عصر السرعة ، ونتابع تطور طرق التدفئة .

كانت مواد وهندسة البناء تلعب دوراً كبيراً في احتفاظ الغرفة بدفئها أو رطوبتها . لأن الجدران سميكة ، ومبنية بالطين واللبن ، والسقف من الخشب . وأحياناً يغطي أرض الغرفة دفوف خشبية . أما اليوم فالإسمنت والحديد ، يجعلان أثر الجو الخارجي يتسلل عبر هذه المواد إلى داخل المنزل . وكانت المشكلة التي يعاني منها السكان ، الحصول على النار ، لأن عود الثقاب تأخر انتشار استعماله حتى الثلاثينات . وكانوا قبله يحتفظون بقطعة من الفحم المشتعل (الجمرة) من يوم لآخر . وقد تستعيرها الجارة من جارتها .

ومن الأعمال اليومية للسيدة في بيتها ، إشعال الفحم في المَنَاقِل حسب

الحاجة . والمنقل وعاء نحاسي يوضع فيه الرماد وفوقه قليل من الدق (الفحم الناعم والبذور المفحمة المكسرة من الزيتون والمشمش) ثم قطع الفحم تتوسطها الجمرة . وبالتهوية اليدوية يشتعل كل الفحم . وقد يوضع الفحم والجمرة أولاً في الشعّالة حتى يتم اشتعاله ثم ينقل إلى المنقل . ويغطى الفحم المتوهج بطبقة خفيفة من الرماد ، للحد من توهجه . ويوضع المنقل على صينية وسط الغرفة ، ويجلس الجميع حوله في سهرة ممتعة .

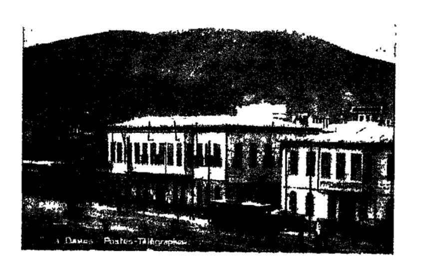
ولكن خطر المنقل يكمن في احتمال التسمم من غاز الفحم ، إن كانت الغرفة صغيرة محكمة الإغلاق ، أو إن كان الفحم لم يحترق تماماً . وقد يندلع الحريق من شرارة صغيرة مصدرها الفحم . وبعد استخدام عود الثقاب ، ازداد إشعال المنقل سهولة ، بوضع الشعّالة والفحم على (بابور الكاز) ، أو استبدال الجمرة بالخرقة المبللة بزيت الكاز لوضعها بين الفحم وإشعالها بالثقاب مباشرة .

وفي أيام البرد الشديد ، يضع بعضهم تحت اللحاف لتدفئة الفراش ، قطعة من الآجر ، بعد تسخينها على النار ولفها بقطعة من القماش . وكانوا يستفيدون من حرارة المنقل في تسخين الماء أو الأطعمة ، بوضعها على المنصب فوق الفحم المشتعل .

وفي أواخر العشرينات ظهرت المدفأة التي يستخدم فيها الحطب (الحربة) وبدأ الناس يقبلون على شراء الحطب ، الذي يأتي به الحطابون على الجمال من الغوطة على شكل جذوع الأشجار ، ويرافقهم الكسارون يحملون فؤوسهم على أكتافهم ، لتلبية صاحب المنزل في تكسير الحطب أمام

منزلـه وإدخـالـه إلى السقيفـة أو المستودع . ثم تنـوعت المـدافئ واستخـدم في بعضها الفحم الحجري . وفي الثلاثينات ظهرت المدفأة الكهربـائيـة ، ولكن لم ينتشر استعمالها لارتفـاع مصروفهـا ، وكانت الشبكـة الكهربـائيـة محـدودة الانتشار في المدينة .

وبعد الحرب العالمية الثانية ، بدأت تنتشر المدفأة التي تعمل بالمازوت ، وبذلك توفر استهلاك الحطب ، وتـأمين مستودع لـه ، واستعيض عنـه بتوفير مستودع المازوت . كما انتشر استخدام المدفأة الكهربـائيـة لنظـافتهـا ، رغم أن تدفئتها محدودة . وبعدهـا استخـدم السكان المـدفـأة التي تعمل على الغـاز ولم يكن الإقبـال عليهـا كبيراً . كما استعيض عن قطعـة الآجر بـالشرشف الكهربائي . وأفضل أنواع التدفئة وأحدثها اليوم ، التـدفئـة المركزيـة ، التي تضمن جواً لطيفاً في المنزل بكامله . ولكنها تدفئة مرتفعة التكاليف ، وتحتـاج لاستعـدادات كبيرة ، فبقي استخـدامهـا مقتصراً على الميسـورين من أبنـاء المدينة .



تطور الإنارة

تمتاز الحياة العصرية باستخدام الكهرباء في كل المجالات ، ويطلقون على مطلع هذا القرن اسم : عصر الكهرباء . فهي قوة جديدة للإنارة وتشغيل المعامل ، وتسيير الحافلات ، وتدار بها اليوم الغسالات والبرادات والمراوح ... وهي مصدر حراري للمكواة والمدفأة والفرن و ... وقد أثر استخدام الكهرباء في تطور الحياة اليومية كثيراً وخاصة في الإنارة حيث بددت الظلمة ، وأصبح الليل أشبه بالنهار ، فامتدت السهرات ، وزالت رهبة التنقل ليلاً ، بعد أن كان على المرء أن يصطحب فانوساً إذا اضطر للانتقال ليلاً من مكان لآخر . ولم تكن كل دمشق تنعم بالإضاءة في العشرينات ، بل كان العديد من البيوت يعتمد على الإنارة الأولية وهي :

السِّراج : (الكاز) وهو وعاء يوضع فيه زيت خاص (كيروسين) تمتصه فتيلة تشتعل ضمن زجاجة شفافة . وأطلق العامة على هذا الزيت اسم زيت الكاز ، لأنهم عرفوا أهميته من خلال السراج (الكاز) . ولهذا السراج أنواع مختلفة ، ومقاييس متعددة ، فزجاجته تختلف مابين قياس ١ ـ ٤ . وعلى سيدة الدار ، ملء السراج بالزيت ، وتشذيب الفتيل ، ومسح الزجاجة يومياً . وعند إشعاله مساء ، يوضع في ركن من الغرفة لإنارتها . وكثيراً ماتتعرض الزجاجة للكسر أثناء التنظيف . ونورها يستهوي البعوض صيفاً ، فيتساقط عند فوهتها ويحترق .

الفانوس : أداة أخرى للإنارة ، وله نفس مبدأ السراج . ولكنه محاط بسلك معدني يحمي زجاجته ، وله حامل يسهل حمله ونقله . فيستخدم للإنارة عند التنقل ليلاً في المنزل بين الغرف ، أو في الأحياء بين الحارات .

اللوكس : وهو أكثر إضاءة وتوهجاً من السراج ، ويستعاض فيه عن الفتيل بقميص نسيجه من خيوط خاصة ، ومستودع زيته أكبر منه في السراج . ويستخدم في إشعاله مادة الكحول . وهو يشع حرارة مرتفعة مع اشتعاله . ويختلف لون نوره عن نور السراج كاختلاف نور النيون عن المصباح الكهربائي .

ومن الوسائل البدائية التي كانت ولا تزال مستخدمة للإنارة المحدودة : الشموع بأنواعها وأشكالها المختلفة .

الكهرباء : عرف أهل دمشق الكهرباء في مطلع هذا القرن ، وبالتحديد عام ١٩٠٥ عندما وضعت الشركة المساهمة للجر والتنوير بدمشق ، وهي شركة بلجيكية ، شبكة الإنارة موضع التشغيل . وكان مصدر توليد الكهرباء ، المولد المائي الذي تعمل فيه خمس عنفات عند مسقط مياه نهر بردى في حوض التكية . وكان عدد المشتركين لا يتجاوز (٣٧٥) مشتركاً ، استبدلوا الوسائل القديمة بالمصباح الكهربائي ، الذي صار يتدلى من السقف وسط الغرفة ويتلألأ كأنه كوكب دري . وتعهدت الشركة بمنح بعض دور الحكومة والمعابد إنارة مجانية . وبدأت بعد ذلك بتشغيل حافلات الترام التي تعمل بالكهرباء .

كان إقبال المواطنين على الاشتراك في شبكة الإنارة الكهربائية ، محدوداً

لتكاليفها الباهظة ، علماً بأن التعرفة للإنارة المنزلية كانت عشرين قرشاً سورياً للكيلو واط الواحد . وفي عام ١٩٢٠ بلغ عدد المشتركين (١٢٣٠٠ مشتركاً) . ووصل الاستهلاك إلى الاستطاعة العظمى لمحطة التوليد . فعملت الشركة على تركيب مركز توليد حراري ، وتوسيع شبكة الإنارة في المدينة .

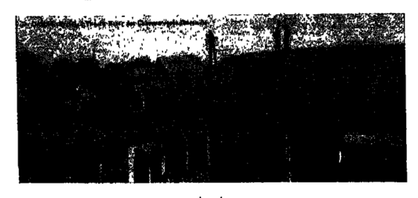
وزاد الطلب على الكهرباء نتيجة زيادة عدد السكان واتساع المدينة . وبلغ عدد المشتركين عام ١٩٣٠ (١٥٣٠٠ مشترك) . فزادت الشركة محطات التوليد . ولكن الاستهلاك لم يغط التكاليف ، مما هدد الشركة بخسارة كبيرة . ففكرت بتشجيع المواطن على الاشتراك وزيادة الاستهلاك ، وذلك بتعريفه ببعض الأدوات الكهربائية المنزلية الحديثة التي لم تكن معروفة بعد . فأقامت معرضاً صغيراً فيه بعض الأدوات : كالمكواة ، والغلاية ، والمروحة ... فكان لهذا المعرض أثر كبير في دفع المواطنين للاشتراك بالكهرباء . وارتفع عدد المشتركين عام ١٩٤٠ إلى (٣٠٤٠٠ مشترك) . ولم تستطع الشركة خلال الحرب توفير الطاقة الكهربائية المطلوبة عن طريق زيادة المولدات بسبب ظروف الحرب ، فلجأت عام ١٩٤٥ لاتباع نظام إطفاء دوري عن بعض الأحياء في المدينة . ولم يكن خطر قطع التيار كبيراً في ذلك الوقت ، لأن الكهرباء كانت مصدراً للإنارة بالدرجة الأولى .

ومع بدء عهد الاستقلال وازدياد الاستهلاك ، تم ربط شبكة الشركة بمركز توليد كهرباء شركة معمل الإسمنت بدمر ، وغيره من الشركات الصناعية الوطنية . ثم تم إنشاء محطة توليد القابون . ومع ذلك فإن اتساع المدينة وارتفاع مستوى المعيشة ، والإقبال على اقتناء الأدوات المختلفة التي تعمل بالكهرباء وازدياد عدد المشتركين عام ١٩٥٠ حتى (٤٥٤٠٠ مشترك) ،

جعل الشركة تعجز عن تغطية الحاجات المحلية للمدينة . فصدر عام ١٩٥١ قانون تأميم شركة الكهرباء . وعملت الحكومات الوطنية المتعاقبة على بناء محطات جديدة لتوليد الطاقة ، وأخرى للتحويل في أنحاء المدينة بما يتناسب مع زيادة الاستهلاك . ثم أصبحت المدينة مرتبطة بشبكة عامة للقطر تتزود من محطات مختلفة حتى بناء سد الفرات .

وبهذا الانتشار الواسع للكهرباء أهملت الوسائل القديمة ، وأصبح قطع التيار المفاجئ اليوم يثير الدهشة تماماً ، كما أثار دهشة أجدادنا النور الساطع الذي انتشر من أول مصباح كهربائي استخدم في مطلع هذا القرن .

وبعد الحرب العالمية الثانية ، عرفت المدينة التطور الجديد في المصباح الكهربائي الذي كان ينشر اللون الأصفر ، بوصول المصباح ذي اللون الأبيض (النيون) . ودخلت الكهرباء في كل مرافق حياة الإنسان بشكل واسع وأصبحت جزءاً من حياته الحضارية في المنزل والمعمل ، والطريق ، والمواصلات ، وغيرت بنمط الحياة اليومية فامتدت السهرات حتى منتصف الليل وراء التلفاز ، وأصبحت المباريات الرياضية تقام في الملاعب الكبيرة في منتصف الليل . ولم يبق أثر للحكمة القائلة : نم باكرا واستيقظ باكراً ، لأن الحياة العملية لم تعد مرتبطة بحركة الشمس ونورها الساطع .



المجتمع والأحياء

حياة الأحياء : يمتاز الحي القديم بأزقته الضيقة الملتوية ، وبيوته المتعانقة المتداخلة ، وكأنه بيت كبير يضم عدداً من العائلات يعتز أبناؤها بانتسابهم إليه . فالتعصب للحي ظاهر في حياة المجتمع وعلاقات الناس مع بعضهم ومع الأحياء الأخرى . فهم يشكلون وحدة اجتماعية متكاملة على رأسها :

المختار : وهو المرجع الإداري الرسمي ، لأنه يمثل سلطة الحكومة في الحي ، ويسهر على تنفيذ أوامرها ، ويرافق رجال الأمن في تنفيذ مهامهم . ويضمن مصالح أهل الحي لدى الجهات الرسمية المختصة ، فكلمته مسموعة ، ورضاه مطلوب . وله صفة إدارية لدى الجميع ، ويشترط فيه أن يجيد القراءة والكتابة لتنظيم ومتابعة المعاملات .

الإمام : يلعب المسجد دوراً كبيراً في حياة أبناء الحي ، وخاصة عند من تجاوزوا مرحلة الشباب ، فيجمعهم المسجد يومياً لأداء الصلوات ، وسماع الدروس والتوجيهات الدينية . وكان إمام المسجد ذو مكانة كبيرة عند الجميع لما يتمتع به من مكانة علمية وسمعة طيبة ، وأخلاق حميدة . فهو مرجعهم الفقهي ، وقاضيهم غير الرسمي ، ومستشارهم الاجتماعي . ويحرص الجميع على دعوته لأفراحهم وأتراحهم . فمحبته واحترامه وطاعته متأصلة في نفوس الجميع

عن قناعة تامة . لذلك كان يحل كثيراً من المشاكل والمنازعات التي قد تنشب بين أبناء الحي دون الرجوع إلى المحاكم الرسمية .

الوجهاء : وهم زعماء الحي ممن اشتهروا بأصالة النسب ، أو الغنى المادي ، أو القوة والمواقف الرجولية في مناسبات معينة . ويلتف حول هؤلاء الأخيرين ، شباب الحي (الزكرتية) ، الذين يشكلون العصب الحساس ، والعمود الفقري لقوة الحي وسمعته بين الأحياء الأخرى . وكثير من وجهاء وشباب الحي لا يجيدون القراءة والكتابة ، ولكنهم تعلموا في مدرسة الرجال ، فيعتزون برجولتهم وقوتهم ، ولهؤلاء حركاتهم وأصواتهم ولهجاتهم المميزة التي تدل على (العنترية) ويحرص الشباب على حمل الخيزرانة التي في رأسها الدَّبسَة (عقدة كبيرة في أعلى قضيب الخيزران) . أما الوجهاء فيحملون الْمَسْبَحَة ، وهي تختلف عن مسبحة الشيوخ والعلماء لأنها للمظهر فقط وتضم (٣٣ حبة) . ويتميز (الزكرتية) بخطواتهم الواسعة والمنديل الكبير (محرمة) على أكتافهم أو في وسطهم ، والطاقية لها وضع خاص على الرأس ، يداعبها بيديه كلما أراد أن يتحدث في موقف رجولة ، والحذاء (الكندرة) مكسورة الكعب .

الشيوخ : وهم رجال الدين ، ومنهم أصحاب الكتاتيب ممن يلمون ببعض الأمور الدينية ، أو يتميزون بمعرفة القراءة والكتابة . ولهؤلاء معزة خاصة عند أبناء الحي . ويحرصون على كسب رضاهم والاستفادة من بركتهم وعلمهم .

المثقفون : لما كانت الأمية متفشية بين الجميع ، كان لمن يتقن القراءة والكتابة مكانة مرموقة . أما المتعلمون في المدارس الرسمية (مدارس الحكومة) فيعتبرون علماء يفقهون بكل شيء ويتميزون باحترام خاص يشوبه الحذر من ضعف دينهم ورجولتهم وخروجهم عن التقاليد ، واقتباسهم من الحضارة الغربية (خاصة في الملبس والعادات الاجتماعية) . وكانت هذه الفئة قليلة ثم تزايد عددها باستمرار .

ولكل حي عدد من الكتاتيب لتعليم الأطفال مبادئ الكتابة وقراءة القرآن . وأسواق محلية لتأمين حاجات السكان المعاشية . وبعض الصناعات التي تتم في الأحياء ، كالنول العربي للنسيج ، وورشة النجارة والموزاييك وغيرها ... وفي كل حي مقهى أو أكثر يجتمع فيه مساء وجهاء وشباب الحي ليمضوا بعض الوقت في مرح وتسلية بين لعب النرد (الطاولة) وسماع الحكواتي على أصوات قرقعة مياه النراجيل (الأراكيل) . ويرتاد الأطفال المقهى أيضاً ليتمتعوا بمشاهدة عروض كراكوز وعواظ .

والعلاقات الاجتماعية قوية جداً ، فالحي محدود المساحة ، محدود السكان ، لا يدخله أو يمر به غريب إلا نادراً . فالكل متكاتفون متعاطفون ، يقفون صفاً واحداً في الملمات ، يشد بعضهم أزر بعض . وتأتي المناسبات لتزيد من أواصر المحبة والصداقة والألفة سواء في الأعياد أو الموالد وحفلات الزفاف وغير ذلك . ولا بد أن يرى بعضهم بعضاً باستمرار سواء في المسجد أو المقهى أو عند المختار أو السمان . وإذا غاب أحدهم لا بد من الاستفسار عنه .



والأسرة في الحي كبيرة بعددها تتميز بكثرة الأولاد يجمعها بيت واحد . فالبيت الشامي يضم الأجداد والأولاد والأحفاد . ولرب الأسرة مكانة كبيرة في أسرته ، وهو فقط يتمتع بحق التأخر في العودة مساء الى الدار . ويجتمع شمل الأسرة يومياً في سهرة عائلية يتعرفون على أحوال بعضهم ، ويتقصون أخبار أقربائهم وجيرانهم . وكذلك تتمتع سيدة الدار بمكانة خاصة وسلطة كبيرة على أفراد الأسرة وهي مسؤولة عن إدارة شؤون البيت الداخلية وتنظيم وتوزيع الأعمال اليومية ، وقلما تخرج فتاة من دار أهلها إلا برفقة والدتها إلى الحمام أو زيارة عائلية ، أو دار معلمتها لإتقان فن الخياطة .

وعندما شقت الشوارع الحديثة الأحياء القديمة ، مزقت ألفتها ، وشتتت وحدتها . ولما ضاقت تلك الأحياء بأبنائها بسبب تزايدهم الكبير ، انتقل الأبناء إلى مناطق جديدة حيث الكتل الإسمنتية والشوارع العريضة والأرصفة النظيفة والأنوار المضيئة ، وبذلك ظهرت الأحياء الجديدة بطابع مختلف فرضته الحياة العصرية .

ففي الأحياء الجديدة ضعف الرابط الاجتماعي والعائلي بسبب توزع أفراد الأسرة الواحدة في أحياء متعددة ، رغم توفر وسائل النقل كالسيارة ، ووسائل الاتصال كالهاتف . وبسبب ظروف العمل ، وتطور نمط الحياة اليومية ، واختلاف المستويات الثقافية والمادية . كل هذه الظواهر حالت دون التمسك بالطابع القديم . ومع ذلك حافظت بعض العائلات على نوع من الترابط بتنظيم لقاءات عائلية أسبوعية أو شهرية أو سنوية ، أو في مناسبات دورية كالأعياد . ولكنها تبقى محاولات محدودة ، لا يهتم بها الأحفاد .

ورغم ظهور علاقات اجتماعية متطورة في الأحياء الجديدة ، لكنها تمتاز بصفات معينة . فهي علاقات رسمية محدودة ، وقليلة جداً ، حتى في البناء الواحد . وضعف أثر مراكز التجمع القديمة كالمسجد والمقهى . وضعفت روح التعاون والتوادد . ولم يبق للحي ، وجيه يحترم رأيه ، أو عالم له مكانته . وقل من يعرف مختار الحي إلا لتسجيل مولود ، أو حادث وفاة ... وأصبحت العزلة من الظواهر الحديثة في الحي . وتقلص حجم الأسرة مع تقلص حجم البيت . وتقلص أثر الوالد في أسرته التي قد لا تتجاوز ٥ ـ ٦ أفراد ، ومع ذلك ربما لا يراهم يومياً لانصرافه إلى عمله من الصباح إلى المساء سعياً وراء معاشه . فمتطلبات الحياة العصرية كبيرة ، كما أن ربة الأسرة انصرفت عن أولادها ، فهي منشغلة إما بالعمل أو الوظيفة ، وبزيارات واستقبالات . وحتى السهرة العائلية التي كانت تجمع أفراد العائلة انتهى عهدها ، وأصبح اللقاء العائلي يتم أمام التلفاز .

وقد يتأخر الوالد في عمله ، والشاب في سهرة مع أصدقائه ، والفتاة عندها محاضرة أو تذاكر مع زميلاتها ، والوالدة لها زياراتها . وبذلك ضعف الرابط الاجتماعي القديم . فالكل يبحث عن مستقبله . وكل فرد مسؤول عن نفسه ، إنها الحياة العصرية والسباق مع الزمن ، والسعي وراء الكسب . فلا توقف ولا استراحة . إنه الصراع لتأمين حياة أفضل ، والتمتع بكل ما تقدمه الحضارة لأبناء هذا الجيل ولو على حساب الراحة النفسية . إنه عصر السرعة والتكنولوجيا ، ولا بد لكل امرئ أن يشترك في هذا السباق ، فهدوء الحي القديم وانغلاقه على نفسه قد انتهى . والمفاهيم الاجتماعية القديمة بكثرة أفراد الأسرة ، والاعتزاز بالذكور دون الإناث ، والتفاخر بالنسب والقوة قد ولى وانقضى .

ليس الفتى من يقــول كان أبي　　إن الفتى من يقــول هــا أنــذا

وبعد أن كانت مكانة الرجل تقاس بمركزه الاجتماعي ، أصبحت في فترة الانتداب تقاس بمركزه الوظيفي . ثم احتلت الشهادة الثقافية مكانتها في المجتمع ، وبعدها أصبحت الثروة المادية مقياس اجتماعي رئيسي لأن الحياة أصبحت أكثر مادية .

وكان نصف المجتمع يخرج للكسب والعمل ، ويبقى نصفه الآخر في البيت للأعمال المنزلية والواجبات التربوية وبعض الأعمال الإنتاجية . أما اليوم فيخرج الجميع للعمل ، لا فرق بين الرجل والمرأة سواء في العلم والتعليم ، أو المعمل والوظيفة ، أو المتجر . فالمرأة تنافس الرجل في كل مكان وكل مجال . لذلك صدقت الأغنية التي كان يرددها الشباب في الأربعينات والخمسينات لتعبر عن مشاعرهم ويقول مطلعها :

بنت اليوم (اصلاً) عليها ما خلّيت للشبان دور
عما تطلب وظيفة وعاملة محامي ودكتور

كما أن طفولة الأمس المعذبة ، انتهت إلى غير رجعة ، فكانت الطفولة مهملة صحياً لقلة الأطباء المختصين وبسبب الفقر والجهل . كما كانت تنتهي هذه الفترة في سن العاشرة ويذهب الطفل بعدها للعمل ومساعدة والده . أما اليوم فقد يمتد اعتماد الطالب على والديه وعدم الشعور بالمسؤولية حتى سن الخامسة والعشرين وهو يتنقل على مقاعد الدراسة ، ويتمتع بالجو المدرسي والجامعي . وبذلك تأخرت سن الزواج التي كانت لاتتجاوز العشرين بالنسبة للرجل ، فامتدت حتى الثلاثين أو أكثر وكذلك بالنسبة للفتاة .

تطور حياة المرأة

كان نصيب المرأة من التخلف بسبب الجهل الذي خيم على المجتمع ، أكبر من نصيب الرجل . لذلك كان عليها أن تخوض حرباً شعواء ، وتناضل كثيراً حتى ترفع عن نفسها كابوس الظلم الذي عانت منه في مطلع هذا القرن . ففي العشرينات ناضلت المرأة لتنال حق التعلم والوصول إلى مقاعد الدرس . وفي الثلاثينات ، طرحت مشكلة الحجاب والسفور ، وكان الصراع مريراً لأن العلاج لم يكن مدروساً بشكل موضوعي ، بل اعتمد على التقليد دون التطوير . وفي ظل الاستقلال طرحت مشكلة العمل ، ودخول الوظائف المختلفة في الدولة ، لأن المرأة وجدت أن لا حل لمشاكلها إلا بنيل استقلالها الاقتصادي . وبذلك نرى أن التطور لم يعالج المشاكل المطروحة دفعة واحدة . ولا يعني وصف هذا التطور ونحن في أواخر الربع الثالث للقرن العشرين أنه شمل كل نساء المجتمع الدمشقي . فلا زالت المدينة تضم صور كل المراحل التي نذكرها . فتوجد الآن المرأة التي تخرج بالملاءة والمنديل والإشارب والجلباب والبنطال ولباس البحر في المسابح . كما يوجد من اقتصرت دراستها على المرحلة الابتدائية أو الإعدادية ومن نالت الشهادات المختلفة والاختصاصات المتعددة . ولا يزال المجتمع يضم الفتاة المنزوية في بيتها لا حول لها ولا قوة ولا رأي ، والمرأة التي دخلت دوائر الدولة واحتلت مقاعد في المجلس النيابي والوزارة . وربما توفرت بعض هذه المظاهر في بيت

واحـد . وسنتكلم عن تطـور حيـاة المرأة في مجـال الحجـاب والتعليم والعمـل والنضال الوطني والحقوق السياسية . وتقديم الخدمـات الاجتماعيـة المختلفـة من خلال تأسيس الجمعيات .

وقبل أن نبدأ باستعراض هذا التطور ، نقرأ مقتطفات مما وصف خالـد العظم به المرأة ومجتمعها في مذكراته في أول هذه الفترة فهو يقول :

« أما حياة السيدة اليومية فكانت إجمالاً متـأثرة بـالمحيـط الضيق الـذي كانت تعيش فيـه . فـالحجـاب كان يحـول دون اجتماع الرجـال مـع النسـاء ، واقتصرت بسبب ذلـك حيـاة المرأة على الاجتماع مـع بنـات جنسهـا . فكانت الزيارات قاصرة على الأهل والصديقات ، تقوم بهـا المرأة مع من تقطن معهن من النساء . أمـا زوجهـا أو أخوهـا أو أولادهـا الـذين تجـاوزوا سن المراهقـة فـلا يجـوز أن يرافقـوهـا ولا حتى أن يركبـوا معهـا في مركبـة واحـدة إلا في حالات الضرورة كالذهاب إلى الطبيب مثلاً . فكان لابد عنـدئـذ من إرخـاء (كبوت المركبة) . وإذا كان المسير إلى زيارة والد الزوج أو والد الزوجـة ، أو أحـد أفراد أسرتها من الـذين تربطهم صلـة الرضـاع ، فـلا تمشي المرأة إلى جانب زوجها أو أخيها ، بل هو يسير في المقـدمـة وهي تسير وراءه على بعـد عـدة خطـوات تجر أولادهـا من يـدهم ، وتحمـل منهم من لا يستطيـع المشي ، وهي تتعثر بخطـاهـا بنسبـة كثـافـة المنـديـل الـذي يحجب وجههـا عن الناظرين ...

وكانت الاجتماعـات التي تروق للنسـاء خـاصـة هي التي تعقـدهـا في الحمامات ، سواء عندما تذهب للحمام فعلاً أو عندما تـذهب داعيـة أو مـدعوة

إليه ، فتجتمع العشرات من النساء ويقضين الساعات الطويلة باللهو والغناء وسماع القصص والأكل والاستحمام ...

وفيما عدا الزيارات والحمامات لم يكن ثمة محل ترتاده السيدات فلا سينما ولا مسارح ولا نوادي ولا مقاهي . أما النزهات فكانت إلى البساتين الخاصة ، لا سواها من المنتزهات العامة ، وعلى الأخص ما يدخل إليها الرجال . ولذلك كانت سيداتنا على مختلف أوساطهن ، يقبعن في دورهن . فيقضين معظم وقتهن بالعناية بالمنزل والأولاد ، وبتحضير المآكل والتفنن بها ... أما ثقافتها العلمية فلا تتجاوز إجمالاً قراءة القرآن وحفظ آياته دون الكتابة » .

ويصف في مكان آخر ، خروج النساء للسيران بقوله :

« .. أما النساء فإذا خرجن من دورهن فيسرن كسرب من القيقان السوداء ، إلى بستان محاط بجدران عالية ، تمنع تسرب أنظار الرجال من خارجه . وهناك يمددن البسط على الأرض ، ويفرشن عليها الفرش والمخدات ، ويجلسن جوقة أو جوقات ، فتضرب على العود من تجيده منهن ، وتغني من كانت منهن ذات صوت رخيم . وكن جميعهن يصفقن ويرددن مع المغنية بطرب وحماس » .

وعندما يصف المفهوم الجمالي القديم ويقارنه بذوق جيل الخمسينات يقول :

« ... إذا كانت المرأة المستحبة هي التي لا يقل وزنها عن الثمانين كيلو

من اللحم والدهن المملوء به جسمها ، فأين ذلك الجسم النسائي المثالي في مطلع العصر الحاضر ، من الجسم المثالي في منتصفه . فالمرأة اليوم ، تفضل الموت من الجوع من أن يزداد محيط خصرها سانتمتراً واحداً ، ووزنها كيلواً واحداً » .

الحجاب : كانت المرأة الدمشقية كسائر النساء من سكان المدن في الشرق ، تتحمل أعباء جهل القرون الماضية . فكانت في مفهوم الرجل ، أشبه بجوهرة مكنونة يخشى أن يراها أحد ، أو تمتد إليها أيد أثيمة . فوجد العلاج الوحيد لذلك ، أن يحفظها في دارها ، ويحظر عليها الخروج والدخول . وإن كان لابد من ذلك ، فيلفها بأنواع الأقمشة ليحجبها عن الأنظار . وكانت تعاني من هذا الوضع وما يترتب عليه . فقد فُرض عليها الحجاب الكامل ، سواء في اللباس ، أو عن المجتمع ، إلا للضرورات كزيارة الأهل مرة بالشهر ، أو إلى الحمام ، أو حضور حفلة زفاف لقريب . وإذا خرجت لا يمكن أن يُرى من جسدها شيء ، ولا يستطيع المرء أن يميز حتى المعالم العامة لجسدها .

ولكن ظروف الحياة العامة تبدلت بعد أن غزت حياة الغرب مجتمعنا بكل شيء ، وأصبح لابد أن تخرج إلى المدرسة والسوق والمعمل والمقهى ، واطلعت على الصحف والمجلات ، وزارت البلدان الأخرى ، وتذوقت الأزياء الغربية . فنال التطور حجابها كما نال كل مرافق حياتها . وكان الصراع كبيراً بين الحجاب والسفور ، وبين العزلة ، والخروج من الدار . واضطرت الفتاة أن تذهب بادئ الأمر إلى المدرسة بحجابها ، وخرجت طالبات دار المعلمات بحجابهن الكامل (الملاءة) مطالبات بالاستقلال عند زيارة المندوب

الأمريكي كراين لـدمشـق عـام ١٩٢٢ . وكانت حتى النسـاء المسيحيـات القاطنات في منطقة باب المصلى ، يرتدين الملاءة تمشياً مع زميلاتهن المسلمات في المنطقة نفسها حسب العادات والتقاليد الاجتماعية .

ولمـا ازداد خروج المرأة من دارهـا في العقـد الثـالث ، وشـاهـدت الأجنبيـات السـافرات في الشـوارع بـدأت فئـة من الفتيـات ينزعن حجـابهن القديم تدريجياً ، لأنه كان مفروضاً بحكم العـادات . وظهر السفور في الأحيـاء الحديثة ، وقارنت الفتاة المتمسكة بمعتقداتها بين مبـدئهـا ومستلزمـات العصر ، فطورت حجابها بما ينسجم مع الحياة الجديـدة ، فـانتشر مـا يسمى بـالحجـاب الحـديث أو الشرعي ، وأصبح ارتـداؤه عن قنـاعـة ذاتيـة . وبـذلـك تراجـع الحجاب القديم ، واحتجاب المرأة في دارها بعيدة عن المجتمع .

التعليم : كانت الفتـاة محرومـة منـه تقريبـاً . لـذلـك يقـول فخري البارودي في مذكراته بمناسبة زواجه ، أنه طلب من والدته وجدته ، عنـدمـا بدأتا بالبحث عن فتـاة لزواجـه : « أن تكون صـاحبـة أخلاق حسنـة ، وأن تعرف القراءة والكتـابـة بصـورة جيـدة » . ولـو اشترط في زوجتـه أن تحمـل شهادة ، لتعذر زواجه في ذلك الوقت .

وفي العشرينات بدأت الحكومة بفتح مدارس ابتـدائيـة للبنـات ، وكان الإقبال عليها ضعيفاً جداً . ففي عام ١٩٢٠ كان عـدد مـدارس الإنـاث ، عشر مدارس فقـط ، فيهـا ثلاث وثلاثون صفـاً . بينمـا ارتفع العـدد عـام ١٩٦٧ إلى مائة وخمسين مدرسة . ومع أن الفتـاة التحقت بـالمـدرسـة إلا أنهـا بقيت تضع الحجاب (الملاءة) على رأسهـا ، ولم يمنعهـا ذلـك من نيل حقهـا بـالتعلم ونيل

الشهادات . وكانت تلتزم بالحجاب داخل الصف أيضاً ، لأن التدريس كان على أيدي أساتذة لعدم توفر المدرسات . ثم تزايد الإقبال على التعليم تدريجياً عندما شعرت الأسرة بأهميته للفتاة . ولم يكن في عام ١٩٣٠ إلا طالبة واحدة تابعت تعليمها حتى نالت الشهادة الثانوية . وعندما دخلت الجامعة ، كان تعدادهن محدوداً ، وكان ذلك خطوة جريئة مهدت لتحتل الفتاة مكانها في كل كلية ، وتحظى بكل شهادة . وقد نظمت الجمعيات النسائية حملة واسعة لمحاربة الأمية عند المرأة ، شارك فيها عدد من الأديبات والمثقفات إلى جانب المعلمات .

العمل : لم تكن المرأة في بيتها عاطلة عن العمل ، خاصة بنات الطبقة الشعبية . بل كانت ربة البيت تحرص على أن تجيد بناتها صنعة يتفاخرن بها عند خطوبتهن وتضمن لهن أجراً ينفقنه على أنفسهن أو يساهمن في مصروف أسرهن ، أو تشتري الفتاة بعض الحلي تتزين بها وتبقى ذخراً لمستقبلها . فالمثل العامي يقول : « الكار (الصنعة) أسوارة من ذهب ، الفقيرة بتستر فيه حالها ، والغنية بتّقِل خلخالها » . ولم تكن الفتاة تخرج للعمل بل تمارسه في منزلها . ومن هذه الأعمال : الخياطة والتطريز ، وتخريج العباءات ، وصناعة أكياس الورق ، ولف الخيوط على المواسير لإرسالها إلى صاحب النول للنسيج . ومنهن من كانت تساعد زوجها بتكسير ثمار الجوز واللوز ونزع القشور عنها وتحضيرها للبيع . وغير ذلك من الصناعات التي تتم في المنزل ...

وعندما اكتسبت الفتاة بعض الثقافة ، وألِفَت الخروج من المنزل ، مارست مهنة التعليم ، لأنها برأي الأهل ، المهنة التي لا تخالف العادات ،

ولا تدعو للاختلاط . ثم التحقت بمهنة التمريض التي قبل بها المجتمع أيضاً .
وما لبثت بعد ذلك أن زاحمت الرجل في عمله بكل مجال . فدخلت المصانع ،
وفتحت العيادات والصيدليات والمكاتب بأنواعها ، وشاركت بالبيع في
المؤسسات والمحلات التجارية ، واستلمت المحاسبة ، وأخيراً دخلت سلك
الشرطة والجيش ، فلم يبق باب للعمل إلا وطرقته . وهي تعمل إما عن
ضرورة لمشاركة زوجها في تأمين نفقات الأسرة ، أو لتملأ فراغها بما يجدي
ويعود عليها وعلى المجتمع بالنفع الكبير ، ومنهن من تعمل لأنها مسؤولة عن
أسرة فقدت معيلها .

النضال : لم تنس المرأة الدمشقية ، وهي نموذج المرأة العربية ، دورها
في النضال . فرغم أنها كانت في مطلع القرن بعيدة عن المجتمع منزوية في
منزلها ، نراها شاركت في معركة ميسلون عندما دعاها الواجب الوطني
والإنساني للمشاركة في إسعاف الجرحى والمصابين ، فخرجت نازك العابد
وزميلات لها لتلبية نداء الوطن . كما مرّ معنا خروج طالبات دار المعلمات
بمظاهرة للمطالبة بالاستقلال . ولعبت دوراً كبيراً في الثورة السورية ، من
نقل الأخبار والسلاح والطعام للثوار في كائنهم . وشاركت في المظاهرات
برشق الفرنسيين بالحجارة . وخرجت مظاهرات للنساء عام ١٩٤٣ للتنديد
بالحكومة التي رفعت سعر خبز الفقير . وفي عام ١٩٤٨ تطوعت بعض الفتيات
للاشتراك مع المجاهدين في حرب فلسطين . وألحتّ رئيسة الاتحاد النسائي
باسم المرأة العربية ، حتى حصلت على حق المشاركة في حمل السلاح عام
١٩٥٦ ، إثر العدوان الثلاثي على مصر . وبذلك ظهرت المقاومة الشعبية
النسائية . كما شاركت ثريا الحافظ بإنشاء جمعية رعاية الجندي السوري .

الجمعيات النسائية : أمام الصعاب الكبيرة التي كانت تحد من تطور المرأة ، وخاصة العادات والتقاليد ، كان لابد من جمع جهود من كرسن أنفسهن للنضال في سبيل تحرير المرأة من واقع التخلف . وهن سابقات عصرهن المتحررات اللواتي أدركن أن الجهود الفردية لاتجدي ، فأصدرن المجلات ، وأسسن الجمعيات مثل ماري العجمي التي أصدرت مجلة العروس ، ولكن مالبثت أن احتجبت المجلة عام ١٩٢٥ لكثرة نفقاتها . وشاركت عادلة بيهم الجزائري بإنشاء جمعية المرأة الشامية عام ١٩٢٧ ، وكان لثريا الحافظ منتدى اسمه منتدى سكينة ، وفي عام ١٩٤٤ انضمت الجمعيات النسائية في الاتحاد النسائي برئاسة عادلة بيهم . ولكن رغم تحررها وثقافتها وارتيادها الاجتماعات العامة ، بقيت المرأة متحفظة بالنسبة للاختلاط متأثرة بالتقاليد إلى حد ما . فيقول خليل مردم بك أنه عندما ألقى محاضرة في معهد اللاييك ، كانت القاعة ملأى بالمستمعين وكانت النساء في الجهة اليمنى . مشيراً بذلك إلى عزلتهن في الاجتماعات العامة .

الحقوق السياسية : لم يكن للمرأة في العشرينات حقوق سياسية معترف بها ، رغم أنها ساهمت ورفعت صوتها مطالبة بالاستقلال . وساهمت في النضال الوطني . ومع ذلك لم تشترك في انتخابات الجمعية التأسيسية التي وضعت دستور عام ١٩٢٨ ، وكذلك طيلة فترة الانتداب . ولم تنل حق المشاركة في الانتخابات إلا في ظل الاستقلال حيث مُنِحت عام ١٩٤٩ حق الانتخاب : كل امرأة تحمل الشهادة الابتدائية ، وهذا تقدير للعلم وتشجيع للتعلم ، وبذلك بدأت تظهر المرأة لأول مرة في دمشق ، كما هو الحال في أنحاء القطر ، أمام صناديق الاقتراع لتدلي برأيها . وفي عام ١٩٥٣ ، مُنحت حق

الترشيح إلى النيـابـة ، ودخول مجلس الشعب . وانتشرت صور المرشحـات إلى جـانب صور المرشحين في كل مكان . وفي عـام ١٩٥٩ ، أُسقـط شرط الشهـادة وأصبحت تتمتع بحق الانتخاب دون قيد أو شرط . وبذلـك حصلت المرأة على حقوقها كالرجل فدخلت المجلس النيابي واحتلت مقعداً في الوزارة .

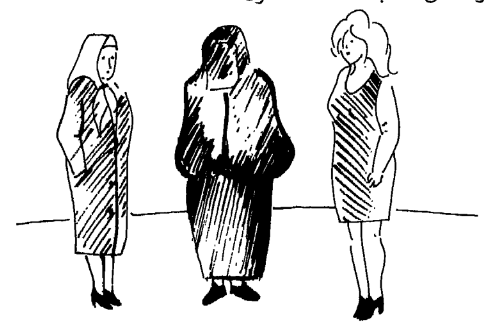
النشاط الاجتماعي : لم تكن الحياة الاجتماعية تختلف كثيراً عند المرأة في المجتمع الدمشقي بين فئـة وأخرى . فكان نشـاطهـا محصوراً في تـدبير شؤون المنزل ، وتربية الأولاد ، بالتعـاون مع بنـاتهـا وكنـائنهـا . وكانت الزيـارات محـدودة جـداً تقتصر على الجيران في الحي ، والأهـل أحيـانــاً . وتتم زيــارة الجيران أثناء النهار عند غياب الرجال في أعمالهم . أما زيارة الفتـاة المتزوجـة لأهلها فهي على الأغلب زيارات شهرية ، يرافقها النوم لبضعة أيام . وكانت الطبقة الشعبية تشكل غـالبيـة المجتمع . ويتحـدد نشـاط الفتـاة اليومي ، بين تأمين الأعمال المنزلية ، وممارسة إحدى الصناعات (الكارات) التي تتقنها .

أمـا في الأحيـاء الحـديثـة ، وبعـد أن التحقت الفتــاة بــالمــدرســة ، والمستشفى ، والمعمل والـدائرة ، استنفـذ العمل جزءاً من وقتهـا ، فـانشغلت عن بيتها وأولادها ، وأصبح لابـد من معين للتوفيق بين متطلبـات العمل في البيت وخارجه ، وكان ذلـك من قبل الزوج ، شريـك الحيـاة العصريـة ، ثم توفر الخدم لذلك . كما أصبح من الضروري إرسال الأطفـال إلى دور الحضـانـة في وقت مبكر ، وتعـددت دور الحضـانـة . ونتـج عن هـذه الحيـاة الجـديـدة الشعور بضرورة تنظيم لقاءات مع الصـديقـات والقريبـات بعـد الانتهـاء من العمل . فظهرت فكرة الاستقبـالات ، وهي لقـاءات دوريـة شهريـة ، تجتمع

فيها النسوة ويمضين الوقت بين الرقص والغناء وتقصي الأخبار العائلية وبث الهموم الشخصية . وكانت صاحبة الدار تقوم بواجب الضيافة لزميلاتها .

وعندما تعددت المقاهي والملاهي ، وانتشرت عادة الزيارات العائلية ، وزال الحجاب والاحتجاب عند بعض العائلات ، أغفل هؤلاء الاستقبال ، واكتفين باللقاءات العائلية المشتركة ، وكرسن قسماً من الوقت للنشاطات الاجتماعية من خلال الجمعيات ، أو للقراءة والمطالعة ، أو لممارسة بعض الهوايات الخاصة ...

واليوم يجمع المجتمع الدمشقي بين هذه الظواهر المختلفة ، فلا زالت الزيارات محدودة عند البعض في الأحياء القديمة . وقسم كبير التحقن بأعمال تشغلهن بعض الوقت ، ويمضين وقتهن بزيارات عائلية أو هوايات خاصة أو يترددن إلى المقاهي والمسارح ... واستأثر التلفاز والفيديو بقسم كبير من الوقت على حساب النشاطات الأخرى .



الخطبة والزواج

من العادات التي دخلها تعديل وتطور كبير في المجتمع الدمشقي ، الخطبة والزواج . وقد لعب في تطوير هذه الظاهرة عدة عوامل اجتماعية واقتصادية وثقافية . فكان الزواج يتم في سن مبكرة للشاب والفتاة ، حفاظاً على أخلاقهم ، وطلباً لزيادة النسل ، وحتى يفرح بهم الوالدان قبل وفاتها . خصوصاً وأن الشاب كان يعمل مع والده ، ومسكنه جاهز في إحدى غرف المنزل . فلا توجد عوائق لزواجه . وعلى الأغلب يتم زواج الشاب بين السابعة عشرة والعشرين ، والفتاة بين الثالثة عشرة والخامسة عشرة . وإذا تجاوزت الثامنة عشرة أصبحت عانساً في نظر الجميع .

أما اليوم فلا يستطيع الشاب أن يتزوج قبل إنهاء دراسته ، وخدمة العلم ، وتأمين العمل والمسكن . فلا يفكر بالزواج قبل الخامسة والعشرين ، وزواجه في الثلاثين أمر طبيعي . كذلك الفتاة ، تبدأ فرص الزواج عندها في الثامنة عشرة وتمتد حتى الثلاثين ولا تفكر بالزواج قبل الحصول على الشهادة الثانوية أو الإعدادية ، لتستطيع مساعدة أولادها في تعلمهم وتربيتهم بعد أن أصبح التعليم إلزامياً للجميع .

وعندما كانت الأسرة تفكر بزواج ابنها ، والرأي للوالدين أولاً ، تبدأ الوالدة والأخوات باستعراض أسماء بنات العائلة ، والأقرباء ، والجيران . وتبدأ الزيارات الأولية للتعرف على الفتيات . ثم تتكرر الزيارات بصحبة

القريبات الخبيرات ، للتأكد من جمال الفتاة ، وسلامة حواسها ، وملاحظة حركاتها وخطواتها وسكناتها عندما تظهر أمامهن وتقدم لهن القهوة . وربما تطلب الأمر التعمد لرؤيتها عارية في حمام السوق . وعندما انتشر التصوير ، أصبح من الممكن الحصول على صورة للفتاة ليراها والد العريس ، أو العريس أحياناً . وفي ذلك تطور كبير عند من يوافق على إعطاء صورة ابنته . وبعد كل زيارة يحاول الشاب من طرف خفي ، أن يستخلص من شقيقته بعض صفات العروس ، فتصف شكلها الجميل بقولها : طولها كغصن اللبان ، وفتحة عينيها كبيرتان ، والكحل فيهن رباني (طبيعي) ، وتدويرة وجهها كالقمر ليلة ١٤ ، وطول شعرها لنصف ظهرها ، وسكبة رجليها جميلة جداً ، ورقة شفتيها كشفة الفنجان ، وجسمها ممتلئ وريّان (تميل إلى السمنة) . واختلفت النظرة الجمالية بالنسبة للسمنة ، فتتباهى الفتاة اليوم بخفة وزنها ، وصغر خصرها ، وتخضع لمختلف أنواع (الريجيم) للحفاظ على رشاقتها . بينما لاتزال بقية الاعتبارات الجمالية هي نفسها .

وعندما تحدد الوالدة الخاطبة ، الفتاة التي ترغب بها ، تطلبها من أهلها وتطلعهم على وضع العريس وسنه وعمله وعنوانه ، ليستفسر كلا الطرفين عن الطرف الآخر . وفي هذه الفترة يحاول بعض أقرباء العروس ، المرور بمكان عمل العريس أو سكنه لمشاهدته بشكل خاطف والتعرف عليه ، ووصفه للفتاة التي لا رأي لها في الموضوع ، وإنما للاستئناس فقط . فإذا تم قبول الطرفين وانتهت الاتصالات التمهيدية بين النسوة ، يقوم والد العريس وبعض الأقرباء ووجهاء الحي ، بزيارة لأهل العروس ، لطلب الفتاة رسمياً ، والاتفاق على المهر ، وتكون الجلسة حامية الوطيس أحياناً ، وتنتهي على

الأغلب بالقبول وقراءة الفاتحة . وعندها يطلب أهل العريس دفتر العائلة لإجراء معاملة الزواج لأنها تستغرق ما يزيد على الأسبوعين ، حيث يشهر القاضي هذا الزواج في المحكمة بتعليق صورة عن صك الزواج (الاذن نامة) في لوحة الإعلان هناك مدة أسبوعين ، لإعطاء فرصة لمن يريد أن يحتج على هذا الزواج ، لأسباب الرضاع أو احتجاج ابن العم لأنه أحق الناس بها ، أو لسبب آخر ، وعندها يرفض القاضي توقيع الزواج . لذلك كان الشباب يرددون ، لشرح حال بعضهم إذا رفض القاضي زواجهم ، الأغنية التي مطلعها :

أبـوهـا راضي   وأنـا راضي
مـالَـكْ ومـالْنـا   أنت يـا قـاضي

أما اليوم فهذه المراحل تختلف حسب التطور الاجتماعي للأسرة . فقد يسمح للعريس بمشاهدة العروس مرة ، أو عدة مرات ، أو قد يتفق العروسان على الزواج عن محبة وتفاهم ، وبعدها يعلمان الأهل . وتوجد الآن طرق عديدة لتعرف العريس على عروسه تمثل مراحل التطور المختلفة . وتتم معاملة الزواج اليوم خلال فترة وجيزة ، ودور المحكمة هو تسجيل العقد رسمياً بعد أن يحضر العروسان أمام ممثل المحكمة الشرعية في أي مكان متفق عليه ، ويقر العريس ووكيل العروس على الزواج ، وتحديد المهر بعبارات محدودة يقولها الموظف ويرددها كل من الطرفين بدوره .

أما الحفلة التي يشهر بها وهي عقد القران (الكتاب) فتتم في دار أهل العروس عادة ، وتقتصر على الرجال فقط ، ويتم حضور المدعوين بموجب

بطاقات دعوة (تساكِر) . بدأت تتطور هذه البطاقات بإخراجها وأناقتها مع الزمن ، بينما كانت الدعوة تتم شفهياً . وتقرأ في الحفلة قصة المولد مع الأناشيد النبوية ، يضاف إليها اليوم كلمة توجيهية يلقيها أحد العلماء بالمناسبة . وتوزع (البوظة) صيفاً ، و (كشك الفقراء) شتاء .

ومن العادات الحديثة توزيع الملبس الموضوع في عُلب ، وصلت بنوعها إلى درجة من البذخ ، كبيرة جداً ، بينما كانت حبات الملبس توضع في ورق خاص ، ويتم توزيعها في نهاية الحفل . وأمام البذخ الكبير بالضيافة والغلو في المهور ، ظهرت فكرة معتدلة تنادي بالحد من المهور ، وتوزيع الكتب للذكرى بدل العلب الباهظة الثمن . وبعد مغادرة المدعوين مكان الحفل ، يجتمع العريس بعروسه وأهلها ويضع في إصبع يدها اليمنى خاتم الخطوبة ، وتضع في إصبعه الخاتم الخاص به . وعند بعض المتشددين لا يرى العريس عروسه إلا ليلة العرس .

وكانت مفروشات البيت أو الغرفة الخاصة بالزوجين موزعة بين العروسين ، فعليه أن يشتري قسماً منها ، وأهل العروس يشترون القسم الآخر مقابل ما استلموه من المهر . وقد انقرضت هذه العادات ، وأصبح العروسان يشتركان في انتقاء مفروشات بيتهما ، وربما كان الرأي الأول والأخير للعروس التي ستكون سيدة المنزل .

وتتم المشاورات لتحديد يوم الزفاف حيث تكون العروس قد استكملت جهازها ، وأنهت خياطتها ، فيأتي الحمالون لنقل جهاز العروس من دارها إلى بيت العريس . ويقف أبناء الحي لمشاهدة الجهاز عند انتقاله من دار إلى



جلوة العروس

أخرى . ويصف شاهد عيان جهازاً تم نقله من حي النوفرة إلى الصالحية فيقول :

كان الرجال يحملون من بيت العروس أمتعة الجهاز كلها من أدوات وأواني منزلية ، ومفروشات وحوائج بيتية على مختلف أشكالها وأنواعها مهما كَثُرت وتعددت ، سائرين متتالين متعاقبين في خط واحد مستمر . ويحمل المهرة من الحمالين الأواني الزجاجية الرقيقة والتحف الثمينة اللطيفة على رؤوسهم مركزة على (فروش) خشبية مستديرة ذات إطارات واقية من صفائح الخشب بشكل يجعلها بارزة للعيان . ويليهم جماعات حاملي أثواب العروس ، كل ثوب منها على حدة ، مطوياً وملفوفاً في صرة (بقجة).من المخمل الأزرق المطرز (بالصارمة) يحملها الحمال الواحد مستقلة ممدودة فوق يديه ، يليها أثواب غيرها مغطاة أو مغلفة بقماش الشال الخراساني والفراماشي القديم . ثم يأتي حاملو أدوات الزينة محفوظة في خزائن من زجاج تظهر مافي داخلها من حوائج وتحف وأواني . ويحوي العرض في المسيرة كل أنواع الأردية والألبسة النسائية الخارجية ، حتى الأحذية والبوابيج التي تعرض بمختلف أشكالها وأنواعها . وكذلك القباقيب الخشبية ذات السيور المطرزة ، والقباقيب الشبراوية التي لا يقل علو الواحد عن قياس الشبر ، منها العادي ومنها المفصص أو المطعم بالصدف ، تعلوها سيور من الجلد والقماش المزركش بخيوط من الفضة والذهب .

كما يضم العرض القواطع والدواوين والمفروشات المحشية بالقطن . ويمر هذا العرض وسط المتفرجين من نساء ورجال وأطفال وقد احتشد كل جنس

على حدة ليشاهدوا جهاز العروس . وبلغ عدد الذين حملوا هذا الجهاز مايقرب من المائتين .

ويتم فرش غرفة العروس في دار زوجها بمعرفة أهلها ويصبح كل شيء جاهز ليوم الدَّخلَة (العرس) عندها يقوم أهل العريس بزيارة أخيرة لأهل العروس من أجل تحديد موعد العرس (التعيينة) ويقدمن هدية للعروس . ويتم العرس عادة في دار أهل العريس ، وتحضره النساء فقط . وتتم الاستعدادات للعرس بوضع (الأسكي) في باحة الدار ، وتصف الكراسي تجاهه ، ويخصص قسم منها لمدعوات أهل العروس . ويحضر بائع البوظة ومعه (طرمبة القيمق) والكاسات ، ويوضع (السَّبَتْ الذي يضم أنواع السكاكر بأشكال مختلفة) في غرفة العروس ، وتنار أطراف البيت بالمصابيح الكهربائية التي حلَّت مكان (اللوكس) . وخوفاً من اصطحاب المدعوات لمرافقات بدون دعوة أو أولاد ، كان أهل العريس يستعينون برجل وجهه عضم (أي معاملته شديدة) لا يسمح بدخول امرأة إلا بموجب (تسكرة) . وتحصل على الباب عادة مشادات كثيرة بين المدعوات ومراقب الدخول لاتنتهي إلا بحضور أصحاب الحفل .

ثم تتوجه الحماية وبعض النسوة لدار العروس لاصطحابها مع مدعواتها إلى العرس . وكان نقل هؤلاء يتم بالعربات ، وتُستقبل العروس بالزغاريد وتجلس على (الأسكي) أمام المدعوات ، وتحاول عند دخولها إلى الدار لصق قطعة من العجين على الباب لتكون زيجة أبدية . وحتى لا يشاركها في زوجها في المستقبل ، ضُرَّة . لأن الزواج الثاني والثالث كان مألوفاً ولأتفه الأسباب

وكذلك الطلاق ، بينما أصبحت القناعة بزوجة واحدة أمراً مألوفاً لأسباب ثقافية واجتماعية واقتصادية .

أما العريس ، فتتم حفلة التلبيسة الخاصة بالرجال في دار أخرى . يرتدي العريس هناك ثيابه الجديدة ، ويحلق الحلاق ذقنه ويعطره وسط رفاقه ، الذين يهتفون بعبارات خاصة بالمناسبة ، ويرافق ذلك وخزه بالدبابيس وهذا نوع من المداعبة ليصبح جسمه لين العريكة في تلك الليلة . ويتخلل التلبيسة قراءة قصة المولد وبعض الأناشيد النبوية . وعندما يحين الوقت المتفق عليه ، يتوجه العريس في موكب خاص إلى دار العرس ، فيشكل الشباب العزّاب عراضة في المقدمة ، يليهم لاعبو الْحَكَمْ ثم أهل العريس ووجهاء الحي يتوسطهم العريس نفسه وحولهم حملة الفوانيس واللكوس ، ويليهم بقية المدعوين ، ويستغرق انتقالهم بعض الوقت بسبب الأهازيج والعراضة ، التي يردد فيها الشباب وصفات خاصة بالمناسبة منها :

شن كليلة شن كليلة   شو هالليلة ، شو هالليلة

من هالليلة حمل السلة   ومن هالليلة صار له عيلة

الله يعينه على هالليلة

يا عريس كَفَّكْ مْحَنّى   يا عريس كَتّير ملبس

وبين كل فترة وأخرى يقف الموكب ويردد قوّال (عريف) العراضة :

يا أهل العَدِية   يا أهل العدية   يا سامعين النَّدية

فيجيب الشباب جميعاً : هيه .

فيقول : الله لا يقطع لنا ولا يقطع لكم ذرية بجاه خير البرية
وإن كانت رايه وراية عريسنا وبيَّض الله

فيجيب الجميع بلحن معين : وجهه (وجهووووه) .

وعندما يصلون إلى مدخل حارة دار أهل العريس ، تشتد عزيمة الشباب ، وترتفع الأصوات بالهتافات تنبيهاً لأهل العرس ، فتجتمع الفتيات خلف باب الدار بانتظار وصول العريس . وتنتهي العراضة بالهتاف التالي :

صلّوا .. على محمد .. مكحول العين .. ونير وخضير ... وعادينا .. وهيه هيه ..

وتختلط هذه الهتافات بزغاريد الفتيات من الداخل وهن يرددن :

أَوْها ببيتنا رمانة أَوْها حامضة ولفانة
أوها حلفنا ما منقطعها أوها ليدخل عريسنا بالسلامة
لي لي لي ليش
أوها ديارنا كبيرة أوها ودرج الحمام فيها
أوها وأم العريس فرحانة أوها إن شاء الله ربي يهنيها
لي لي لي ليش

ويتقدم العريس من باب الدار فتستقبله أمه وأخواته ، ويدخل ثلاث أو خمس خطوات وظهره لداخل الدار ، ثم يعتدل في مشيته . وتهمس والدته في أذنه ليرفع الطربوش عن رأسه ، ويتجه نحو (الأسكي) تحيط به قريباته وهن يرددن خوفاً عليه من عيون الحساد :

أوْهــا سعيــد يــا واحــد   أَوْهـــا ومحمـــد يـــا تنين
أوهــا ويللي مــا بصلي عــالنبي   أوْهـــــا يعــــــدم العينتين
لي لي لي ليش

بينمـا تحـاول معظم المـدعوات ستر شعورهن بخمرهن ، أو يكـون معهن أغطية خاصة لذلك ، وعنـدهـا تنـدد القريبـات بـذلـك قـائلات : العريس مامنو خْبية (أي لا ضرورة للتستر منـه فلن ينشغل بـأحـد عن عروسـه) . وتقف العروس لاستقبـال عريسهـا ، فيرفـع الغطـاء الأبيض عن وجههـا ، ثم ينقل الخاتم إلى يدها اليسرى ، ويضع حول عنقها أو في يـدهـا مـاأحضره من الحلي . وكذلك كل من يريـد تقـديم هـديـة (نقوط) لهـا . وبعـدهـا يرشق العروسان المدعوات بالملبس ، فتحاول الفتيـات العزاب التقـاط حبـات منـه لأكلها ، عسى أن يأتي نصيبهن بالزواج . أي هذه الملبسة للعدوى .

وقد تحدث المفاجأة المذهلة للعريس الـذي لم ير عروسـه حتى ليلـة العرس فيرفع الغطـاء عن وجههـا ويصـاب بخيبـة أمل في شكلهـا وجمـالهـا ، ولا مفر من الواقع في تلك اللحظة وكثيراً ما تنتهي هذه المواقف بمآسي عائلية محزنة .

ثم يتجه العروسان إلى غرفة النوم ، ويبدي العريس إعجـابـه بعروسـه في خلوتهما ، ويرفـع الستـار عن السَّبَت ليضـع في فمهـا قطعـة من الحلـوى مما يحـويــه سَبَت العرس ، ويصلي ، إن كان من المتــدينين ، ركعتين على ذيـل ثوبها طلباً من الله أن يبارك زواجهما . ثم يأوي إلى فراشه بينمـا تعود العروس لتظهر أمام الحفل بثوب جديد ، ثم تعود لترتـدي ثوبـاً آخر وهكـذا ... حتى تعرض معظم ماتفتخر به من ثيـاب وتصبح الحفلـة عرض أزيـاء . وبعـدهـا

تذهب العروس إلى غرفة نومها لتلحق بزوجها ، بينما تستمر المدعوات بـالرقص والغناء لإحياء حفلة العرس حتى مطلع الفجر .

وفي صبيحة العرس يتبادل العروسان الصبحة (وهي عبارة عن هدايا متعارف عليها كالمحارم والجرابات ...) ويقدم العريس لعروسه هدية باسم (ثمن شعرها) .

ومن الوجوه المـألـوفـة ليلـة العرس : المـاشطـة وهي التي تعنى بـزينـة العروس ولهـا خبرة بـذلـك ، والـدايـة (القـابلـة) التي ترافقهـا حتى خلوتهـا لترشدها إلى ما تجهله في تلك الليلة .

واليوم نجـد أن حفلـة الـزواج قـد تطـورت كثيراً خـلال فترة وجيزة . فكثير من العائلات لا يعرف الصبحة والمـاشطـة ولصق العجين على الأبواب ، والسَّبَت ، فهــذه أمــور انــدثرت ، بينمـا تغير شكل (الأسكي) ، ومــوكب العروس الـذي كان بـالعربـات أصبح بـالسيـارات التي تشق شـوارع المـدينـة وتصدح منبهاتها فرحـاً بـالمنـاسبـة العزيزة . وتتقـدم سيـارة العروس الموكب وقـد ازدانت بـالألوان الـزاهيـة والـزهر . أمـا العراضـات فـأصبحت بسيطـة رمزية ، واستعيض عن الزغـاريـد والغنـاء بـآلـة التسجيل وزفـة العروسـة . وانتشرت عادة إرسال الزهر إلى مكان الحفل فيتوفر منه في المناسبـة الواحـدة ما يقدر بآلاف الليرات . وفقدت حفلة التلبيسة مضمونهـا من تلبيس العريس ومداعبته . وأصبحت العائلات الميسورة (المودرن) تحيي الحفلات المختلطة في الأنـديـة العـامـة بـدل العرس والتلبيسـة ، ولكن الأسر المحـافظـة لا تقر هـذا الاختلاط ، لأن العرس فرصة نادرة تظهر الأنثى فيها بأحلى زينتها . وأصبح التصوير بأنواعه يحفظ هذه المناسبات للذكرى .

الولادة والختان

يبدأ الاهتمام بأخبار الحمل بعد زواج الفتاة بأسابيع ، فيسأل الجميع والدة العروس أو حماتها (إن شاء الله خبيت لنا العروس شيء ؟) . وعندما يثبت الحمل يبدأ الأهل بتحضير الألبسة ولوازم المناسبة . فإذا بلغ الحمل شهره الثامن ، يبدؤون بتحضير الأشوة (سكماجاية) : وهي علبة خشبية مصدفة مقسومة في داخلها إلى أجزاء وتضم كل ما تحتاج إليه القابلة (الداية) لمعالجة الجنين عند ولادته من : آس ناعم ، ملح ، كمون ، كحل ، زيت ، حبة تَمر ، قطن ، زيت ، مقص ... وفي الشهر التاسع تزور الوالدة ابنتها في أحد أيام الجمع لتصر لها البقجة ، ويستحسن أن يتم ذلك عند التذكير قبيل صلاة الجمعة ، مع الدعاء لرب العالمين بتيسير الولادة . وأن يجبر خاطر ابنتها بصبي . وتضع في البقجة ، ما يتطلبه الوليد من ثياب عند ولادته : شاشية (قمطة للرأس) ، خروق لوضعها بين فخذيه ، مشمعة مثلثة ، قنداقة ... وبذلك تتم الاستعدادات بانتظار الولادة .

وعندما يكتمل شهرها التاسع ، وتشعر الفتاة ببعض الأوجاع في خواصرها ، وتصف ذلك لحماتها أو والدتها ، تطرح عليها بعض الاستفسارات وعلى ضوء الإجابة يتم طلب القابلة ، التي تحضر وتجري كشف خاص على الفتاة فإن وجدت علامات الوضع ترسل في طلب الكرسي الذي تتم عليه الولادة بسهولة ويسر ، وعندما أهمل استعمال الكرسي كانت الداية تطلب :

مـد الفَرْشـة لتتم عليهـا الولادة . ولا بـد من إبـلاغ بعض القريبـات لحضـور الولادة تقديراً لمكانتهن . وعندما يشتد الطلق تجلس الحامل (المطْلْقَـة) على الكرسي والداية أمامها على الأرض بانتظار اشتـداد المخـاض . وكلمـا جـاءهـا المخـاض ، تتـألم الفتـاة وتردد الـدايـة بعض عبـارات التشجيـع لهـا . ويحمـل الحضور المسابح ويرددون بعض الأذكار والأدعيـة طلبـاً لتيسير الولادة . ومع ازدياد المخاض يسود الهدوء وتستمر التمتمات بـالـدعـاء ، والكل ينظر إلى وجـه المطْلْقَة والداية ، بينما هذه تتحسس بيديها ، من تحت الستـارة ، خروج رأس الـولـد إلى الـدنيـا حتى تسـاعـد في سحبـه ، وهي تصيـح بـالفتـــاة : اكبسي تقبريني ، اكبسي وعيني ولــدك ... حتى يصـل المـولـــود إلى الأرض ويبـــدأ بالصياح ، وتحاول الدايـة تفحصـه دون أن يراه أحـد ، فـإن كان في أضلاعـه وضع غير طبيعي تعمل على تصحيحه بخبرتها الخاصـة . ولا تبوح بنوع المولود إلا بحضور إحدى الحماتين لتضمن البشارة .

فـإن كان المـولـود ذكراً تبتسم وتقـول : اللهم صلي على سيـدنـا محمـــد ، خزيت العين حوله . أو تقول بلهجة عادية : اللهم ارض عن ستنا فاطمة .

وإذا كانت المطْلْقَـة بكريـة (أي أول ولادة لهـا) والوليـد أنثى تقول : الحمد لله على خلاصها بالهنا .

وبعـد سماع هـذه العبـارة يلجـأ الجميع للراحـة بعـد أن كانوا مشـدودي الأعصاب حتى وصلوا إلى هذه النتيجة ، ويتبادلون التهـاني بحرارة وعبـارات تتنـــاسب مـع نـوع المـولـود . ويسرع البعض لإبـلاغ بقيـــة أفراد الأسرة من الرجال بتمام الولادة ونوع المولود .

تتابع الدايـة مهمتهـا في استخراج المشيمـة (الخلاص) وتغسل الوليـد ، وتقطـع الحبـل المشيمي على بعـد ١٢ ـ ١٥ سم من السرة ، وتعـالجـه بـالآس والزيت والبودرة ... وتفرك فمه بالتمرة (تُحَنِّكه) ، وتضع نقـاط من الليمون في عينيه وبعد أن تنتهي من القنـداقـة واللبـاس تقـدمـه إلى جـدتـه أو جـده وتحصل على الحلوان (مكافأة مالية) . وعندما يستلمه والده أو جـده يردد في أذنه اليمنى الأذان ، ويطلق على الوليد اسم محمد أو فـاطمـة مؤقتـاً بضعـة أيـام حتى يتم تحديد اسمه الدائم .

وبعد أن تنتهي الدايـة من أعمـالهـا يجلس الجميع لتنـاول طعـام (سفرة الخلاص) ، وعادة توضع المشيمة في كيس ويلقى بها في النهر ، أو توضع عنـد مفترق طرق . أمـا الحبل السري للفتـاة فيجمـع في ورقـة ويـوضـع في سـوق الصاغة تيمناً بأن تكون الفتاة من أصحاب السعادة .

وكثيراً ماتصاب الأم بصدمة نفسية عندمـا تعلم أنهـا وضعت أنثى ، لأن الـذكر في العرف الاجتماعي ليس كالأنثى ، فهـو يحمـل اسم العـائلـة ومعينـاً لوالده ، بينما الأنثى تحمل اسم العـار للـدار ... وقـد يترتب عن نتـائج الولادة هذه آلام ومتاعب للوالدة . أما اليوم فضعف أثر نوع الجنين لأن فرص الحيـاة العصرية لاتفرق بين الجنسين كثيراً . كما أن عمليـة الوضع تطورت عنـد عـدد كبير من العـائلات ، فمراجعـة الطبيب المختص تتم من الأشهر الأولى للحمل ، وتـوفرت أجهـزة تكشف عن الجنين في بطن أمـه فيمكن التعرف على جنسـه أحياناً قبل ولادته . وعندما تشعر الحامل بـآلام المخـاض تتوجـه إلى المستشفى وتعلم طبيبها بذلك فيرافقها إلى غرفة الولادة . ولا يوجد عنـد الأطبـاء وقت كبير لانتظـار الولادة الطبيعيـة التي قـد تستغرق سـاعـات طويلـة ، فيلجـأ

الطبيب للمحرضات ، والمشرط ، وآلة السحب ، بدل كلمات التشجيع التي تستخدمها القابلة سابقاً ، ولكن هذه الوسائل تخفف عن الأم آلام الولادة . وقلما يهتم أحد اليوم بمعالجة الوليد كما كان بالأمس القريب بل يهتمون اليوم بفحصه صحياً والتعرف على وزنه وطوله ...

ومن العادات التي لا زالت موجودة مع بعض التبدلات أحياناً ، ذبح العقيقة وهي ذبح شاة للوليد الأنثى وشاتين للذكر . وكان لحمام الفسخ أهمية وإجراءات خاصة أهملت اليوم بينما لا زال للكراوية مكانتها في ضيافة المباركة ويقدم منها للنفساء من أجل حليبها . أما في الصيف فتقدم البوظة . وتظهر معزة الوليد ووالدته من كثرة القلوبات فوق فنجان الكراوية .

أما حفلة الختان فكانت تتم عندما يكبر الطفل ليفرح به أهله في حفلة خاصة للمناسبة يدعى إليها الأقرباء والأصدقاء ويأتي المزين (المُطَهِّر) إلى الدار لإجراء عملية الختان وسط أهازيج الشباب للتغطية على صوت صراخ وبكاء الطفل الذي تجرى له العملية ويتردد المزين عدة مرات بعد ذلك للاطمئنان على سلامة العملية . وكان الأهل يخرجون بالطفل بعد انتهاء الختان لعمل جولة له مع رفاقه وقد ارتدى اللباس الأبيض الخاص وعلى رأسه طربوش أو طاقية مرصعين بالماس .

وتتم عملية الختان اليوم خلال الأسبوع الأول من الولادة ، يقوم بها الأطباء في المستشفى أو رجال مختصون (المطهر) . وقد تتم في الدار أو عند المطهر بينما أهملت الجولة والحفلة لأن الطفل يكون صغيراً جداً ، وبدأ المطهر يستخدم أجهزة صغيرة تعمل بالكهرباء لإجراء عملية الختان وبذلك دخلت التكنولوجيا هذه العملية أيضاً .

الوفاة وعادات الحزن

الموت له رهبة في النفوس ، والوفاة مناسبة لها حرمتها تفقد الأسرة فيها أحد أقاربها . وبقدر ماكان الترابط العائلي قوياً ، كان فقدان أحد الأفراد صعباً ومُضنياً . فيخيم الحزن في الدار وعند الأقرباء والأصدقاء . وحادثة الوفاة لا تتغير عبر العصور ، فالموت واحد . ولكن طقوس الدفن والتعزية تتبدل مع الزمن ، وأصاب التغيير بعض العادات خلال نصف قرن . فلا يشعر المرء اليوم بأزمة كبيرة ، ولا تصادفه عقبات في ترحيل متوفاه حتى مدفنه ، بل يتولى مكتب دفن الموتى كل مراحل العملية وتتعهد المطبعة بلصق أوراق النعوة على الجدران ، وتوجد مكاتب خاصة للخدمة في الأفراح والأتراح ، ويتم التشييع بالسيارات اختصاراً للوقت وتوفيراً للجهد . وتستمر التعزية ثلاثة أيام ، وبعدها ينتهي كل شيء . وتبقى زيارة القبور في مناسبات الأعياد .

ولتعريف أبناء هذا الجيل بعادات الدفن قبل نصف قرن وما طرأ عليها من تبديل ، آخذين بعين الاعتبار اختلاف المشاعر ، وضعف الروابط المعنوية والتطور الذي شهدته المدنية بكل المجالات ، نقول :

عندما يبلغ المريض مرحلة الاحتضار ، تلازم زوجته أو أحد أبنائه ، فراشه لخدمته ، فهذا واجب ديني وعائلي يثاب عليه . وإذا طالت فترة الاحتضار ، يوضع في غرفة المحتضر نسخة من القرآن الكريم تيمناً بها ، ويقرأ

الجميع مـا يحفظون من الآيـات والأدعيـة للتخفيف عنـه طـالبين لـه الرحمـة .
وعنـدمـا تـدنو لحظـة الوفـاة يردد الحـاضرون بصوت مسموع لفظـة الشهـادة (أشهد أن لا إلـه إلا الله وأشهـد أن محمـداً رسول الله) . ليـذكرهـا المحتضر مع خروج الروح ليموت على الإيمان .

وعنـدمـا تحـدث الوفـاة ، تقوم إحـدى النسـوة ممن لهن خبرة سـابقـة ، ويتمتعن بجرأة كافيـة ، بإغمـاض عيني المتوفى ، وربطها بقطعـة من القماش ، وربط الرأس بقطعة أخرى من أسفل الذقن إلى منبت شعر الرأس ، كما يربـط إبهاما القدمين ليبقى الساقان متلاصقين . وتتم هذه الإجراءات التمهيدية ريثما يحضر المسؤول عن تغسيـل الميت . ثم يغطى الجسـد كلـه بغطـاء يستحسن أن يكون أبيض اللون ويغلق بـاب الغرفـة على الميت بـانتظـار وقت التشييـع . وهنا ترتفع أصوات العويل إيذاناً بحدوث الوفـاة ، فتسرع النسوة من الجيران لمسـاعـدة أهل المتـوفى ، والتخفيف من مصـابهم . وتعمـل الجميـع على تنظيـف الدار واستقبال المعَزّين ، فتغطى المرايا والخزائن والصور والثرايات ، بستائر بيضاء ، ويمد السجاد مقلوباً حتى لا تظهر ألوانه وزخارفه . كما يتم تحضير الألبسـة المنـاسبـة للحزن لارتـدائهـا ، ولكل سن لون خـاص ، فمنهن من تلبس الأسود أو الرمادي أو الكحلي . ويجب تحضير الماء الساخن والمناشف لتغسيل الميت .

ويتجـدد مـع وصـول كل قريب ، البكاء والعـويـل (الـولاويـل) ، وتعداد مناقب المتوفى ، ومـا لوفـاتـه من أثر على الأسرة . وأحيـانـاً يستـأجر الأهـل فتيـات يمتهن العـويـل (النـواحــات) ، وهـؤلاء يحفظن الكثير من العبارات المناسبة لمدح الميت .

ويتعهد أحد الجيران في الحي بتحضير الطعام لاستقبال أهل الميت بعـد

التشييع والدفن ، لأن أصحاب اللازمة منشغلون بترحيل متوفاهم . وليس من اللائق أن يحضروا طعامهم بأنفسهم في ذلك اليوم . وهذا ما يسمى (تنزيلة) وقد أصبح الوضع معكوساً اليوم فأهل الميت مع كل مشاغلهم ، يعملون على توفير الطعام اللازم لدعوة بعض المشيعين إلى التنزيلة .

أما الرجال من أهل المتوفى فيذهب أحدهم لإبلاغ المؤذن كي ينعي المتوفى على المأذنة ، وكان هذا حق للجميع ، ثم اقتصر على الوجهاء والأشراف (المنسوبين إلى أسرة الرسول ﷺ) . ويُبلغ أحدهم المسؤول عن ترحيل الميت ، وكان رجال يتعهدون ذلك قبل أن تنحصر بيد مكتب دفن الموتى التابع للدولة ، وكان يتشاءم كل من يراه ، وتحركاته في الحي نوع من الإعلام ، فيستفسر الجميع عن المتوفى ويتوافدون إلى الدار المقصودة ، بينما يرسل المتعهد بالدفن خبراً إلى الحفار لتجهيز القبر ، ويحضر إلى الدار الذَّهبة (وتشمل المغتسل والنعش وبعض العلب الخشبية التي تحوي ما يوضع للميت من كافور وقطن وماء الورد وكميات من الرمل تفرش في القبر قبل وضع الميت ...) ويتجدد العويل عند وصول الذهبة .

ويتم تغسيل الميت بعد أن تنزع عنه الحلي ، إن وجدت (خاتم ، أسوارة ، أقراط ، أسنان ذهبية ...) وتعطى لأهله . ثم يلف بكفنه ويوضع في نعشه بعد أن يلقي ذووه نظرة أخيرة ويتعهدون بتبرئة ذمته من أي ديون قد تكون عليه . ويوضع على مقدمة النعش طاقية أو طربوش لتمييز الميت إن كان ذكراً ويزين طربوش الشاب ، ويضع آل البيت بدل الطربوش ، عمامة خضراء ، وللمرأة غطاء أبيض .

وكان التشييع يتم سيراً على الأقدام ، ويحمل النعش على الأكتاف

يتقدمه المؤذن الذي يردد بعض العبارات المناسبة لوعظ الأحياء وطلب الرحمة للميت . وفي مقدمة الموكب يسير حملة كفوف الآس ، وحملة العلب التي تحوي الرمل والكافور ... ويتميز موكب الأثرياء بكثرة كفوف الآس وخروج جماعة المولوية أو فرقة جمعية الإسعاف الخيري على رأس الموكب . أما المشيعون فيسيرون خلف النعش يتقدمهم آل الفقيد وأقرباؤه . وللمشاركين بالتشييع أجر وثواب كبير ، ويزداد هذا الثواب لمن يشاركون بحمل النعش ، ولنقل النعش على الأكتاف طريقة خاصة . وقد وفر التشييع بالسيارات كل هذه الجهود وكانت الصلاة على الجنازة تتم في الجامع الأموي مارة بسوق الحميدية الذي يشكل عصب المدينة ، أو في جامع السنانية الأقرب إلى مقبرة الباب الصغير ، وهي أكبر المقابر في دمشق . أما اليوم فتتم هذه الصلاة في أقرب مسجد من المقبرة ، وتوجد مقابر عديدة صغيرة بين الأحياء كمقبرة الدحداح وحول قبر عاتكة ... وقد حضرت الصلاة مرة في جامع لالا باشا ، وقد اجتمع في المسجد نعشان لامرأتين وضعا خلف المصلين ريثما انتهت صلاة الظهر ، ثم أسرع أصحاب كل نعش لتقديم ميتهم للصلاة عليه ، ومع السرعة والازدحام التبث على الطرفين تحديد نعش كل منهما لأن الأغطية متشابهة . واعتمدوا أخيراً على التخمين والله أعلم .

وإذا كان المتوفى شهيداً ، يحمل رفاقه نعشه على أكفهم طوال مسارهم إلى المدفن وهم يرددون بصوت حماسي ومرتفع عبارات : لاإله إلا الله ، والشهيد حبيب الله ... وفي ذلك إثارة لحماس الناس خاصة إذا استشهد في سبيل قضية وطنية تهم الجميع .

وعند وصول الجنازة إلى المدفن (التربة) ، يستلمها المسؤولون عن

الدفن ويتوجهون بالنعش إلى القبر المحدد الذي أعده الحفار مسبقاً ، ويرافقهم الأقرباء وبعض المشيعين ويبقى البعض الآخر عند باب المدفن . ويتم الدفن بطريقتين ، إما أن يلحد الميت من مقدمة القبر ، وهو الشائع . أو من مؤخرته ، ويسمى : هاشمي . ويرافق الدفن رفع الآذان ، ثم يلقن المؤذن الميت بعض العبارات الدينية . وأخيراً يعلن للجميع عن مكان التمساية . ويعود أهل الميت ليتقبلوا التعازي عند باب المقبرة . وبما أنهم يقومون اليوم بتجهيز طعام التنزيلة فإنهم يطلبون من بعض المشاركين بالتشييع الحضور إلى المنزل وتناول الطعام ، وهذه إحدى المناسبات لإظهار البذخ والثراء ولكن لا ينال الفقراء منه شيء . وكان الناس يعانون من (كلاليب الجنازة) الشيء الكثير (وهم الفقراء الوقحون في طلب الصدقة من أهل الميت أمام الجميع) .

ومن واجبات أهل الميت أن يذهب أحدهم مساء يوم الدفن إلى التربة لقراءة الفاتحة وهو ما يسمى : فك وحدته ووحشته ؛ لأن الميت في تلك الليلة يكون نزيلاً جديداً على أهل القبور . ويترددون إلى القبر أيضاً في صبيحة الأيام الثلاث الأولى مع مطلع الشمس لتقبل التعازي هناك وهذا يسمى (الصباحية) . لذلك يقولون : اليوم الصباحية مسامحة ، أي لن نستقبل أحداً في التربة صباحاً . وكانت التعزية تتم مساء في المسجد ، وأصبحت اليوم في المنزل وتوزع فيها القهوة المرة مع قراءة القرآن ، وبدأ الناس يستعيضون بأشرطة التسجيل عن المقرئين .

أما النساء فيتقبلن التعزية (العصرية) ثلاثة أيام بعد العصر وفق طقوس خاصة ، حيث تجلس المدعوات للوقوف بالعصرية في غرفة توزع الكراسي في كل أطرافها ، وتبقى ثلاثة كراسي شاغرة لجلوس المعزيات

وتسـدل ستـارة على البـاب ، وكلما دخلت دفعـة من المعزيـات ، وقفن لهن ويتم مكوث المعزيـات بمقـدار قراءة سورة الإخلاص ثلاث مرات ، ولا يجوز السلام أو الكلام . وإلا فسدت العصرية كما حدث مرة : فقد تحركت ستارة الباب ، ووقف الجميـع ينتظرن دخـول الْمُعَـزيـات ، ولكن كان الـداخـل هرة ، فضحـك الجميع . ويعللن مثل هذه الحادثة بأن الميت كانت روحه مرحة يحب الضحك .

ويراعى في التمساية عدم وضع ربطـة عنق حمراء أو ذات ألوان زاهيـة ، وارتـداء البدلة كاملة ، وعدم حلق أهل الميت لحاهم مدة أسبوع ، ولكن هذه الأمور أهملت اليوم ، واقتصر التمسـك بمظـاهر الحزن على النسـاء فقـط وحتى هـؤلاء وجـدن حلـولاً لبعض المظاهر بعـد أن أصبح معظمهن يمـارسن العمل ، وأصبحت عـدة المتوفى عنهـا زوجهـا لا تمنعها من الخروج كما كان سابقاً ، فكان الجهل يجعل العدة قاسية على الأرملة .

وقبل أن تحدد الحكومة أجور الدفن وتحصر هـذا العمل بمكتب دفن الموتى ، كان المسؤولون عن الدفن يتحكمون بفرض الأجور ويستغلون النـاس ولهم مهـارة في ابتزاز الأموال مستغلين المنـاسبـة الحرجـة التي يمرّ بهـا أهل الميت . فبعـد مرور بضعة أيام على الوفـاة يـأتي متعهـد الترحيل طـالبـاً أجور العمل الـذي قـام بـه ، ويفرض المبلغ حسب رغبتـه معتمـداً على الإمكانيـات المـاديـة للأسرة . ويضطر الجميع دفع ما يفرض عليهم . وأذكر حادثة سمعتهـا قـديمـا عن امتنـاع أحـدهم دفع ما فرض عليه بحجة أنه أجر باهـظ ، وتحـدى متعهـد الـدفن قـائلاً : لن أدفع لـك شيئاً ، وإن لم يعجبك ما أعرضه عليك فأعد إلينا ميتنا ، ظناً منه أن كل شيء قـد انتهى . وبعد يومين أتى المتعهد وطرق الباب قـائلاً : افسحوا لنـا الطريق لنعيـد إليكم ميتكم . ووجدوا النعش على الباب . فخافوا ورضخوا لطلبه ودفعوا ما طلبه منهم . وتبين فيما بعد أن النعش كان فارغاً . ولم يبق أثر لمثل هذه الحوادث اليوم .

ومن العادات المألوفة سابقاً ، زيارة الذكور قبر فقيدهم صباح كل سبت وقراءة سورة يس ، وخروج النسوة للزيارة بعد عصر الاثنين والخميس ، وتقام وليمة للفقراء على روح الميت بعد مرور أربعين يوماً على الوفاة ، ومثلها عند مرور سنة . وتقرأ بعد الوليمة ختمة مهداة إلى روحه (الختمة : قراءة القرآن كاملاً) .

بينما اقتصرت زيارة القبور اليوم على العيدين (الفطر والأضحى) حيث يخرج الناس صبيحة اليوم الأول يحملون أغصان الآس أو النخل لوضعها على القبور ، فتكتسي المقبرة حلة خضراء ويزدحم فيها الزوار من ذكور وإناث وتعلو أصوات الأطفال الفقراء وهم يرددون : عاويز ماي (أي هل تريد ماء لتصبه على القبر) ويأخذون مقابل ذلك أو لقاء قراءة سورة يس بعض الدراهم التي يجود بها الزوار على روح الميت .

أما عند باب المسجد فقد لا يدخل من المشيعين اليوم إلا النذر القليل للصلاة على الميت ويقتصر ذلك على رواد المسجد لأداء فرائضهم . كما اتسع مع الزمن مفهوم الشهيد فأصبح يشمل كل من يموت بحادث ، وقد شهدت تشييع شاب في الحي ، ردد رفاقه عند الخروج به من المنزل عبارة : لاإله إلا الله والشهيد حبيب الله . ولما استفسرت عن سبب استشهاده ، تبين أنه قتل في الليلة الفائتة في الملهى نتيجة نزاعه مع شخص اخر من أجل راقصة فأرداه قتيلاً .

وأهمل الناس فك الوحدة وولائم الفقراء ، وأصبح العويل والصراخ غير مألوف خاصة في الأحياء الحديثة وتقلصت مظاهر ومفاهيم الحزن كثيراً وبذلك أخذت هذه العادات طابعاً جديداً عند جيل اليوم .

اللباس

رغم التطور الكبير الذي طرأ على اللباس في دمشق ، لاتزال أسواق المدينة تحتفظ لنا بمختلف طرزه . وإن كان القديم اندثر بعضه ، فليس غريباً أن يخرج اليوم من الدار الواحدة مجموعة من النساء ترتدي إحداهن الملاءة ، والأخرى المنديل ، والثالثة تضع الإشارب ، وترتدي الرابعة الزي الحديث من بنطال أو (ميني جوب) . كما لا يزال يحافظ بعض رجال الأحياء القديمة على لبس الشروال والقنباز ، رغم أن أبناءهم يرتدون البنطال والقميص .

كان سكان دمشق يرتدون في العشرينات أنواعاً مختلفة من الألبسة ، وبدأ بعضهم يرتدي الزي الأوربي الذي غزا المدينة مع دخول المستعمر إلى البلاد ، خاصة في دوائر الدولة . وبذلك شهدت الفترة التي ندرسها تحولاً كبيراً في الأزياء .

ويصف لنا فخري البارودي في مذكراته تطور اللباس عند التجار وأثره بقوله : « وإذا تعدى أحدهم طوره ولباسه ، أو لبَّس ابنه لباس طبقة أعلى من طبقته ، يكون عرضة للتحقير والتهكم . وكثيراً ماسمعنا أفندي المحلة قد جلب أحد التجار الأصناف ووبخه على تعديه طوره بارتداء لباس أعلى من لباس طبقته ، وأجبره على قلعه والرجوع إلى لباسه الأصلي . وعلى هذا النحو كانت جميع الطبقات سعيدة في حياتها ، مسرورة في اجتماعاتها ، فرحة

في معيشتها بعكس اليـوم ، حيث نسمع الشكوى من كل جـانب ، ومن كل طبقة . والسبب هو عدم معرفة الإنسـان حـده والوقوف عنـده . وإنـا نرى اليوم أفقر الفقراء يريد أن يقلد في لباسه ومعيشته ابن التاجر الكبير ، وامرأة الصانع تريـد أن تجاري امرأة الوزير ، وبذا ظهر عـدم الرضا بين النـاس ، وارتفعت الشكوى لطف الله بالعباد » . ويدل هذا الوصف على أنـه كان لكل طبقة زي خاص من اللباس .

ويصف خالد العظم في مذكراتـه لبـاس الشعب فيقول : « أمـا الشعب فكان لباسه كما لا يزال حتى الآن خليطاً من اللباس الأوربي ، والبلدي المؤلف من قنبـاز طويـل ، أو سروال ضيق السـاقين ومعطف عـادي ، أو قميص من (الديما) وصدرية مزركشة ، وحزام من الأغباني أو القماش العادي الأسود أو الأحمر . أما لباس الرأس فمن الطاقية الصغيرة البيضاء أو الملونة ، إلى الكوفيـة البيضاء أو الملونة مع عقـال أسود أو بـدونـه ، إلى الطربوش الأحمر أو الأبيض إلى كاكولية الدراويش ذات اللفـة الخضراء . ولكن لم تكن لتشـاهـد بين جميع هذه الجماهير أحـداً بـدون غطـاء رأس إلا الأطفـال الصغـار ، إذ كان عيبـاً أن تخرج إلى الشـارع ورأسـك مكشـوف . وأمـا الآن فـإذا لم تكن عـاري الرأس فالناس تتطلع إليك بتهكم » .

ويضيف في مكان آخر عن اللباس الحديث : « أما شبابنـا الآن فيقتصر لباسهم صيفاً على بنطـال بسيـط وقميص أبيض أو ملون بـدون أكمام . واختفى الطربوش الـذي كان يتبـاهى بطولـه وكيـه البعض ، حتى أنهم كانوا يقتنـون لكل طربوش علبة خاصة من الكرتون يأخذونها معهم حتى في أسفارهم » .

ويتحـدث عن لبـاس المرأة وتطوره فيقـول : « والفرق الكبير الظـاهر بين الأمس واليوم هو في لباس المرأة ... فكانت المسكينة ملفوفـة بملاءة سوداء لاتظهر لهـا جـزءاً من جسمها حتى ولا كسمـه ... وأمـا الـوجـه فمخبـأ يكاد لا يخرقـه النور ... » . ويصف التطـور بقـولـه : « أمـا المـلاءة التي ترتـديهـا فكانت من اللون الأسود ، وتتـدلى حتى الأرض ، وقـد تنسحب أطرافهـا على الأرض . وكانت مصنوعة بشكل يحجب المرأة كاملاً ، ولا يظهر كسمها البتة . ولا تزال النسـاء في أحياء المدينـة القـديمـة يرتـدين هـذا الزي ، رغمـاً عن أن سكان الأحياء الجديدة تطورت حالتهم الاجتماعيـة ، فتبـدلت الملاءة (الزم) إلى ملاءة محصورة لاتتجاوز أطرافهـا الركبتين ويفلت من أجنحتهـا الزنـدان واليدان ، ورق منديل الوجه حتى صار شفافاً لايحجب من الوجه شيئـاً ، بل يــزيــد في جمــالــه بستره بعض العيــوب . ثم خطت المرأة خطــوة أجرأ ، واستبدلت الملاءة بغطاء رقيق تعصب السيدة رأسها بـه (البشمـك) وجسمهـا مكســو ببـدلـة عـاديـة فـوقهــا معطف ، ثم انتهى الأمر بــأن خرجت المرأة العصريـة عن كل مـا يفرقهـا عن المرأة غير المسلمـة من حيث اللبــاس الــذي ترتديه للخروج من الدار » .

وقـد تـأثر تطور اللبـاس بواقـع الحيـاة والتطـور الاجتماعي ، وزيـارة بعض الشباب لـديـار الغرب للـدراسـة ، وعمل الموظفين في دوائر الـدولـة مع المستشـارين الأجـانب . كما خرجت الفتــاة إلى المــدرســة ، والمرأة للعمـل ، واتصلت بـالمرأة الأوربيـة ، واطلعت على مجـلات الأزيـاء وقرأت الصحف ، وشاهدت الأفلام ، كما تعددت المهن وتطلب بعضها أنواعاً معينة من اللبـاس . كل هذه العوامل وغيرها أدت لتطور اللبـاس والأزيـاء وتعـددهـا وتنوعهـا .

فكانت المرأة في المنزل لاترفع عن رأسها القمطة المَزيَّنة أطرافها بالخرز الملون لتستر شعرها ، وعند الخروج ترتدي الإزار أو الملاءة التي تتألف من قطعتين : الفَجَّة والْخَرّاطة ، ويتدلى المنديل على وجهها . وكانت تربط حول وسطها من تحت الخراطة جيباً من القماش ذا شريطين يربطان من الخلف ، لتضع فيه منديلها وعلبة الدخان (كانت السجاير تلف يدوياً) والنقود ومفتاح الدار ، أو تربط المفتاح مع مفتاح الخزانة في تكة ملاءتها بصورة جانبية . ثم بدأت تلبس المانطو وفوقه الفجة التي أصبحت تعرف باسم البَرَلين ، ثم استعيض عن البرلين بالبونية وهو المنديل لستر الوجه والرأس . وكانت تضع الحشوات على الثديين لبروز صدرها ، قبل استخدام السوتيان .

وفي الثلاثينات والأربعينات ، ومع زحمة المواصلات وخروج النساء بكثرة إلى الأسواق ، استبدلن بالبانطو ، التايور الأوربي مع المنديل . واستبدل الجيب القماشي بحفظة اليد ، كما تطور الحجاب بما يتلاءم مع روح العصر وأصبح الكشف عن الوجه مقبولاً عند البعض ، بينما تخلى قسم منهن عن الحجاب ووضعن الإيشارب ثم خرجن حاسرات الرأس تقليداً للأوربيات . وأصبح هدف اللباس عند بعضهن ، إبراز مفاتن الجسم ، وتأثرن بمجلات الأزياء العالمية فانتشر الميني جوب والماكسي ، والبنطال . وأصبح لكل وقت وكل مناسبة لباس .

أما الجوارب فلم تكن لها أهمية عندما كان اللباس طويلاً ، ولكن أصبحت جزءاً من زينة المرأة في لباسها الحديث ، فتعددت ألوانها وأنواعها

وطولها ورسومات نسجها من الشبك إلى المحجر إلى غير ذلك مما يزيد في فتنة الساقين . وأصبح الكثيرات يخرجن بدون جوارب خاصة في فصل الصيف .

وكان لباس القدمين الكُنْدرَة أو السكربينة . وكانت على الأغلب سوداء ولا تملك السيدة غير واحدة منها ، ثم ازداد التفنن في الألوان ، والتباهي بارتفاع الكعب ، خاصة في الحفلات ، فقد يصل ارتفاع الكعب إلى ١٢ سم .

وكانت الحلي معظمها من الذهب كالأقراط ، والمطيف للصدر ، ومَيّة الألماس وهي أثمن من المطيف ، والكروان سلسلة ذهبية مضفورة للعنق ، وحبل اللولو ومشط الألماس والتاج والمبرومة والدبابة ... وكانت العادة أن تحول الفتاة كل ماتملك إلى حلي ذهبية تتزين بها وتشكل رصيدها المادي . أما اليوم فظهر العديد من الحلي غير الذهبية بعد أن تطورت الصناعات فظهر اللؤلؤ الصناعي وقشور الماس والذهب المزيف ... كما ابتكرت الشكلات والورود الصناعية بألوان متعددة لتتناسب مع لون الثياب .

وكانت زينة المرأة عبارة عن مسحوق أحمر يدعى دودة حمرا تخضب به وجنتيها ، ويكتسب وجهها بياضاً ناصعاً بعد مسحه بمادة السليماني ، ويزداد سواد عينيها جمالاً باستعمال الكحل والمكحلة ، وتصفف شعرها يدوياً بملقط خاص . وعندما غزت المنتجات الأوربية أسواقنا المحلية واستخدمتها المرأة الشرقية ، اهتمت بتزيين وجهها وأظافر يديها وقدميها ، وتحكمت بلون عينيها والأهداب ليتناسب مع لون الثوب الذي ترتديه ، وانتشرت الجراحة التجميلية ، والتدليك الجسمي والحمامات والرياضة ... وأسلمت شعرها لمقص

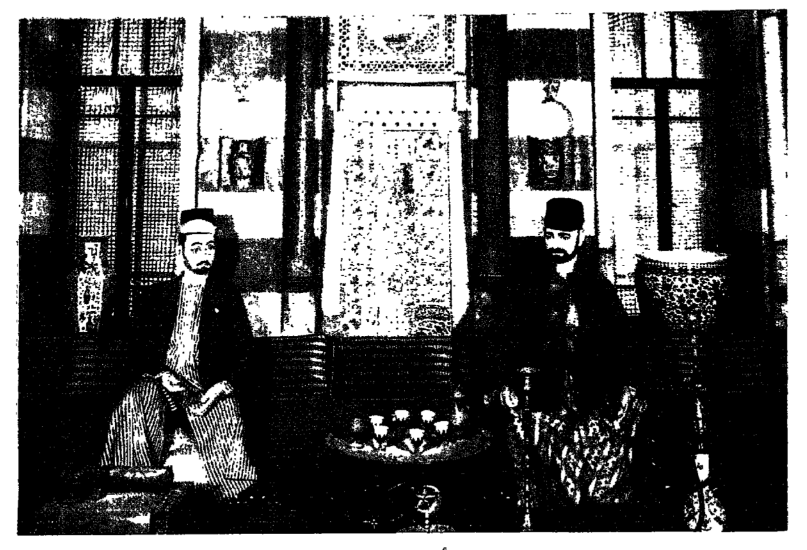
الحلاق بعد أن كانت تتباهى بطوله وطول الضفيرة التي تتدلى على ظهرها ، ووضعت على رأسها الباروكة والبوستيج وتغلبت على كل عيوبها فصدق المثل العامي الذي يقول : زَيّن المِكِنسَةْ تصبح ست النسا (سيدة النساء) .

ولم يتطور لباس الرجل بل استبدل دفعة واحدة بالزي الأوربي الذي بدأ بارتدائه الطلاب العائدون من أوربا ، ثم الموظفون والمثقفون . وهو عبارة عن جاكيت وبنطال وقميص ذو ياقة منشاة وربطة عنق تتناسب مع لون الطقم . ومنهم من يرتدي فوق القميص ، صدرية وهي من نوع قماش البدلة غالباً وبدون أكمام . وبدأ الرجال في الخمسينات يتأثرون بالأزياء العالمية ، فيختلف طول البنطال وعرضه وقبة الجاكيت وعدد الأزرار ... حسب الأزياء .

وإذا عدنا إلى العشرينات وجدنا أنواعاً من الألبسة يختص كل منها بسن أو طبقة معينة من الناس منها :

المحكمجي : ويتألف من بنطال واسع فضفاض والصدرية مفتوحة من الأمام ومعطف قصير حتى الركبة وله صفان أو ثلاثة من الأزرار ويرتديه موظفو القضاء .

القنباز : وهو ثوب طويل حتى القدم ، مفتوح من الأمام ، عريض من الأسفل ، يربط طرفاه عند العنق بزر ظاهر ، أكمامه طويلة تتسع عند الرسغ ، وله ثلاث جيوب ، إحداها صغيرة عند الخاصرة اليمنى لوضع الساعة المستديرة التي يتدلى منها سلسال مثبت بطرف القنباز . وهذا لباس العلماء والوجهاء والتجار ومعلمي الكارات . ويرتدي بعضهم فوق القنباز معطفاً



أزياء شعبية

طويلاً ، أو سترة عادية (جاكيت) . ويضع بعضهم فوق (قَبَّة) المعطف قطعة إضافية من القماش أو محرمة لتخفف من اتساخ (القبة الأصلية) . ويكون السروال الداخلي تحت القنباز طويلاً يستر الساقين .

الشروال : وهو لباس شرقي أصيل ، يثبت على الوسط بتكة داخلية تلف حول الخصر . وهو فضفاض إلا في الساقين ، ويرتديه الشباب . وقد يضع الشاب منديلاً واسعاً (مَحْرَمَة) على كتفه أو يلفه على وسطه .

الصدرية : لباس الجذع فوق الشروال ، مفتوحة من الأمام ، وعند التقاء طرفيها صف أزرار صغيرة بقدر الحمصة من الخيوط عددها يقارب الخمسين . وليس لها أكمام ، وتوضع تحت الشروال .

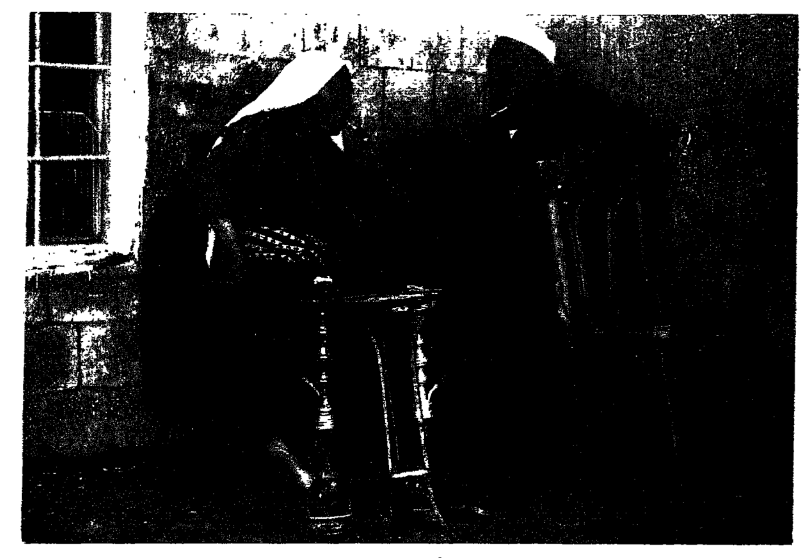
الزنار : وهو من الغزل القطني الأبيض يغطي التقاء السروال بالصدرية ، أي يلف على الوسط فوق بيت التكة (دكة) .

الميتان : مفتوح من الأمام بأكمام طويلة وبدون أزرار ، يلبس فوق الصدرية .

الشال : (الشالة) تجمع على بعضها بطريقة خاصة وتلف فوق الخصر بدل الزنار . وهي مثار الوجاهة حسب جودتها وثمنها وأشهرها العجمي .

الشملة : من الحرير البسيط الأسود يزيد طولها على المترين تلف في الوسط بدل الزنار والشال .

الجبة : ليس لها أزرار ولا جيوب عريضة من الأسفل ويرتديها العلماء فوق القنباز .



أزياء شعبية

العباءة : لاتزال منتشرة حتى اليوم وخاصة الشتوية منها . لتستر كل ماتحتها من ثياب وتجلب الدفء .

أما لباس الرأس فهو أنواع : الطاقية والحطة والسُّلُك والعمامة والطربوش . وإن لم يكن على الطربوش شيء يسمى طربوش كشف ، وأحياناً توضع عليه لفات متعددة ، فاللفة البيضاء للعلماء ، واللفة اللام ألف من قماش الأغباني للمتقدمين بالسن وقد تكون اللفة خضراء .

الجلابية : ويرتديها الشباب في الأحياء ، وهي ثوب طويل فضفاض مفتوح عند الرقبة فقط . ويرتدون فوقها السترة (جاكيت) إذا خرجوا من الحي .

ولباس القدمين ، هو القبقاب ، والمست مع الصب ، والنعل بدون جوارب ، والصباط والكندرة التي يكسر بعضهم جدارها الخلفي .

ومن متمات اللباس أن يحمل الشباب (الزكرتية) عصا من الخيزران ، ويحاولون دائماً تعديل وضع الطاقية على رؤوسهم ، ويحمل المسنون بيدهم البستون (العكاز) .

وكان لباس الأطفال القفطان ويسميه العوام سركس أو طباخ ، ويضع الطفل على رأسه طاقية أو طربوشاً . وينتعل حذاء بساق طويل وأشرطة يسمى (بوتين) ، ويحمل الطفل في عنقه عند ذهابه إلى الكتّاب (التوب) وهو كيس فيه المصحف والسفينة (دفتر الكتابة) والصبرة (كتاب القراءة) ، ويغلق التوب بزر وعروة خاصة . وعندما انتسب الأطفال إلى المدارس الرسمية ، أصبحوا يلبسون بنطالاً قصيراً وجوارب حتى الركبتين

وفوق القميص والبنطال صدرية سوداء تعلوها ياقة بيضاء عند العنق ، ثم اختلفت ألوان الصدرية ، ولم يكن لطلاب المدارس الإعدادية لباس موحد ، بل يرتدي كل منهم ما يشاء ، حتى فرضت عليهم الفتوة في أواخر الأربعينات وتم توحيد اللباس .

وللختان لباس خاص ، عبارة عن قفطان أبيض لا يوجد تحته أي لباس داخلي وقد يوضع فوقه البرنس الأبيض ، وعلى الرأس طربوش مزين باللؤلؤ والماس والورد .

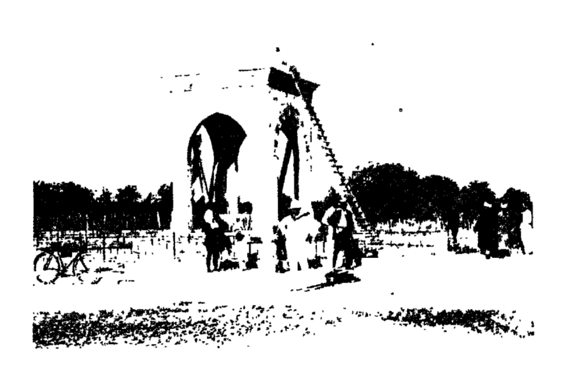
ومن الألبسة التي كانت للأطفال الرضع : القنداقة وهي مجموعة ما يخص الطفل الرضيع عند ولادته وتشمل الخروق (الفُوَط) التي استعيض عنها حالياً بالحفَاضات الصناعية . ثم تحاط الفُوَط بالمشمعة وهي شبيهة بأنواع النايلون ، وفوقها المضَرَّبية وتحزم هذه بالتِّكَّة ، تليها البقجة التي تضم معظم جسم الطفل بما فيها ساقيه ويديه وكل لباسه .

ويوضع على الرأس غطاء من القماش الرقيق (الشاش) ، وتحيط بالعنق التدويرة . وبعد شهرين يستغنى عن البقجة فيتحرر الذراعان من القيود . وبعد أربعة أشهر ترفع المضربية ويستعاض عنها باللباس القماش أو الكاوتشوك . واليوم أصبح الرضيع محرراً من كل هذه القيود وزالت هذه الأسماء .

ولنستكمل ما يتعلق بتطور اللباس الذي يعكس تطور الحياة الاجتماعية ومفاهيمها نقول : إن الثياب اليوم أصبحت متعددة الألوان والأنواع والأزياء لتعدد المناسبات ، وللرغبة في ارتداء الجديد بين الفينة والفينة تمشياً

مع أحـدث الأزيـاء ، فللسهرة لبـاسهـا ، وللعمـل لبـاسـه ، وللنزهـة ثيـابهـا وللريـاضـة والراحـة في البيت ... لـذلـك أصبـح لا بـد من تـوسيـع الخـزانـة لتستـوعب كل هـذه الثيـاب ، وطبعـاً لاتشغـل ثيـاب الرجـل فيهـا إلا حيزاً صغيراً ، بينما تحتل ألبسة المرأة القسم الأعظم بـدءا من جهـاز العرس ، وتزداد مع المناسبات ، وما أكثر المناسبات .

بينما كانت المرأة في العشرينات تملك لباس خروج واحـد للصيف وآخر للشتـاء لنـدرة خروجهـا من المنزل . ولا يـوجـد من المنـاسبـات إلا حفـلات الأعراس ومبـاركـة الـولادات وهي تقتصر على الأقربـاء والجيران . كـذلـك الرجل لم يكن يملـك العـديـد من الثيـاب فلا ضرورة للخزانـة الكبيرة ، بـل كانت تقتصر على ثلاثة أبواب فقط عند بدء استعمالها بدل البيرو .



الحمام

اشتهرت دمشق بكثرة حماماتها التي تحدث عنها الكتاب والمؤرخون ، فوصفوا لنا بناءها وأقسامها وآدابها ، وعددوا أسماءها . وساعد على كثرتها ، وفرة المياه في المدينة ، فمياه بردى وفروعه تنساب عبر الطوالع إلى الحمامات . ولا يخلو حي من حمام أو أكثر . وكان يرتادها كل السكان لخلو المنازل القديمة من الحمامات الخاصة . وكانت الحمامات تستقبل الرجال صباحاً ومساء طلباً للطهارة أو النظافة ، وتستقبل النساء من الظهر حتى قبيل المغرب .

وكان يوم الحمام عند النسوة ، مناسبة سعيدة تبعث في النفس البهجة والسرور ، إذ يقضينه بين الاستحمام والموسيقى والغناء ، فربما يبدو الصوت في الحمام أكثر جمالاً . ولا يخلو من حدوث مشادات ومشاجرات بين بعض النسوة لأسباب مختلفة .

وتصطحب النسوة معهن (البئجة) البقجة وفيها : المناشف والصابون والكيس والليفة وطاسة الحمام والثياب النظيفة ، ويحضرن معهن بعض الطعام مثل المجدرة والمخلل أو حراق بأصبعو أو عرايس زيت وزعتر ... مع فواكه الموسم ، أما الميسورات فيأتي طعامهن من السوق جاهزاً فيه أنواع اللحوم . وقد تستأجر الأسرة الحمام بكامله لأسباب خاصة .

وكان الشباب يتغنون بالفتاة وهي تحمل البقجة وتتجه إلى الحمام ،

لأنها إحدى المناسبات النادرة التي تخرج فيها من الدار فيرددون الأغنية المشهورة :

يا رايحة على الحمام خديني معاك لحملك (لأحمل لك) البقجة وامشي وراكِ

وإن كان أبوكِ ماعطاني ياكِ لعمل (لأعمل) عمايل ماعملها عنتر

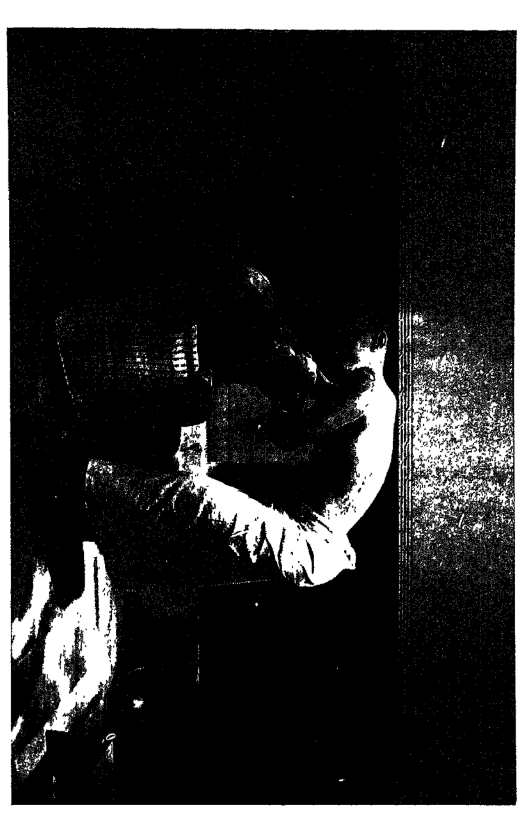
وأجمل ما في الحمام أن يتعرى المرء من ثيابه المخيطة ، ويستسلم للمكيس والمصوبن وعملهم أشبه بالتدليك والمساج ، فتتفتح مسام الجلد ويتصبب العرق من كل الجسم في جو حار . ثم يسترخي بعض الوقت في البراني ، يتمتع بجو معتدل استعداداً لمغادرة الحمام .

والحمام واسع البناء يقسم إلى :

البراني : وفيه مصاطب على الأطراف وتتوسطه بركة تتدفق فيها المياه الباردة لتلطيف الجو . وهو معد لاستقبال الزبائن ونزع ثيابهم . وللاستراحة بعد الحمام وارتداء الملابس النظيفة . ومنه ينتقل للوسطاني بعد وضع المناشف ولبس القبقاب .

الوسطاني : وهو معتدل الحرارة ، يجلس فيه الزوار للراحة ، أو إزالة الشعر ، أو تناول الطعام .

الجواني : حرارته عالية ، ويتم فيه الاستحمام ، ويتألف من عدة مقاصير ، كل مقصورة عبارة عن غرفة فيها جرن يصب فيه أنبوبان أحدهما للماء الساخن والآخر للبارد . وقد يوجد أكثر من جرن في المقصورة . وإذا



مقصورة في الحمام

احتلت أسرة كاملة المقصورة وضعوا على مدخلها ستارة حتى لا يدخلها أحد غيرهن .

القميم : وهو مستودع كبير مجاور للحمام ويضم : الموقد الملاصق لمستودع المياه لتسخينها ، ومستودع تجميع الوقود المؤلف من روث البقر ، وفضلات البيوت والاصطبلات ، والخشب أحياناً . ويستفيد بائعو الفول من القميم بوضع جرارهم المملوءة بالفول بجوار موقد القميم طوال الليل بعد إحكام إغلاقها فينضج الفول ببطء وبشكل جيد ويسمى : فول الأدار (القدور) .

ويتخصص العاملون في الحمام لخدمة الزوار بأعمال معينة لكل منهم . وهم :

المعلم : المسؤول عن جمع الرسوم (أجرة الحمام) ، ويرحب بالزبائن ويحفظ لهم أماناتهم خوفاً من الضياع أو السرقة .

الريس : هو المسؤول عن القسم الداخلي ، ويشرف على أعمال المصوبر والمكيس . وربما يستلم بنفسه تحميم بعض الوجهاء .

التبع : (التابع) يساعد الريس ويتنقل مع الزبائن بعد أن يستقبلهم عند الباب ، ويقوم بمهمة التكييس (التفريك) أي تدليك الجسم بالكيس الخاص وبطريقة فنية . ثم بالليفة والصابون بعد تنظيف الرأس أيضاً .

الناطور : مشرف عام على خدمة الزبائن عند نزع ثيابهم وارتدائها . والإشراف على الخزن التي تحوي المناشف .

ويقـابـل هـؤلاء في الفترة المخصصـة لاستقبـال النسـاء : المعلمـة ، والناطورة ، والأسطة ، والبلانة .

ومن المظاهر الغريبة في القسم البراني وجود أسلاك ممددة بين الجـدران على ارتفاع عالي ، لتنشر عليها المناشف التي تخص الحمام . ويتم رفعها وجمعهـا بعصا طويلة من القصب . كما لا ينقطع صوت القبقاب الشبراوي طوال النهار منذ بدء العمل صباحاً ، فالجميع يرتدون القباقيب أو يمشون حفاة .

وتروى طرائف وحكايات كثيرة عن سكان الحمامـات من العفـاريت والمخلوقات العجيبة ، ومن أطرفها ما حدث مع الناطور الـذي التحق بـالعمل حديثاً في حمام التيروزي :

دخل في صبيحـة أحـد الأيـام إلى الحمـام لتنظيفـه قبل وصول معلمـه ، استعداداً لاستقبال الزبائن . فلفت انتباهه جلبة وحركة غريبة في الداخل ، فلما توجه نحو الجواني وجد طاسة الحمـام (وعـاء كبير لسكب الميـاه) مقلوبـة على الأرض وتسير بسرعة ثم تتوقف . فإذا اقترب منها عادت للحركة ثانيـة ، فخاف وعاد مسرعاً للبراني بانتظار معلمه . فلما حضر وأعلمه بالحادث ، دخل برفقته وشاهد الطاسـة تتحرك من جـديـد . فضحـك لأنـه يعرف مثل هـذه المواقف ، وتوجـه نحـو الطـاسة وهـو يحمـل قبقـابـاً بيـده ، فرفعهـا وضرب الجردون (الجرذ) الموجود تحتها . فكثيراً ما تحاول الجرذان أخـذ الصـابون إن كان موجوداً في الطاسة ، فتقع عليه وينحصر تحتهـا ويجري بسرعـة ليتخلص منها ، ولكنها تكون كالمصيدة بالنسبة له .

وقد تناقص عدد الحمـامـات منـذ الثلاثينـات بعـد انتشـار بنـاء البيت

الحديث وفيه غرفة للحمام مزودة بتجهيزات خاصة تطورت مع الأيـام لتؤمن راحة ورفاهية سكان الـدور الحـديثـة ، ولكن لم يطرأ تحول كبير في طريقـة الاستحمام من استخـدام الكيس والليفـة ، ولكن أصبـح بـالإمكان الاستحمام يومياً . وتبقى للحمامات العامـة متعتهـا رغم أنهـا أصبحت نـادرة في المـدينـة وأصبح الشباب يقصـدون هـذه الحـمامـات مسـاء ليحتلوا دور النسـاء سـابقـاً باصطحاب الطعام وقضاء بعض الوقت بين اللعب والغنـاء والتسليـة أكثر من طلب النظـافـة والاستحمام لأن هـذا متوفر في البيوت . وتستقبـل الحـمامـات العامة الآن زوار المدينة من الأغراب ، بينما انقطعت النسوة عن ارتيادهـا إلا في حمامات معدودة .



السيران

رغم توفر الأزهـار والأشجـار وتـدفق الميـاه في كل بيت دمشقي ، فـإن الخروج إلى الطبيعة ، والتمتع بجمالها ، والتحرر من قيود الجدران ، له مكانتـه في النفوس . وقـد عشـق الـدمشقي النزهـات فـلا بـد من التمتـع بهـا بين فترة وأخرى . وزاد الولع بها تحرراً من قيود البيوت الحديثـة في الطوابق ، وهربـاً من صخب الحياة بعد أن ازدادت مشاغل الناس وأعمالهم .

وكانت النزهات كلها قريبة من المـدينـة ، يتم الانتقـال إليهـا سيراً على الأقـدام إلى المنـاطـق المجـاورة لـلأحيـاء ، كبسـاتين العـدوي والصـوفـانيـة والـزبلطـاني وجبـل الأربعين في سفـح قـاسيـون ، والـدواسـة التي تطـل من المهاجرين على الربوة . أو ينتقلون إليها على الدواب وبالعربـات التي تجرهـا الخيـول مثـل : صـدر البـاز (مكان معرض دمشـق الـدولي) ، والربـوة ، والشـاذروان (عنـد تفرع نهر تـورا عن بردى) . وقـد يبتعـدون إلى دمر ، حيث المنشية وقصر شمعايا . ولما وصل خط الترام إلى دوما ، امتدت النزهات إلى قرى عربين وزملكا وحرستـا ودومـا . وفي ليـالي الصيف المقمرة وخـاصـة يوم الجمعة يقصد الناس آخر خط المهـاجرين وينتشرون على سفح قـاسيون . وكان القطار ينقلهم إلى وادي بردى بدءاً من الهـامـة والجـديـدة وحتى الخضرا والفيجة والزبداني . وكثيراً ماكان يشتـد الزحـام في محطـة الحجـاز أيـام الجمع والعطل ، لأن نزهة القطار لها متعة خاصة عند الأطفال ، وكان يتزود الجميع

من على رصيف المحطة بأنواع الكعك وخاصة تماري وكعك ، لتناولها أثناء الطريق لفتح الشهية قبل الوصول إلى المنتزه وتناول طعام الإفطار . وعندما انتشر استخدام السيارة امتدت النزهات إلى الساحل ووسط الصحراء والأماكن الأثرية .

وتختلف النزهات حسب فترتها ، فإن اقتصرت على الفترة الصباحية ، تسمى صبحية وغالباً تكون للشباب فقط . وأصبحت الآن تضم العائلات لوفرة المواصلات . ويتم الخروج إليها في الصباح الباكر من أيام الصيف ، لتناول طعام الإفطار والتمتع بهدوء الطبيعة وروائحها المنعشة والجلوس فوق الحشيش الأخضر الندي . وتنتهي هذه النزهة وقت الضحى .

وقد تقتصر على فترة قصيرة قبيل الغروب ، لتناول كأس من الشاي ، وتسمى مشوار أو شمة هوا . وتكون الأدوات اللازمة لهذه النزهة قليلة محدودة .

وإذا امتدت النزهة طوال النهار تسمى سيران . ويحتاج السيران عادة لاستعدادات مسبقة في تحضير المواد الغذائية للإفطار والغداء ، وعدة الشاي ، ووسائل التسلية . وقد يقتصر السيران على الرجال وحدهم أو النساء فقط ، وأحياناً يضم أفراد الأسرة مجتمعين ، والآن أصبح يضم عدة عائلات خاصة في الرحلات اليومية .

ويبدأ السيران بانتقاء المكان المناسب وهذا يتطلب وجود الماء والشجر والمكان الواسع للعب . ويجب ارتداء الملابس المريحة التي لا تعيق الجلوس براحة على الأرض واللعب والقفز والنزول في مياه الساقية أو طرف النهر .



المقاهي على ضفاف بردى

ويختلف طابع سيران الرجال عن سيران النسوان ولكن بشكل عام ينقضي النهار بين تحضير الطعام واللعب ، والمسامرة وتدخين الأركيلة وشرب الشاي والاضطجاع للراحة . ويتميز طعام السيران بالحصول على الحليب الطازج من بز البقرة ، وقطف الباذنجان (البيتنجان) من على أمه للمقلاية رأساً ، وكذلك بقية الخضار والفواكه .

وتمضي الفترة الصباحية للسيران بين تناول طعام الإفطار ، وتبادل أنواع الأحاديث للتسلية ، وممارسة بعض الألعاب التي تختلف حسب طبيعة وسن اللاعبين . فمنهم من يلعب بالورق والبرجيس والطاولة ، ومنهم من يمارس ألعاب القفز على الحبل ونطة وزيده وضرب الكف ... ومنهم من يغنون على صوت العود والدربكة . وقبيل الظهر ينهض الجميع لتحضير طعام الغداء ويتوزعون العمل بين جمع أغصان الشجر والأشواك والحطب لإشعار النار ، وعمل الموقد ، وتحضير الخضار والطبخ . وغالباً يكون طعام السيران مشاوي (لحمة مشوية ومعلاق) أو مجدرة ، أو برغل بفول وبيتنجان مقلي ...

أما الفترة الثانية بعد الغداء ، فيضطجع البعض للراحة ويبدأ المسؤول عن تأمين الأراكيل بتحضيرها وينهمك المسؤول عن الشاي بتنظيم أدواته أمامه بفن خاص وهي تشمل السماور والإبريق الصغير فوقه للشاي الخمير ، ويضع الكاسات البَكر على الصينية وبقربها علب السكر وأنواع الشاي من أخضر وأحمر ، وللشاي الأحمر أنواع : السيلاني والذهبي والباش ... ثم أصبحوا يستعيضون عن السماور ببابور الكاز الطوي (يمكن وضعه ضمن علبة) ،

ويضع حوله عند إشعاله المروحة (التظلق) لمنع الهواء من إطفاء النار . ويوضع الإبريق الصغير وفيه محلول الشاي المكثف فوق الإبريق الكبير الذي يحوي الماء الساخن . ويضع صاحب الشاي أمامه كأساً مملوءاً بالماء الساخن المحلى بالسكر في الأسفل وفوقه الشاي الخمير دون أن يختلطان . ويبدأ بتوزيع كؤوس الشاي على الجلوس ، وقد وضع بعضهم أمامه الأركيلة ، ويستمر شرب الشاي مع تدخين الأركيلة وتبادل الأحاديث والطرائف حتى نهاية النهار . ويمضي الشباب والفتيات هذه الفترة بالغناء والرقص أو ممارسة ألعاب من نوع آخر كلعبة السلطة والرمانة ، والمحامي ... ويعود الجميع مساء والسرور يملأ قلوبهم وهم يجددون العزم لتحضير السيران المقبل .

وقد طرأ تعديل على مفهوم السيران عند أبناء الأحياء الحديثة ، فرغم أن هدفه الأساسي المتعة والسرور والترفيه عن النفس ، فقد ظهر دافع جديد هو التظاهر والتباهي باقتناء الأدوات الحديثة المخصصة للنزهات كما ابتدعتها ديار الغرب . وأصبحت النزهة مجال تفاخر بين بعض العائلات . ويتصف السيران الحديث بقصر مدته ، فلا يستطيع رواد المقاهي الجلوس على الكراسي طوال النهار ، فتقتصر نزهتهم على بضع ساعات يتخللها تناول وجبة طعام جاهزة من المقهى فيوفرون على أنفسهم جهد تحضير الطعام ، وربما يحضرون طعامهم جاهزاً بسياراتهم ، فالسيارة بيت صغير متنقل يتوفر بواسطتها كل شيء .

ولا تزال منطقة الربوة تجمع بين السيران القديم بكل مظاهره على أطراف نهر بردى بين الأشجار ، وفي مجرى النهر نفسه ، والسيران الحديث في

المقاهي المبنية بين الأنهار وعلى ضفافها . ويرتفع صوت الراديو والمسجلة من هنا وهناك . ولكن روائح اللحوم المشوية أصبح مصدرها فقط من المقاهي ، واقتصر الشعبيون على الوجبات القديمة الشهية .

ولا بد في نهاية الحديث عن النزهات من ذكر ملاحظة حول حركة الاصطياف التي زادت وانتشرت كثيراً مع انتشار الأحياء الحديثة ليهرب سكان هذه الأحياء من الكتل الاسمنتية في فصل الصيف الحار إلى المصايف الرطبة . بينما لم يكن سكان البيوت الشامية القديمة يفكرون بالاصطياف في مكان ، لأن رطوبة دورهم تغني عن مغادرتها .



الأطعمة

لأهل دمشق اهتمام خاص بالأطعمة وطهيها ، ويعتبرون المطبخ ، الغرفة الرئيسية لسيدة البيت حيث تمضي معظم وقتها في تحضير الوجبة الرئيسية التي كانوا يتناولونها مساء بعد عودة رب البيت من عمله . وكانت الفتاة تتدرب على الطبخ بإشراف والدتها ، وعندما تنتقل إلى دار زوجها ، تزداد خبرة عن طريق حماتها ، لتتعرف على ميول وذوق بيت حماها في الأطعمة ، لأن أرباب البيوت كانوا يتفاخرون في ولائمهم بتنوع الأطعمة وجودة طهيها . وأذكر أنني حضرت وليمة في مطلع الأربعينات كان الصحن لا يتسع لأكثر من قرص واحد من الكبة المشوية ، ويبلغ طول قرص الكبة المقلية شِبراً ، أي يعادل ١٥ سم .

وطبعاً لم يبق لهذه الاهتمامات في البيت الحديث أثر ، لضيق الوقت عند ربة البيت . وعوضاً عن إضاعة وقت الفتاة في المطبخ لاقتباس فن الطبخ ، فهي منشغلة بمدرستها ودراستها ، أصبح بين يديها الآن العديد من كتب فن الطبخ تساعدها وترشدها لإنجاز هذه المهام اليومية .

وكان الطبخ يتم على الفحم والحطب ، لأن الطهي البطيء ألذ مذاقاً رغم أنه يستغرق وقتاً طويلاً ، وعندما انشغلت الفتاة بالدراسة والعمل ، ولم يبق عندها الوقت الكافي لذلك ، انتشر استخدام بابور الكاز . وفي الخمسينات استخدم الناس البوتوغاز ، وأصبح من مشاغلهم العصرية تبديل عبوات

الغـاز ، ولكنهم تمتعوا بنظـافـة كبيرة في المطبـخ الحـديث . وبعـد أن أصبـح الوقت من ذهب وعـدد أفراد الأسرة لا يتجـاوز أصابـع الكف وسيـدة البيت مهامها كثيرة ، أصبح الطهي يحدد بالدقـائق بواسطـة طنجرة البخـار والفرن الكهربائي .

وكان فصـل الصيف مـوسم تجفيف الخضـار لطبخهـا في الشتـاء ، مثـل البامية ، والباذنجان ، والبنـدورة ، والفـاصوليـاء ، وورق الـدوالي .... لأن خضـار الشتـاء محـدودة مثل الملفوف (اليخنـة) وزهر القرنبيـط ، والسلق ، والسبـانخ . ولا زال مبـدأ حفـظ الخضـار لفصل آخر معمولاً بـه مـع تطـوير طريقة الحفظ وإهمال التجفيف بعد استخدام البراد والثلاجة .

ولبعض الأطعمة عند الـدمشقيين مواسم معينـة ومنـاسبـات خـاصـة ، أُهملت في الوقت الحـاضر ، حتى أصبـح أبنـاء هـذا الجيـل لا يستطيعـون تمييز خضار وفواكه الصيف من الشتاء . فإن معظمها لا ينقطع وجوده أبـداً بفضل الثلاجات والبيوت البلاستيكية .

الأطعمـة الموسميـة : ينضج الفول في فصـل الربيـع ، فيكثر طبخـه بألوان مختلفـة مثل : رز بـالفول ، المقلّى ، الفوليـة ، المفركـة بـالفول ، الرز بحليب ، الألماسية . والمرقد والرشتاية . ويقصد القرويون أسواق المدينة لبيع نـوع من تفـاح الأرض بقـدر البنـدقـة يـمى حـورسنّين وينـادون عليـه : حورسنين يا نفل ، وهو يبشر بانتهاء البرد ، وكذلـك تظهر (العقّـابيـة) اللوز وهي من مبشرات الربيع وينادى عليهـا : أوّل فواكي الشـام يـا عوجـا ، طريـة وقلبك خيار يا عوجا . ثم يظهر الجانرك وينادون عليه : يا مال الربوة .

وفي الصيف ينضج من الخضار الكوسا والبندورة والباذنجان والفليفلة فيكثر استهلاك الرز لعمل المحاشي بأنواعها بما فيها اليبرق . وتشتهر دمشق بأنواع المشمش ومستحضراته من النقوع والقمر الدين ... ويحتفظون ببذور المشمش البلدي ليزينوا بها صحون وزبادي التوتية بعد نضج التوت الشامي . وللتفاح أنواع من أشهرها السكري ، ولكن أنواع الكولدن والستاركن المستوردة مؤخراً طغت على الأنواع المحلية . كما يستورد الموز والكستنا والخرمة سي وجوز الهند وقصب السكر في مواسم مختلفة .

وفي الشتاء يكثر طهي الكشك بألوان متعددة ومنه الأخضر واليابس ، ومن أطعمة الشتاء أنواع الحساء مثل شوربة العدس والخضار وستي زبقي ، وأنواع التسقية (فتة الحمص) وفتة المقادم ثم الكبة بأنواعها والقبوات والبسماشكات والمعسقلة (معسَّلِة) .

وأما أطعمة المناسبات فهي عديدة ، يغلب تناولها في مناسبتها ومنها :

عند الولادة : تقدم للزوار البوظة صيفاً والكراوية شتاء ويجب أن تشرب منها النفساء لأنها مدرة للحليب .

وعندما يبدأ الطفل بالمشي : لا بد من دعوة الأقرباء على المعلاق المشوي .

وبعد أن تظهر أسنان الطفل في فمه لابد من تناول السليقة وهي محضرة من القمح المقشور المسلوق والسكر .

وعندما تظهر على الشاب والفتاة علامات البلوغ يجب دعوة الأهل لتناول الحبوب بالدبس والسكر .

وفي مناسبة الوفاة أصبحت الوجبة المألوفة تشمل الأوذي والنمورة والحلاوة .

وفي اليوم الأول من السنة الهجرية لابد من تفوير المقلاية ويفضلون من الأطعمة ماكان لونه أبيض لأنه يبعث الأمل بسنة خير ، فيكثر طبخ الشاكرية والشيخ واللبنية والرز بالحليب ، ومن المستحسن تناول الحبوب بعد الإفطار لمن يصوم يوم عاشوراء .

وفي رمضان تكثر أنواع خبز رمضان (المعروك) والجرادق ، والبرازق .

وفي شعبان يقبل الناس على تناول الغريبة وخاصة الغريبة بالقشطة في النصف من شعبان .

وفي العيد الأضحى تتعدد أنواع الأطعمة من اللحوم وخاصة الفَخْذِة لكثرة الأضاحي وتوزيعها بين الناس .

وفي الحمام يكثر إحضار المجدرة مع المخلل وهي وجبة الطبقات الشعبية .

وفي السيران تتعدد ألوان الطعام ويغلب عليها اللحم المشوي والصفيحة والكباب الهندي والرز بالفول .

وعندما تجتمع النساء لمناسبة ما يفضلن الحراق بأصبعُه لأنها تحتاج إلى أيد عاملة كثيرة .

ومن الحلويات المشهورة : القطايف العصافيري والمطبقات (الستاتي) والكنافة بأنواعها والوريبات (الوربات) ، السنبوسك والبقلاوة ، الكول واشكور ، النهش والكلاج .

ومن الثار التي تتناقص أشجارها وتكاد تنقرض : الصبارة (المزاوية) والحبلاس (حب الآس) والزعبوب والخرنوب .

وكان الأطفال يفرحون وهم في طريقهم إلى المدرسة بشراء البليلة والبوشار وغزل البنات والدبوسية .. كما يتناول الرجال صباحاً السحلب بالحليب مع الكعك . بينما يتناول أطفال اليوم الكيت كات والزيك زاك وأنواع البوشار والبطاطا والبسكويت المحضرة بطرق فنية حديثة .

وقد يستغرب أبناء اليوم أسماء كثيرة من الأطعمة التي مرّ ذكرها ولكن يجد على مائدة طعامه بديلاً عنها يتناسب مع ذوق اليوم مثل السباكيتي والبيتزا والسكالوب ...



وسائل الترفيه والطرب

إن التطور الكبير الذي شهده مواليد العشرينات في أجهزة الطرب ومراكز الترفيه خلال نصف قرن ، من الأمور التي لا تصدق . ولن أعتمد في وصف معظم هذا التطور على كتب ومصادر ، بل أصف ما عاصرته بنفسي خلال هذه الفترة . وعندما أذكر صندوق السمع وصندوق الدنيا ، أظن نفسي عدت إلى عدة قرون خلت ، ولكنها لا تتجاوز عشرات السنين .

كان صندوق السمع (الفونوغراف) حتى بدء العقد الثالث ، هو جهاز الطرب الوحيد الذي نتمتع به . وكان محدود الانتشار لارتفاع ثمنه ، أو لتشدد بعض الناس في امتلاكه . لأن سماع الطرب مكروه عندهم . وكان الأقرباء والجيران يقصدون من يملك هذا الجهاز ، للاستماع إلى أسطوانة جديدة (كُوانِه) اشتروها لأحد المطربين .

وبقيت لصندوق السمع مكانته حتى عرفنا المذياع في الثلاثينات . وكان عبارة عن صندوق خشبي كبير داخله مجموعة (لمبات) ، ونتحكم بواسطة المفاتيح لتشغيله . ويوضع في مكان خاص مرتفع ، ويغطى بستارة جميلة خوفاً عليه ، لأنه إحدى القطع النفيسة في البيت . وبدأت تتطور نماذج أجهزته ، ويصغر حجمها . ودهشت في الخمسينات لما قرأت في مجلة محلية ، نبأ يقول : إن اليابان اخترعت راديو تستطيع السيدة أن تضعه في

محفظتها ، وقارنت بين صورته وبين المذياع الضخم الموجود عندنا . ولم يمض العقد الخامس إلا والراديو الترانزستور يملأ واجهات المحلات التجارية .

وتطور (الفونوغراف) الذي كان يعمل بقوة النابض (الزنبرك) وله بوري خاص ، ينطلق منه الصوت ، فظهر الـ (بيك آب) الذي يعمل بالكهرباء ، ولا يحتاج إلى بوري ويتحرك ذراعه آلياً . وما لبثت أن نافسته آلة التسجيل بأحجامها وأشكالها المختلفة .

أما التلفاز ، فكان أول عهدنا بأخباره ، ماقرأته في مجلة الشرطة والأمن العام في نيسان عام ١٩٥٣ ، في بحث عن فوائد اللاسلكي ، حيث ورد : « إن التلفزة أو ما يسمى بجهاز الرؤية الذي يرى المستمع على لوحته البلورية صور الأشخاص في محطة الإذاعة ، قد انتشر هناك (في الولايات المتحدة) انتشاراً واسعاً . واحتل هذا الجهاز بسرعة مكان الراديو حيث يتراوح سعره ما بين مائة ومائة وخمسين دولاراً ، أو ما يعادل ثلاثمائة ليرة سورية تقريباً » .

إنه خبر مثير للدهشة أن تظهر على لوحة زجاجية ، صور أشخاص موجودين في محطة الإذاعة ، كنا نسمع عن مثل هذا الجهاز في الحكايات الخيالية ، ولكنها أصبحت حقيقة واقعة .

وبدأنا نتقصى أخبار هذا الجهاز حتى شاهدناه رأي العين في أول بث تلفزيوني في دمشق ، يوم ٢٣ تموز ١٩٦٠ بمناسبة عيد الثورة المصرية . ولقلة الأجهزة المباعة للمواطنين ، وضعت الحكومة أجهزة تلفزيونية في معظم الساحات والحدائق العامة في المدينة ليشاهد عامة الشعب التلفزيون . وكان

أجمل مـافيـه في السنين الأولى نشرة الأخبـار المصورة ، لأنها تعرض مشـاهـد حية . أما بقية البث فكان يقتصر على ما يوجد في الاستديو فقـط . ولم تقتنع السيدات المتقدمات بالسن بالجلوس أمـام الشـاشـة إلا بعـد وضع الغطـاء على رؤوسهن ، حتى لا يراهن المذيع . وكم كان مالكو أجهزة التلفاز يتحملون من مشاق في أول عهد التلفزيون بسبب تواجد الزوار والأقرباء . فربما لا يوجـد في كل عدة أبنية أكثر من جهاز واحد .

عنـدمـا كان يبـدأ البث ، يجلس المشـاهـدون في الغرفـة بـالعشرات منسطين مدهوشين متابعين لبرامج البث التي بـدأت تزداد سـاعـاتـه تبـاعـاً . وأصبحت الأجهزة أكثر توفراً بعد أن تم إنشـاء معمل لإنتـاجهـا محلياً . وحل التلفزيون الملون محل التلفـزيـون البـدائي ، وأصبـح منظر أسطحـة المنـازل والأبنية ، غريباً وعجيباً بتعـدد وتنوع وتفـاوت ارتفـاع الهوائيـات . وأصبح التلفـاز شيئـاً هـامـاً في حيـاة أفراد الأسرة . وأدخـل تغييراً كبيراً في طبيعـة السهرات والزيارات العائلية ونمط الحياة اليومي .

وبعـد انتشـار التلفـاز قـدمت لنـا الصنـاعـات الالكترونيـة في أواخر السبعينـات الڤيـديـو ليلبي حـاجـات من يكرهـون التقييـد والالتزام ببرامـج التلفاز ، وأصبح للمشاهد حرية انتقاء الأفلام . وتعـددت مراكز بيع وتـأجير هذه الأفلام .

أما السينمـا فيمكن أن نعتبر شـاشـة خيـال الظل ، البـذور الأولى لهـا . وكانت هذه الشاشة تستهوي الكبار والصغار . فيجلس المشاهدون في المقـاهي بعـد المغرب لمشـاهـدة عروض تـدل على براعـة عـارضهـا . وفيهـا من العبر

والقصص ما يجذب المشاهد ، ولكن بألفاظ شعبية جعلت أرباب العائلات الراقية لاتسمح لأبنائها بمشاهدة هذه العروض لبذاءة الألفاظ فيها .

وكان أشهر أبطال شاشة خيال الظل : كراكوز ، وعيواظ ، والمدلل ... وكان الإقبال على المقاهي يزداد في شهر رمضان لمشاهدة كراكوز ، وظهر مكانه في أواخر هذه الفترة ، مع فارق كبير في المبدأ ، وبعض الشبه في الأداء ، مسرح العرائس .

ويمكن أن نعتبر صندوق الدنيا (عجايبك عجايب) بديلاً أولياً للسينما . وكان الأطفال يجتمعون حول الصندوق ، فيدفع الطفل رسم المشاهدة ويجلس على الكرسي الخشبي ، أمام العدسة المخصصة له . وعندما يكتمل عدد المشاهدين أمام العدسات الخمسة ، يبدأ العارض بتحريك شريط الصور يدوياً ، مع وصف المشاهد ببراعة ولهجة جذابة . ويحاول المتطفلون مزاحمة الأولاد في الرؤيا رغم ضيق العدسة . ولم يقض ظهور السينما على عروض كراكوز بسرعة ، بل بقيت مألوفة حتى الأربعينات رغم تعدد صالات السينما في دمشق .

تعود بدايات العرض السينمائي الصامت في المدينة إلى مطلع القرن العشرين . وكانت السلطات التركية أسست أول دار عرض عام ١٩١٦ ، مكان مجلس الشعب . باسم سينما (جناق قلعة) تخليداً لتلك المعركة . ثم تأسست في ساحة المرجة سينما الإصلاح خانة ، وزهرة دمشق ، ثم سينما النصر في سوق التبن ولكنها احترقت عام ١٩٢٩ . وكانت دور السينما عرضة للحريق ، بسبب بدائية أجهزة العرض ، وعدم توفر استعدادات لمكافحة الحرائق ، لذلك

انتهت معظم هذه الدور بـالحريق . ولقلـة الرواد كانت البرامج تبـدل مرتين في الأسبوع . ورغم أن العروض كانت صامتة ، لكن الحيل السينمائيـة تبهرهم وتشـد انتبـاههم كالوقوع في وادي عميق دون أن يصـاب المرء بـأذى ، والقفـز إلى مرتفعات عالية ، وغيرهـا من المشـاهـد المثيرة .. وبـدأ أول عرض للسينما الناطقة بفيلم أنشودة الفؤاد عام ١٩٣٤ في سينما وملهى العبـاسيـة . ثم تعـددت دور العرض مثل سينما سنترال وراديو وكوزموغراف ، وكانت عروضهـا أفلام رخيصة تستهوي الأطفـال والمراهقين وتعـالج موضوعـات خيـاليـة تعتمـد على البطـولات . أمـا الأفـلام الاجتماعيـة ، والتي تعتمـد على قـوة القصـة وتعـالـج مـوضـوعـات علميـة واجتماعيـة ، فيتم عرضهـا في صـالات راقيـة هي روكسي (الأهرام) وأمبير (فريـال) . ثم ظهرت دور جـديـدة مثـل الفردوس والدنيا . وبعدها الزهراء والسفراء ... وقـد بلغ عـدد هـذه الـدور عـام ١٩٧٠ خمساً وعشرين داراً ولم يؤثر انتشار التلفاز على ارتيادها كثيراً .

وقبل دخول التكييف الحـديث للسينمـا ، كانت سينمـا الرشيـد الصيفي تعرض أفلامها في صالة مكشوفة . وسينما راديو لها فتحات متحركة بـالسطح تفتح ليلاً لتهـويـة الصـالـة . وكانت سينمـا دنيـا أول الـدور المـزودة بصـالـة مكيفة .

وأذكر لهذه الصالة عرضـاً خـاصـاً في الخمسينـات لم يتكرر فيما بعـد وهو تمهيـد للسينمـا النـافرة . فكان كل شخص يُزوَّد مع بطـاقـة الـدخول بنظـارة خاصة من الورق المقوى وعدساتها جيلاتينية ملونة ، يضعهـا على عينيـه عنـد بـدء العرض . وكان الفيلم عبـارة عن لقطـات متفرقـة تعتمـد على الحركـة ،

فيخيل للمشاهد أن أبطال العرض أصبحوا أمامه ، وكان أحد المشاهد رجل يحمل بالملقط عقرباً ويدفعه للأمام فيخيل لرواد الصالة أنه أصبح أمام وجوههم ، وترتفع الأصوات من الرعب . وكانت المتعة أكبر عند حضور العرض مرة ثانية لمشاهدة انفعالات المشاهدين أكثر من العرض السينمائي .

أما بالنسبة للسينما السورية فلاقت صعوبات كبيرة . وتم إنتاج أول فيلم طويل سوري عام ١٩٢٨ باسم المتهم البريء وكان عرضه صامتاً . ومنعت السلطات عرضه بحجة أن بين أبطاله آنسة لا يجوز ظهورها في الفيلم لأنها مسلمة وغير محترفة ، مما اضطر أصحاب الفيلم إلى استبدالها ببطلة أخرى ألمانية الأصل كانت تعمل في ملهى أولمبيا بدمشق . وأعيد تصوير المشاهد التي تضم تلك الآنسة . وكانت الشركة التي أنتجت الفيلم تحمل اسم (حرمون فيلم) . ولما بدأ عرض الفيلم في سينما كوزموغراف كان الإقبال شديداً ، حتى اضطر أصحاب الدار لاستدعاء الشرطة للتخفيف من شدة الزحام على باب الصالة . وكان دخول المرأة إلى السينما فيه حرج كبير لأنه فرصة للاختلاط ، فخصص أصحاب الدور حفلات خاصة للسيدات ، فلا يوجد داخل الصالة خلال هذه الحفلة إلا العاملين فيها .

وتم إنتاج أول فيلم سوري ناطق عام ١٩٤٧ باسم (نور وظلام) ، وتم تصويره في استديو مهيَّأ خصيصاً لذلك . ومع بداية الستينات ، بدأ إنتاج أول فيلم سينمائي تمت جميع عملياته الفنية من صوت وصورة وتحميض وطبع في سورية ، وهو فيلم الوادي الأخضر . وبقيت السينما السورية بيد مغامرين يبغون من عملهم الربح المادي بالدرجة الأولى حتى تأسست المؤسسة العامة

للسينما عام ١٩٦٣ وأشرفت على الإنتاج السينمائي لتجعله في خدمة الثقافة والعلم والقضايا القومية . وكان أول فيلم أنتجته المؤسسة عام ١٩٦٨ باسم (سائق الشاحنة) .

أما بالنسبة للنشاط المسرحي ، فكانت الصعوبات التي تحول دون انتشاره ، كثيرة منها المسرح والصالة والافتقار للعنصر النسائي . ويقول خالد العظم في مذكراته : أنه حاول مع بعض الشبان المتحمسين للفن والتمثيل عام ١٩٢٩ إنشاء جمعية للهواة والفنانين ، ولكن بعد دراسة الموضوع ، صرفوا النظر لعدم تقبل المجتمع خروج السيدات سافرات على المسرح . وكثيراً ما كانت فرق التمثيل تسند أدوار السيدات لرجال يظهرون بزي النساء ويضطرون لحلق شواربهم . أو يستعينون للمشاهد الاستعراضية بسيدات أجنبيات . أما في الستينات فكان الإقبال شديداً على الاشتراك في المسابقة التي أعلنت عنها هيئة الإذاعة والتلفزيون لتشكيل فرقة أمية .

وعندما تأسس أول نادي موسيقي عام ١٩٢٧ باسم نادي الكشاف الرياضي ، كان يضم كبار الفنانين والموسيقيين في البلاد . وقد عرض في باحة النادي في شارع خالد بن الوليد ، مسرحية بعنوان (حمدان الأندلسي) فكان نشاطه يجمع بين الموسيقى والتمثيل . وحرصاً على تشجيع ارتياد المسرح ومشاهدة المسرحيات ، قرر نادي الفنون الجميلة الذي تأسس عام ١٩٣٠ ، عرض مسرحياته ، في مطلع كل شهر في الحي الإسلامي ، ويعاد عرضها بعد يومين في الحي المسيحي على مسرح قصر البللور أو مسرح الهبرا . وذلك حرصاً على راحة العائلات من عناء المواصلات وتكاليفها .

وشهدت دمشق في الثلاثينات ظهور عدة فرق فنية كفرقة حسن حمدان ونادي الفارابي وفرقة أنصار التمثيل .

وفي مطلع الأربعينات كان فوج المهاجرين الكشفي يقيم في الصيف مخيماً سنوياً على سفوح جبل قاسيون ، ومن جملة نشاطاته تقديم بعض العروض المسرحية لزواره ، على مسرح مؤقت . ويقوم الكشافون بأدوار الذكور والإناث معاً ، ومن أبطال هذا المسرح الفنان صبري عياد . وفي عهد الاستقلال ظهرت فرقة عبد اللطيف فتحي ، وفرقة أضواء المسرح وغيرها ...

أما بالنسبة لتأمين المسرح والصالة ، فكانت سينما النصر قرب سوق الحميدية ، تستقبل أرباب الفن منذ عام ١٩٣٦ ، ويعرضون إنتاجهم الفني على مسرحها . وكذلك سينما الحمراء فيما بعد . وعندما تأسست وزارة الثقافة والإرشاد القومي عام ١٩٦٠ ، خصصت عدة بنود في ميزانيتها لإنشاء مسارح وتقديم مسرحيات . وتم فعلاً تأسيس صالة ومسرح القباني ... كما تم عام ١٩٧١ تأسيس المسرح الجوال .

وبذلك توفرت في دمشق خلال نصف قرن ، مختلف وسائل التسلية والترفيه والطرب ، من إذاعة وتلفزيون ومسرح . وأصبحت أسماء صندوق الدنيا وكراكوز وعيواظ من التراث الشعبي القديم .

أما الأغنية التي تعكس واقع الحياة اليومية ، فقد اختلفت بكلماتها ، ولحنها ، وأدائها ومدتها عما كانت عليه قبل نصف قرن .

ونـورد أمثلـة لمـا سمعنـاه منـذ عشرات السنين من الأغـاني . ففي العشرينات والثلاثينات اشتهرت جلوة العروس ومن كلماتها :

اسم الله اسم الله يـا زينـة — يـا وردة جـوا الجنينـة
زهر القرنفـل يـا عروسـة — يـا ورد خيَّم علينـا

☆ ☆ ☆

قـومي العبي بقميصـك — وكل العـزبـان على كيسـك
الله يخللي لـك عريسـك — آه يـا حـلاوة عسليـة

☆ ☆ ☆

قـومي العبي وسلّيني — سكران وعـايف ديني
عطشـان وبـالله اسقيني — من روس شفـايفـك ميـه

ومن الأغاني الشعبية الدارجة :

طـالعـة من بيت أبـوهـا — وفـايتـة لبيت الجيران
لابسـة الأحمر والأبيض — والغرَّة بتضرب سـلام

☆ ☆ ☆

قلت لها يـا حلـوة اروني — وعلى شعرك فرجيني
قـالت لي روح يـا مسكيني — يـا شعري لـولـو ومرجـان

وعلى نفس الطريقة يتابعون وصف كل أعضاء الجسم .

ومن الأغاني الشعبية أيضاً :

على العين يـــا بـــو الـــزلـــوف   سمرة يـــــــــــــــا عينيَّ
مـــــــاأحلى ركـــوب الجمـــل   لـــو قـــــادتـــــه بْنَيّـــــا

☆ ☆ ☆

لاتقربي للغمر   تحت الغمر حَيَّـــــــــــــــة
ضرب الخنـــــــــاجر ولا   حكم النـــــــــدل فِيّـــــــا

ومن هذه الأغاني أيضاً :

عـل يـاديـل يـاديـل يـاديـل   يـــــا بـــو العبيـــــديـــــة
يـــــــا رايحين عـــــا حلب   حبي معـــــــــــــاكم راح
يـــــــــــا مشيلين العنب   فـــــوق العنب تفـــــــاح
كل مين حبيبـــــــه معـــــــه   وأنـــــــــــا حبيبي راح
يـــــا رب نسمـــــة هـــوا   ترد المحبـــــــــــــوب ليَّ

وكان للناقد الشعبي سلامة الأغواني شهرة كبيرة عند الدمشقيين . وكانوا ينتظرون برنـامجـه الإذاعي الأسبـوعي ، في الأربعينـات بفـارغ الصبر ، كانتظارهم المسلسلات التلفزيونية لـدريـد لحام في الستينـات . وكان سلامـة يركز هجومه على التجار والمتلاعبين بـأسعـار قوت الشعب ، خـاصـة في فترة الحرب . ومن أغانيه أغنية مطلعها :

هـــز وغربـــل يـــا غربـــال   هـــز ولا تـــوقف بطـــــال
في شغـــــــــــــــل كتير   في عمـــــــــــــــل كتير

هـــــــــــــــز على بَكِّير حتى نغربـل هَـل الحيـــاة

ومن مونولوجاته :

كنـا صغـار وصرنـا كبـار وكنـا نقبـل المعيـار

ومن قلـة محبتنـا كل النـاس بغضتنـا

وان دمنـا على هـالحـالـة مـاراح نشفى من بلـوتنـا

وله أيضاً :

نحنا الشوفريـة ونحنـا يـا كـدعـان مْنْرَكِّب بـالمـاكينـة أشكال وألـوان

و يا ما شفنا بلاد وشفنا فيهـا عبـاد ومن الجملة بغداد والعجم مع تطوان

ركَّبنـا نـاس كتير وعرفنـا مين أمير ومين بسوق الحمير ومين بكش دبـان

وللشاعر الشعبي أديب الجابي أغنية يصف فيها التطور السريع في حياة المدينة :

كان بـالمـاضي إن ردت تسـافر وَلاً تشـدلـك تجـارة

تروح تستـأجر طنعشَر جمـل وتركب بغلـة أو حمـارة

كنت تسـافر على رجليـك لا بـابـور (بـاخرة) ولا سيـارة

أمـا اليـوم في سيـارات وطيـارات عم تركبهـا

بتـدور الـدنيـا بنص نهـار من مشرقهـا إلى مغربهـا



العراضات

العراضة مسيرة شعبية غير منظمة . تضم مجموعة من الشباب في مناسبة معينة . وربما تضم شباب حي واحد في حيهم ، أو يجتمع في المناسبة الواحدة عدة عراضات ، فيتجدد التنافس المألوف بين الأحياء . وتسير العراضة بشكل غير نظامي ، فيلتف الجميع حول القوّال الذي يحملونه على الأكتاف ليهتف فيهم الشعارات اللازمة للمناسبة . ويردد الشباب بعده مقالته بصوت واحد مرتفع يشق عنان السماء . وقد يرافق الهتافات التصفيق الحاد الذي يلهب حماس الجميع . ويجب أن يتميز القوال بصوت جهوري ، وحنجرة قوية ، ونطق سليم ، وذاكرة جيدة لحفظ العبارات المناسبة . وأن تكون عنده قدرة على إشعال جذوة الحماس كلما خبت . فعندما تضعف أصواتهم ويقل حماسهم يقول : مالي سامع . فيكررون الهتاف بصوت أعلى ، ويكرر ثانية مالي سامع ... حتى يعود الحماس لما كان عليه .

وتقتصر العراضات على شباب الحي ، أما تجمهر الطبقة المثقفة والطلاب خاصة فيطلق عليه اسم مظاهرة وعلى الأغلب تكون المظاهرة صاخبة للتنديد بالمستعمر وتنتهي باصطدام مع السلطات المنتدبة . وتحولت هذه المظاهرات بعد الاستقلال إلى مسيرات منظمة ، وأصبحت الشعارات تكتب على لافتات قماشية يحملها المشاركون وعندها يمكن تصويرها وعرضها بأجهزة الإعلام المعروفة .

وتعقد العراضات والمظاهرات لمناسبات عديدة منها :

مناسبات وطنية : مثل وداع واستقبال الوفد الوطني عند سفره إلى باريس عام ١٩٣٦ للمفاوضات ، وعودته إلى أرض الوطن . أو بمناسبة عيد الجلاء ، أو تشييع جثمان أحد الشهداء . وكذلك عندما قسمت فرنسا سورية إلى دويلات : دمشق ، حلب ، العلويين ، الدروز ، اسكندرون . فخرجت المظاهرات والعراضات تؤكد على وحدة البلاد ، وتردد شعارات منها : فلتحيا الوطنية ـ إسلام ومسيحية ـ بدنا الوحدة السورية ـ المعاهدة والحرية ـ جبل الدروز والعلوية ـ يا سنكالي (جنود الجيش المختلط الفرنسي) ارحل عنا ـ دين محمد دين السيف ـ بالسيف بناخد حقنا .

ومن الشعارات والهتافات التي تردد في كل مناسبة وطنية :

إن هلهلتي يا سورية ـ إن هلهلتي هلهلنالك ـ وزخينا البارود قبالك ـ ورصاصنا بيضرب خماسي ـ ورصاصنا بالقلعة قاسي ـ يا سباع البر حومي ـ اشربي لما تعومي ـ اشربي من ماء زمزم ـ زمزم عليها السلام ـ يا سلام اكتب سلام ـ يللي مجلل بالغمام .

هيّه (هي) لينا ، هيه لينا ـ ضرب السيف طاع لينا ـ شيخ رسلان يا شيخ رسلان ـ يا حامي البر والشام ـ الله الله يا مفرج المصايب ـ اضرب رصاص خللي رصاصك صايب .

وأما الأناشيد التي كان يرددها الطلاب والشباب المثقف ، أشهرها مانظمه بعض المناضلين في السجون وهي : يا ظلام السجن خيم ...

ومن الأناشيد أيضاً :

موطني موطني

الجـلال والجمـــال والثنـــاء والبهـــاء في ربـــاك

والحيـــاة والنجـــاة والهنـــاء والرجـــاء في حمـــاك

هل أراك هل أراك

ســـالمـــاً منعماً وغـــانمـــاً مكرمـــا

هـــل أراك في عـــلاك تبلـــغ السماك

موطني موطني

ومنها أيضاً :

في سبيــل المجـــد والأوطـــان نحيـــا ونبيـــد

كلنـــا ذو همـــة شماء جبـــار عنيـــد

لا يطيـــق الســـادة الأحرار أطـــواق الحـــديـــد

إن عيش الـــذل والإرهـــاق أولى بـــالعبيـــد

لا نهـــاب الـــزمـــان إن سقـــانـــا المحن

في سبيـــل الـــوطن كم قتيـــل شهيـــد

مناسبات دينية : وخاصة عند عودة الحجاج من الديار المقدسة ووصول الحجي إلى حيِّه ، يستقبله شباب الحي بعراضة محلية يقولون فيها حجاج مكة هلّت علينا ـ الحمد لله على السلامة ـ هلهلت مكة وقالت يا هلا بالزايرينا ـ مرحباً بالركن الأسود ـ مرحباً بالزايرينا .

وعندما يتوجه أبناء أحد الأحياء إلى حي آخر لتهنئة الحجي بقدومه وعودته سالماً ، يعقدون عند وصولهم إلى الحي عراضة ، ويستقبلهم شباب الحي المتواجدين عند الحجي بعراضة مماثلة لاستقبالهم .

فيقول الضيوف : جينا جينا جيناكم - أبْلي (أولاً) السلام عليكم - مسا الخير مسا الخير - مسا الخير على الصفين - الله يمسيكم بالخير - الله يمسي حارتنا .

ويجيبهم المستقبلون بأصوات عالية لتطغى على أصواتهم : أهلا وسهلا بْللي جاي (بمن جاء) - يا مرحبا بْللي جاي .

وعند انتهاء الزيارة يخرج الضيوف بعراضة أيضاً وهم يرددون : وان كانت راية - وراية الحجي - وبَيّض الله .

فيجيب الجميع : وشو (وجهه) .

وعند مغادرتهم يرددون : خاطركم رايحين نروح استروا ما شفتوا منا .

فيجيبهم أهل الحي : مع السلامة والدرب سلطاني ، مع السلامة يا أهلي وخلاّني .

وكانت أشهر المناسبات ، اجتماع أبناء الأحياء المختلفة في الجامع الأموي بمناسبة الاحتفال بعيد المولد النبوي . ثم خروج العراضات متتالية ، وكل عراضة تمثل أحد الأحياء . ويبدأ بينها التنافس ، ويتقدم بعضها لاعبو السيف والترس ويطلق بعضهم العيارات النارية من المسدسات . وتشق العراضات طريقها في سوق الحميدية وسط الجماهير المحتشدة على الأرصفة

لمشاهدة هذه التظاهرة الشعبية الموسمية . وتحاول كل عراضة أن تُعَرِّف بحَيّها وتردد العبارات المناسبة مثل الصلاة على النبي : صلّوا ـ على محمد ـ الزين الزين ـ مكحول العين ـ جد الحسنين ـ يا حليمة يا حليم ـ يا مرضعة اليتيم ـ يا محمد يا شكر الزين ـ محمد يا كحيل العين .

ومن عبارات التعريف :

ـ نحنا الميادنة يا شيخ ـ مناخذ الخفارة بالسيف ـ عز الحارة برجالها ـ الله يلعن خوانها .

ـ يا عين كوني صبارة ـ نحنا ولاد العمارة ـ عز الحارة برجالها ـ الله يلعن خوانها .

ـ نحنا القنواتية ورصاصنا رطل ومية ـ ويللي ما بصدقنا ـ يقوم ينزل على البرية .

ـ ديروا المية على الصفصاف ـ سوق ساروجة مابتخاف ـ ديروا المية عالطاحون ـ سوق ساروجة مابتخون .

ومن العراضات المشهورة ما يعقد بحفلات الزفاف وقد ذكرنا هتافاتها في بحث الخطبة والزفاف .

ويحاول شباب اليوم تنظيم المظاهرات بمناسبة الزفاف ولكنها نوع من الإحياء المصغر لما كان أيام زمان .

رمضان كريم

رغم التبدل الكبير في حياة دمشق ، لا زال رمضان يحظى ببعض الاهتمام . فتزدحم الطرقات وتزداد كثافة السير قبيل المغرب . ثم يخيم الهدوء في أرجاء المدينة عند الإفطار . وترتفع أصوات المقرئين من الراديو وآلة التسجيل للتبرك بآيات الذكر الحكيم . ويزداد الإقبال على المساجد والمقاهي . كما تدب الحركة في الأحياء عند السحر .

ولكن لو عدنا قليلاً إلى الوراء لوجدنا لرمضان مكانة أكبر على الصعيد الشعبي ، تبدأ قبيل حلول شهر الصوم . فيقبل الناس على بائعي المواد الغذائية لشراء لوازم رمضان مثل القمر الدين والنقوع والزبيب والمواد الأخرى المختلفة . ويخرجون إلى النزهات يوم الجمعة الذي يسبق رمضان (تكريزة رمضان) ، ويمضون النهار بكامله في تناول الأطعمة .

وأذكر في الأربعينات حادثة مؤلمة ألمت بالناس المنتشرين على ضفاف بردى عند الربوة في تكريزة رمضان ، عندما هطلت الأمطار فجأة ، وارتفع منسوب مياه النهر فجرفت الناس والأمتعة . وهرعت فرق الإطفاء لتقديم المساعدات وإنقاذ الأطفال والنساء من مياه النهر . ولا زال البعض يحافظ اليوم على تكريزة رمضان .

وعلى الصعيد الرسمي تفتح المحكمة الشرعية أبوابها بانتظار شهادة الذين

يلتمسون رؤية هلال رمضان ، لتعلن بدء الصوم . كما ترسل الجهات المعنية مدفع رمضان إلى ساحة المهاجرين ، تجره سيارة عسكرية . ويثبتوه هناك باتجاه المدينة ليطلق القذائف الخلبية عند الإفطار والإمساك . وكانت دمشق تسمع صوت هذا المدفع بوضوح لصغر حجمها ، ولقلة الصخب والضجيج فيها . ويبقى هذا المدفع يؤدي مهامه حتى آخر أيام عيد الفطر . ثم يصمت حتى الموسم القادم .

ويعتمد الجندي في تحديد موعد إطلاق القذائف على مآذن الجامع الأموي ، لأن المؤذنين هناك لهم خبرة خاصة في تحديد موعد آذان المغرب اعتماداً على غروب الشمس . وعندما تُضاء مآذن الأموي ويراهاً مؤذنو المساجد في أنحاء المدينة ، ترتفع أصواتهم بالآذان مع دوي صوت المدفع ، ويبدأ الإفطار أو الإمساك .

أما اليوم فلا يوجد مدفع لرمضان ولا يعتمد المؤذنون على توقيت الأموي ، بل يسترشدون بالإمساكية التي يكثر توزيعها في مطلع رمضان لتوحيد الأوقات واستبدل المدفع بالألعاب النارية التي تعطي صوتاً قوياً لتنبيه الصائمين .

كانت الحركة تتوقف في الأسواق قبيل الإفطار ، ويعود كل امرئ إلى داره ، ويسود الهدوء مع بدء الإفطار لانشغال كل امرئ بطعامه ، ويسعى بعض الأغنياء لإطعام الفقراء والمساكين طمعاً بالثواب الكبير لمن يفطر صائماً . أما اليوم فتتميز فترة قبل الإفطار بازدياد كثافة السير ، وازدحام الطرقات ، لاتساع المدينة وعودة الناس في وقت واحد من متاجرهم إلى

بيوتهم في الأحياء المختلفة ، حاملين معهم الأطعمة والحلويـات ، بينـما تصـدح أصوات المكبرات من المسـاجـد وآلات التسجيل بتـلاوة القرآن في كل مكان . وما أن يحين موعد الإفطار حتى يخيم الهدوء في المدينة ، وتتوقف حركـة السير تقريباً ، وكأنه فرض منع التجول لمدة ساعة ، عـدا الأحيـاء التي تكون نسبـة المسلمين فيها قليلة . ويجلس أفراد الأسرة حول المائدة العامرة بأنواع الأطعمة الشهية المحرمة عليهم حتى يحين وقت الإفطار .

ولا تلبث أن تدب الحياة من جديد في الأزقة والشوارع بعد الإفطـار ، فيخرج الناس إلى المساجد التي ترتادها النسـاء أيضـاً لصلاة التراويح ، وكانوا يفضلون أداءها في الجامع الأموي . بينما أصبح رواده قلائل الآن لأن المنطقـة أصبحت لا سكنية . بينما امتلأت مسـاجـد الأحيـاء بـالمصلين ، وكان بعضهم يتجهـون إلى المقـاهي لمشـاهـدة عروض كراكـوز وعيـواظ ، والاستماع إلى الحكواتي . ولكن حل مكانها اليـوم التلفـزيـون الـذي يـزيـد سـاعـات بثـه ويستعد ببرامج مناسبة ويقدم عروضاً خاصـة لشهر رمضـان المبـارك . وقـد نشرت مجلـة المضحـك المبكي في عـددهـا ١٠١٩ الصـادر في ٦٣/١/٢٨ أن البث التلفزيوني تمدد بمناسبة رمضان فأصبح من السابعة مساء حتى الواحـدة ليلاً . ويحلو السهر كثيراً في رمضان بين عبادة وسَمَر ، وقد يمتـد حتى فترة السحور . وكان الناس يزورون بعضهم في أول رمضان المبارك للمباركة بشهر الطاعـة ، وفي نهاية الشهر لجمع المساعدات وزكاة الفطر للفقراء .

المسَحِّر : هو الرجل المميز في رمضـان وينحصر عملـه في هـذا الشهر ، فهو الذي يوقـظ النـاس للسحور . ولكل حي مُسحِّر أو أكثر حسب مسـاحـة

الحي وكثرة سكانه . ويبدأ جولته قبل موعد الإمساك بساعتين ، يحمل طبلته بحبل في رقبته فتتدلى إلى صدره أو يحملها بيده ، ويضرب عليها بعصا خاصة ، وكان يرافقه عادة شخص آخر يحمل الفانوس ، لما كانت إنارة الشوارع محدودة ، ثم اختفى الفانوس وبقي المسحر الذي يعرف أصحاب الدور فيقف عند أبواب بعضهم ويصيح باسمه ليوقظه . ويردد أثناء تجواله بين الأزقة عبارات مختلفة في مدح الرسول وتعليقات تتناسب مع رمضان . منها :

يا نايم وحّد الله ـ يا نايم اذكر الله ـ يا نايم وحد الدايم ـ قوموا على سحوركم . كما يردد أحياناً المدائح النبوية . وكان الجميع يعتمدون عليه في نهوضهم للسحور . أما اليوم فلا يرغب بعضهم بالاستيقاظ للسحور ، أو يفضل الاستيقاظ في وقت معين ، فيعتمدون على ساعة المنبه ، وقد ينبهون المسحر ليخفض صوته عند مروره بهم . كما كان للمؤذنين دور كبير في إيقاظ الناس للسحور . وكان للمسحر ثلاث جولات : إحداها يومية تشمل كل الحي لإيقاظ الناس وقت السحر . والثانية يومية تشمل بعض الأحياء بالتناوب لجمع الطعام والمساعدات ، ويصطحب معه في هذه الجولة مساعداً يحمل سلة وبعض الأطباق لوضع ماتجود به العائلات من أطعمة ، ويضطر لوضعها مع بعضها في طبق واحد أحياناً . لذلك كان يتردد على ألسنة الناس المثل الشعبي الذي يقول : مثل أكلات المسحر ، لمن يضع في طبقه عدة أنواع من الطعام دفعة واحدة . وأصبح الناس اليوم يجودون بالمال بدل الطعام فهو الأفضل . أما الجولة الثالثة فكانت أيام العيد لجمع العيديات من الناس . وترافقه في هذه الجولات طبلته التي هي بمثابة هويته الخاصة .

وكان المسحر يتعرض لمشاكسات الأطفال كثيراً خاصة في جولته المسائية لجمع الأطعمة فيلتفون حوله أو يلحقوا به وهم يصيحون : أبو طبلة مرته (زوجته) حبلة ـ شو جابت ـ ماجابت شي ـ جابت جردون بيمشي . وقد يتقبل هذه المشاكسات برحابة صدر ، أو يصيح بهم ويطردهم . وقد استغنى معظمهم عن هذه الجولة للتخلص من هذه المشاكسات . كما يترحم بعضهم اليوم على أيام زمان لأن فيها خير وبركة وكانت الأعطيات كثيرة . بينما يقول البعض الآخر : لاتزال الدنيا بخير .

صيام الأطفال : كان الأهل يهتمون بتدريب أطفالهم وتشجيعهم على الصيام في سن مبكرة . ويبدأ ذلك بإيقاظه وقت السحور ، وهو يفرح بذلك كثيراً ، شريطة أن يمتنع عن الطعام حتى الظهر . ويسمى هذا الصيام : درجات المادنة . ويقولون له : إن صيام يومين (درجات المادنة) يعادل صوم يوم عادي . ويتكرر هذا الصوم عدة مرات . وفي العام التالي يحاول صوم يوم كامل ، فإذا أتمه احتفلت الأسرة بذلك بأن تهيئ والدته مائدة صغيرة خاصة بالطفل تحوي مايحب ويشتهي من أنواع الطعام والحلوى والسكاكر . ويحمله أفراد الأسرة على ظهورهم في باحة الديار إكراماً وتشجيعاً . ويقولون له إن صيامه اليوم الأول والأخير من الشهر يعادل صوم الشهر كله . وبذلك يستعد في العام التالي لصوم الشهر كله . وعندما يألف الصيام يحاول أن يندد بالمفطرين من الأطفال الآخرين . فيهاجم الصائمون المفطر بقولهم :

يا مفطِر يا بَمْ (ذو صحة جيدة)   يـا بـزاء الـدم

دمـــــــــك دم الخنزير	علّـــؤوك بـــــالجنزير
والجنزير مــــالــو حــلاة	علّــؤوك بــــالمشنـــأة
والمشنـــأة مــالهـــا خيـــط	دبـوك (ألقـوك) بنهر أليـط[1]
ونهر أليـــط مــــافي ميّـــة	دبوك ببيت المَي (المرحـاض)

وداع رمضـان : يبـدأ وداع رمضـان في ليلـة ٢٧ ، وهي من الليـالي المخصوصة بالطاعات . فيحرص الكثيرون من الصائمين على إحيائها بـالطـاعـة والعبادة أملاً بنيل بركة ليلة القدر ، التي يستجاب فيها كل دعـاء . ويحييهـا بعضهم اليوم أمـام شـاشـة التلفزيون حتى انتهـاء البث . ثم يتـابعون الإحيـاء بالعبـادة حتى مطلع الفجر . ويبـدأ كثير من الصـائمين بتلاوة القرآن من أول الشهر ، ويحرصـون على إنهـاء الختمـة في هــذه الليلــة . وتشــارك الإذاعــة والتلفزيون اليوم بنقل حي ومباشر لاحتفالات هذه الليلة من الجامع الأموي الـذي تتجلى فيـه كل مظـاهر الوداع ، من اعتكاف وأنـاشيـد وطقوس للفرق والطرق الصـوفيـة ... ويردد الجميـع عبـارة الـوداع : فـودعـوه ثم قـولـوا لــه يا شهرنا ، أودعتنا ، منا إليك السلام .

وكانت تبدأ احتفالات فرقة المولويـة بعـد التراويح في جـامع المولويـة قرب محطة الحجاز ، ثم ينطلقون بجولة تنتهى قبيل السحر في الجـامع الأموي وهناك يتـابعون الاحتفـالات بـالـدوران مع الخشوع وينتهي بـدعـاء الختـام ووداع رمضان .

---

(١) النهر الذي تنتهي إليه المياه المالحة لمدينة دمشق .

الأطعمــة : يختص رمضــان ببعض الأطعمــة والحلـويــات إكرامــاً للصــائمين . منهــا : الخبز المعروك الممـزوج بــالسمن والسكر . والجرادق (الجرادة) وهي أطباق من دقيق خاص مزينة بخيوط من الـدبس المحروق . ورغم وجود هـذه الأنواع لكن الصنعـة اختلفت كثيراً . ويشتـد الـزحـام على بائعي الحلويات وخـاصـة النهش والمغشوشـة والبرازق . وإذا كان رمضـان في فصل الصيف يهتم الجميع بـالحصول على العرقسـوس والتمر هنـدي . ولا بـد أن يزين مـائـدة الإفطـار طبـق من الفـول المـدمس أو نـوع من التسقيـة . وفي السحـور لابـد من أحـد أنـواع الخشـاف أو القمر الـدين أو النقـوع . وعـادة يتناول الجميع بعد العشاء كأساً من الشاي ، ويفضل أن يكون أخضراً ، وبعـد السحور الشاي الأحمر . وأصبح التلفزيون يسـاعـد في التفنن لتحضير أطبـاق جـديـدة من المــأكـولات . وتكثر مـوائـد الإفطــار للفقراء سـواء من قبـل الميسورين أو المسؤولين .

وكانت الحكومة تأمر بإغلاق أماكن اللهو والعبث خاصـة ليلـة السـابع والعشرين ، وتعاقب من يفطر علناً لأنه يخرج على التقاليد والآداب العامة . وكان غير المسلمين يمتنعون عن الأكل والشرب والتدخين علناً ، مراعـاة لشعور إخوانهم الصائمين .



العيد

العيد مناسبة سعيدة تدخل الفرحة إلى قلوب الناس . وتتعدد الأعياد حسب المناسبات ، فمنها الوطنية كعيد الجلاء ، والاجتماعية كعيد الأم ، والدينية كعيد المولد النبوي . ولكل منها احتفالاتها التي تتناسب مع طبيعتها . ونخص بالذكر هنا عيد الفطر وعيد الأضحى .

لا تزال دمشق تكن للعيد مكانة خاصة ، وتمتاز عن عدد من العواصم العربية ، بالمحافظة على مظاهره . وتأخذ فيه زخرفها وتكتمل محاسنها . ومع ذلك كان عيد الثلاثينات والأربعينات أكثر بهجة ومرحاً ، وتحن النفس لعاداته قبل تأثرها بالتطور الذي شمل كل مظاهر الحياة في المدينة . وكانت دمشق تستعد لاستقبال العيد قبل أيام من حلوله ، فتلبس الأسواق حلة قشيبة ويشتد الزحام على بائعي الملبوسات والمواد الغذائية وخاصة الحلوى . وتنصب القلابات والدويخات والمراجيح في الساحات العامة ، وخاصة منطقة (سيدي عامود) الحريقة ، والبسطات التي تزينها الستائر وتصف عليها السكاكر والألعاب . وتهيأ عربات ركوب الأطفال (يا مريكب يا عيّار) التي يجرها أصحابها أو الدواب وقد زخرفت بالأجراس والزينات . كما تستعد المقاهي لتقديم عروض كركوز والحكواتي . ويعلن أصحاب دور السينما عن الأفلام التي أحضروها خصيصاً لهذا الموسم مثل : لوريل وهاردي ، وغزو نجمة المريخ ، وزورو أبو الكرباج ، وطرزان ... فيفرح بها مراهقو تلك

الفترة . بينما تعرض دور الدرجة الأولى أفلاماً أكثر اتزاناً وتتميز بقوة القصة والإخراج . وينهمك النساء في البيوت في صنع الحلويات من معمول وتويتات وكرابيج ويرسلنها بالصواني (الصاجات) إلى الفرن ، بينما يحضر رب الأسرة المبرومة والناطف من السوق لإعداد مائدة الضيافة .

ويختلف عيد الفطر عن عيد الأضحى بأنه عيد الصدقات وتوزيع الزكاة ، وهو عيد الملبوسات فيشتد الإقبال على بائعي الملبوسات ليكتسي المرء من البابوج إلى الطربوش . فلا يكتمل عيد الفطر إلا بالملبوسات الجديدة والتي يحتفظ بها لعيد الأضحى . فكانت العادة أن لا يشتري الإنسان ثياباً جديدة إلا من أجل العيد ، بينما لا يوجد اليوم موسم معين للشراء وبالتالي لا أهمية لارتداء الجديد في العيد . أما عيد الأضحى فيختص بكثرة الأضاحي وتوزيعها على الناس وبذلك يزداد أكل اللحوم .

كل هذا من تباشير العيد ، وما أن تطلق المدافع عند أذان العصر يوم الوقفة ، إحدى وعشرين طلقة ، حتى يهرع الأطفال إلى بيوتهم فرحين مستبشرين وهم يرددون : بُكْرَة العيد ومنْعيِّد ، وبندبح بقرة السيد ، والسيد مالو بقرة ، بندبح مرته هالشقرا .

ومن المألوف أن يحيي الناس ليلة العيد في الأسواق والبيوت لاستكمال الاستعدادات ومنها الحلاقة والاستحمام .

وتبدأ احتفالات العيد في فجر اليوم الأول :

على الصعيد الرسمي : تتجلى الاحتفالات الرسمية في سوق

الحميدية ، فيزدان بالكهرباء وأغصان الأشجار والأعلام والسجاد احتفالاً بمرور موكب رئيس البلاد وصحبه إلى الجامع الأموي لأداء صلاة العيد . ويزدحم الناس على الأرصفة ونوافذ المحلات التجارية لمشاهدة الموكب . وكان سابقاً يتقدم الموكب الدراجات العادية ، ثم حلت مكانها الخيول ويمثل راكبوها الحرس الجمهوري بثيابهم الجميلة ثم أصبح الموكب يسير وسط مجموعة من الدراجات النارية .

وبعد أن يؤدي الرئيس وصحبه صلاة العيد يعود إلى القصر الجمهوري في المهاجرين ليستقبل المهنئين بالعيد حسب مراسيم خاصة . وينتهي الاستقبال ظهر اليوم الأول .

على الصعيد الشعبي : يخرج الناس صبيحة اليوم الأول لزيارة موتاهم ، قبل أو بعد صلاة العيد . وتزدان المقبرة بحلة خضراء جميلة . وتزدحم بالزوار من نساء ورجال . ويطوف الأولاد ليجمعوا قليلاً من المال بهذه المناسبة مقابل توزيع المياه وهم ينادون : عاويز ماي . ويقرأ الزوار أمام قبور موتاهم الفاتحة أو سورة يس (ياسين) . وتتميز بعض القبور بالورود والأشرطة القماشية الملونة ، إذا كان المتوفى حديث الوفاة وفي مقتبل العمر . وكان لزيارة القبور هيبتها ، ويتجول الجميع بهيبة وخوف واحترام لذكر الموت ، بينما أصبحت الزيارات الآن لأداء الواجب الاجتماعي أو لتفقد القبر خوفاً عليه من الانهيار ، وأصبحت الفتيات يحضرن أحياناً بالثياب الملونة وبعض الزينة . ويقف عند باب المقبرة بائع الألعاب الخشبية والكراسي الصغيرة وهو ينادي : فرّح ولدك . لشراء هدية للأطفال . كما

يتواجد عدد من الفقراء ليأخذوا الصدقات التي يوزعها الزوار على أرواح موتاهم .

ويتبادل أبناء الحي الزيارات أيام العيد ، ويتنقل المرء بين دور الأقرباء والأصدقاء مباركاً بالعيد ومستفسراً عن الأحوال ويتناول في كل دار الحلوى التي أعدت خصيصاً للمناسبة ، فيشعر في نهاية المطاف بالتخمة وقد يصاب بعسر الهضم والألم في معدته . أما اليوم فلو أراد المرء زيارة كل أقربائه وأصدقائه لما اكتفى بأيام العيد كاملة ، بسبب اتساع المدينة وانتشار الأحياء وصعوبة المواصلات ، لذلك اقتصرت الزيارات على القليل من الناس ، وإذا استخدم بعضهم السيارة في تنقلاته ، كانت زياراته قصيرة ومختصرة . ويكتفي البعض بإرسال بطاقات المعايدة أو مخابرة بالهاتف . أو تتم المعايدات الجماعية أحياناً في اجتماع واحد ، فيجتمع الجيران في دار واحدة ، والعائلة عند أكبر أفرادها سناً ، والأصدقاء عند أحدهم . توفيراً للجهد والوقت . واقتصرت الضيافة على قطعة من السكاكر أو الشوكولاتة بدل المبرومة والمعمول حفظاً للصحة واقتصاداً في المصروف .

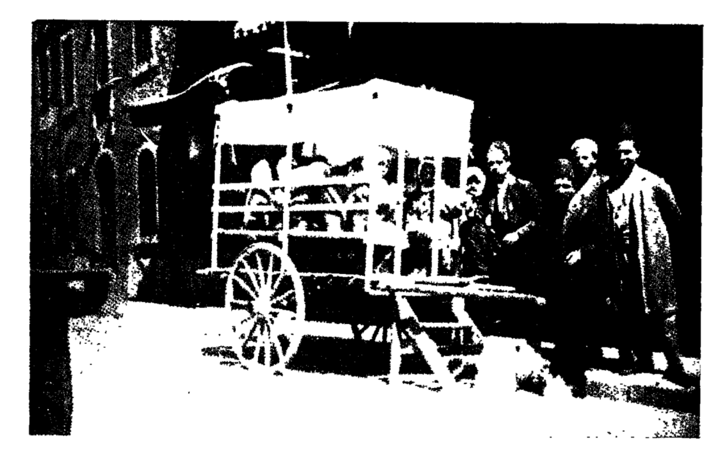
عيد الأطفال : فرحة الأطفال بالعيد لاتعدلها فرحة ، فالعيد مناسبة لارتداء الثياب الجديدة ، التي لم يكن يعرفها معظمهم إلا بعيد الفطر . والجيوب العامرة بالنقود (العيديات) والتي ينفقها الطفل على هواه ، ويمكنه أن يمضي أيام العيد مع أقرانه كما يريد فيتمتع بقسط من الحرية .

يبدأ العيد بارتداء الثياب الجديدة وتقبيل أيدي الكبار لجمع

العيديات ، وعندما تتوفر النقود الكافية ينطلق الطفل مع رفاقه إلى مركز المدينة ، فيزدحمون على أبواب السينمات ، لأنها فرصة لمشاهدة أكبر نسبة من الأفلام ، تماماً كما يجلس أبناء اليوم أمام التلفاز يتابعون مشاهدة المسلسلات والأفلام والبرامج المختلفة .

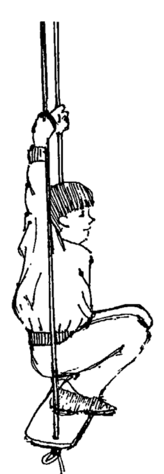
وكان مراهقو الأمس يفرحون باستئجار الدراجات ، فهي فرصة لركوبها كما يفرح أمثالهم اليوم باستئجار الجمال والخيول والحمير لركوبها ، فندرة هذه اليوم كندرة تلك بالأمس . ويشاهد بعضهم الحيوانات الغريبة أو الألعاب السحرية في الخيام ، وعروض كركوز في المقهى ، أو يركبون القلابات والدويخات . وعندما تركب الفتيات الأرجوحة يرددن بصوت مرتفع : قويها منجدد ، تشجيعاً لصاحب الأرجوحة في دفعها بقوة . وعندما يشتد العطش بالأطفال ، يقفون عند بائع الطويلة والقصيرة (نوع من الشرابات توضع في أوعية زجاجية دقيقة تختلف بطولها) . أو يشترون الاسكيمو والبوظة . وإذا شعروا بالجوع يجلسون عند بائع الفول النابت ، أو الكعك والمخلل مع مرقة ، وفي الشتاء عند بائع الشوندر . ويستعيض معظمهم عن الغداء ، بالسندويش ، حرصاً على الوقت . وإذا اشتد بهم التعب يركبون في العربات التي تجرها الخيول وتزينها الورود وهم يرددون مع صاحب العربة :

يا ولاد محارب ... شوشو ـ شدوا القوالب ... شوشو ـ قوالب صيني ... شوشو ـ شكْل الفنيني ... شوشو ...



مركبة العيد

ولا يحلو العيد إلا بأصوات الفَنّين والفتيش ، وضو الليل إثارة للصخب والضجيج مثل صواريخ الأطفال اليوم . وكان الأطفال يضعون عدداً من قطع الفنين على سكة الترام ، لتدوي أصواتها متتابعة عند مرور الترام فوقها فيعلو الصياح والتصفيق . ويعود الجميع مساء وقد خلت جيوبهم من النقود وامتلأت أيديهم بالألعاب وأنهك التعب أجسامهم . ولا يكتفي الأطفال بأيام العيد بل يتبعوها بيوم آخر يسمونه جحش العيد . وبعدها يودعونه على أمل اللقاء وهم يرددون والحسرة تملأ نفوسهم ؛ خَلَص العيد وفرحاته ، وأجى (جاء) الشيخ وفلقاته .



الحج

بعد مرور بضعة أيام على عيد الأضحى ، تكثر الزينات الكهربائية في الأحياء . وهذا يعني عودة الحجاج إلى ديارهم . وربما لا يكون مضى على غياب بعضهم أكثر من أسبوعين . وتضيء مصابيح الزينة ثلاثة أيام لاستقبال المهنئين ، يرتدي الحاج خلالها ثوبه الأبيض (جلابية) ، وعلى رأسه غطاء أبيض علامة الحج . ويبدأ الاستقبال بعناق وتقبيل ، وبعد الجلوس يقول المهنئون : الحمد لله على السلامة ، حج مبرور وسعي مشكور . ويسمعون بعض مشاهدات الحاج في رحلته . وتنتهي الزيارة بتناول قطعة من تمر المدينة أو قطعة من الشوكولاتة ويدعو الحاج لزواره ، ويقولون له مودعين : عقبال العودة . وتنتهي المناسبة بعد ثلاثة أيام من الوصول .

ولو عدنا للماضي القريب لوجدنا أن استقبال الحجاج ، اختلف في بضع عقود مالم يتغير خلال عدة قرون . فحتى العقد الثالث كان بعض الناس يحجون إلى الديار المقدسة براً مع قوافلِ الإبل ، ويستغرق غيابهم أربعة أشهر . ويُعتبر الذاهب إلى الحج مفقوداً ، والعائد مولوداً ، لما يلاقيه من أخطار في الطريق . ومنذ العشرينات ، تعددت وسائل النقل ، فينتقل بعضهم بالقطار من محطة الحجاز عبر الأردن إلى معان ، ثم بالسيارات إلى ميناء العقبة ، ومنه بحراً بالبواخر إلى جدة . وعند العودة تزدان القطارات التي تقل الحجاج بأغصان الأشجار والأعلام . ويسافر الحجاج أحياناً بالبواخر

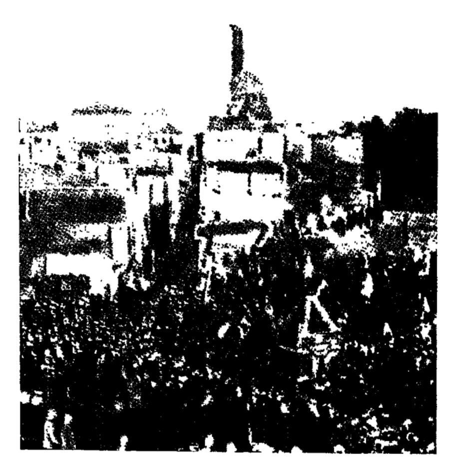
من بيروت واللاذقية عبر قناة السويس إلى جدة . وبعد الستينات أصبح الكثيرون يذهبون بالسيارات . أما اليوم فاقتصر السفر على الطائرات . وبعد أن كانت مدة غياب الحاج أربعة أشهر ، تقلصت إلى أسبوعين أحياناً . لذلك كان موظفو الحكومة يحصلون على إجازة حج مدتها شهراً ونصف ، ثم أصبحت شهراً واحداً . فقد أصبحت وسائل النقل الحديثة تضمن السفر بسرعة وسهولة وأمان .

وكان استقبال الحاج العائد براً يبدأ من عمان . وبعد استخدام القطار ، أصبح من درعا ، فالقدم وأخيراً من محطة الحجاز . وبعد السفر جواً أصبح الاستقبال في المطار ، وربما اليوم يكون عند باب الدار .

وكان لاستقبال الحاج في حيه ، رونق وبهجة ، فيزدان مدخل الحارة بالأعمدة وأغصان الأشجار والسجاد والكهرباء وقبلها بالفوانيس وتُمد خيوط تحمل أوراقاً ملونة كتب عليها : حج مبرور ، الحمد لله على السلامة ، مبروك للحجاج ... وينتظر الشباب وصول الحاج ليستقبلوه بالعراضة ويرددون : حجاج مكة هلّت علينا ، وتنحر الأضاحي عند وصوله . وعندما يدخل باب داره ، تزغرد النساء وهن يرددن :

أوهـا ... جـاجتنـا (دجـاجتنـا) بتقـاقي
أوهـا ... جـوات (داخـل) الـزقـاقي
أوهـا ... حجّينـا وصـل
أوهـا ... عقبـال المـلاقي (أو البـاقي)
لي لي لي ليش ...

ويستمر توافد المهنئين مابين ٣ ـ ٧ أيام ، ويأتي أبناء الأحياء المجاورة على شكل عراضات ، فيستقبلهم شباب الحي بعراضة مماثلة ، ويزداد إقبال المهنئين حسب أهمية الحاج في حيه ، ويوزع التمر على الجميع . ويحتفل أهل الحاج بعودة غائبهم فتقام في الدار الولائم ويستمر النساء بالرقص والغناء فرحاً بعودته سالماً ، كما يفرحن باستلام الهدايا التي تعتبر من مستلزمات الحج ، فيحضر معه أنواع الهدايا مثل : التمر وماء زمزم ، حنة ، مسابح ، أعواد السواك ، مراوح يدوية ، خواتم فضة وعقيق ، كاسات مكاوية ، أقمشة ... وأصبحت هذه الهدايا الآن نادرة لغلاء المعيشة وصعوبة النقل بالطائرة .



المولد النبوي

يحتفل الناس بمولد الرسول الكريم تبركاً واحتراماً لذكراه ، فهو أحد الأعياد الدينية ، وتعطل دوائر الدولة يوم ١٢ ربيع الأول فهو أحد الأعياد الرسمية أيضاً . واعتاد الدمشقيون قراءة المولد والاحتفال به في مناسبات عديدة منها : الختان والولادة وعقد القران و ... وخاصة في شهر المولد حيث تحتفل الأحياء في مساجدها بقراءة قصة المولد وتلقى الكلمات التوجيهية والأناشيد النبوية ، كما تنصب الزينات ويعرض لاعبو السيف والترس ألعابهم احتفالاً بهذه المناسبة الكريمة . ويقرؤون عادة مولد العروس أو الجوزي .

حتى الأسرة لابد من قراءة قصة المولد في دارها لكسب البركة وثواب الصلاة على النبي ، ويقرؤون عادة مولد العروس أو الجوزي فهو أكثر انتشاراً عند العامة . ويهيئون للمناسبة صرر الملبس ، وهي من ورق خاص توضع فيها حبات الملبس . ويضعون أمامهم أثناء القراءة ، صرر الملبس وقمقم ماء الزهر لرش الحضور أثناء القراءة ، وإبريق الماء وأحياناً بعض التمور ، ويشعل بعضهم عيدان البخور . ويتخلل قراءة المولد ترديد عبارة الصلاة على النبي :

صلّوا عليه وسلموا تسليماً ، حتى تنالوا جنة ونعيما
الله يجزي من يصلي مرة ، عشرا ويسكن في الجنان مقيما

كما ينشدون بعض المدائح النبوية مثل :

طـــــــه يـــــــا حبيبي سـلام عليـك سـلام عليـك
يـــــــــا مفتي ونقيبي سـلام عليـك سـلام عليـك

وعند الوصول لعبارة : أصابها الظمأ ، يتناول كل من الحاضرين جرعة ماء من الموجود أمامهم . وعند ذكر الولادة : يقف الجميع مستقبلين القبلة ، ويرددون الصلوات الإبراهيمية ويمسحون بأيديهم ظهور بعضهم ، لطرد العلل والأمراض من الأجسام .

وتعطل دوائر الدولة يوم ١٢ ربيع الأول ، وتقام الزينات في الأحياء والأسواق . وخاصة سوق الحميدية الذي يمر فيه المسؤولون في طريقهم إلى الجامع الأموي لحضور الاحتفال الرسمي والشعبي الذي يقام هناك . وبعد انتهاء الاحتفال تنطلق من الجامع الأموي العراضات الشعبية التي مرّ ذكرها في بحث العراضات . وتزدان حوانيت سوق البزورية بالأنوار وتعرض أنواع السكاكر والملبس التي يقبل المواطنون على شرائها لقراءة المولد في البيوت .

ولا زالت احتفالات عيد المولد معروفة حتى الآن ولكنها فقدت الكثير من رونقها وروحانيتها ، فلم يبق أثر للعراضات الشعبية . واقتصرت الزينات على المصابيح الكهربائية . ويستنكر بعض المتدينين قراءة المولد لما يرافقه من غناء ورقص في البيوت . وصار الميسورون يتباهون في حفلات قراءة المولد ، خاصة بمناسبة عقد القران فيستدعون أشهر فرق المنشدين ، ويوزعون الملبس في علب مختلفة الأنواع ، باهظة الثمن للمباهاة والظهور .

البيت الدمشقي

الهندسة والبناء : بدأ الدمشقيون كغيرهم من أبناء البلاد ، بتقليد الغرب في البناء . سواء الهندسة ، أو مواد البناء . تقليداً أعمى بعيداً عن الدراسة والتنسيق . فتنكروا للمدرسة الشرقية العريقة في هندسة البناء وتزيينه وفرشه ، ومواده التي تتناسب مع مناخ البلاد وطبيعتها . مأخوذين بفن البناء الغربي الذي امتاز بطابع خاص في الهندسة وارتفاع الطوابق وتأمين متطلبات الحياة العصرية الحديثة . وأدى هذا التحول إلى تدهور في بعض الحرف ، وزوال بعضها الآخر : كالنحت والنجارة العربية ، والنقش والتجصيص والصدف . وفقد مهنته عدد من العمال مثل الحوار والدكاك والطواب والطيان والتبان والكلاس والايتوني ... وأدى هذا التحول إلى فقدان الطابع الشرقي في معظم أنحاء المدينة . وطمس وجه دمشق الأصيل ، ليطغى الفن الغربي الهجين ، بأبنيته العالية وشرفاته الواسعة ونوافذه العديدة التي تطل على الشارع ، لتسمح للشمس والنور بدخول الغرف ، ولأصحاب الدور ، رؤية جيرانهم في غرفهم وأسرتهم . وأصبح الحمام جزءاً هاماً في المنزل الحديث ، وللمطبخ شروطه الخاصة . وبما أن البناء أصبح كله من الإسمنت والحديد ، فإنه يتأثر بالطقس الخارجي كثيراً . فلا بد للتلاؤم مع الوضع الجديد ، من تأمين التدفئة والتبريد . فتتم التجهيزات اللازمة لذلك مع تشييد البناء . وتراعى كثرة النوافذ ووضع المواد العازلة في الطوابق العلوية

للتخفيف من حرّ الشمس صيفاً . وتفتقر الدور الحديثة المغلقة للهواء الطلق ، فيحرص مهندسو البناء على توفير الشرفات . أو يتوجه السكان إلى الحدائق كلما توفر الوقت لذلك . وتمتاز الأبنية الحديثة ، بالسقف المنخفض لتوفير عدد أكبر من المنازل في الارتفاعات المحددة للبناء . ومع ارتفاع البناء في الجو ، لابد له من جذور في الأرض . فتوفرت الأقبية وبذلك سكن الناس باطن الأرض وهم أحياء يرزقون ، ولا يحتاج المنزل الحديث لوصف دقيق ، فهو الأكثر انتشاراً في المدينة .

تقسم البيوت الشامية القديمة إلى قسمين : بيوت الحكام والطبقة الغنية ، وبيوت عامة الشعب . فهي تختلف بالمساحة والتقسيمات الداخلية والمفروشات ، وتتفق في مادة البناء المؤلفة من الطين والخشب والطبقة الكلسية البيضاء . وتمتاز هذه البيوت بسحرها الشرقي الخاص ، وباحاتها المبلطة بالحجارة أو الرخام ، وأواوينها ذات الأقواس الجميلة . ولا تتعدد الطوابق في البيت القديم ، فهي لاتتجاوز الطابقين . ويعلوها ملحق أحياناً . وتفتقر للحمام ، لذلك اشتهرت المدينة بكثرة الحمامات العامة كما مرّ معنا .

تمتاز الأحياء القديمة بأزقتها الضيقة المتعرجة فيصعب كشفها كاملة من مدخلها ، وهي توحي بالكآبة لأنها محاطة بجدران عالية خالية من النوافذ ، وأبواب مغلقة . ولضيقها لا يشعر المرء فيها بحرارة الشمس لتوفر الظل الدائم ، ولا يتأثر بمطر الشتاء كثيراً لوفرة النوافذ العلوية البارزة . ولكن أرضها لاتعرف النظافة في فصل الأمطار .

وإذا وقفنا أمام أحد الأبواب لدخوله والتعرف على البيت الشامي ، يلفت النظر أولاً ، وجود السقاطة (مطرقة صغيرة معدنية بأشكال مختلفة) لقرع الباب . لعدم وجود المنبه الكهربائي (الجرس) . وبعد عبور الباب ، ندخل إلى ممر طويل يؤدي إلى أرض الديار أو يؤدي لأرض الديار مباشرة . وعندها لابد من حاجز خشبي أو ستارة قماشية خلف الباب لحجب الرؤيا ، إذا كان الباب مفتوحاً حتى لا يشاهد أحد المارة سكان الدار .

وفي أرض الديار يتبدل المنظر الكئيب للزقاق والمدخل ، بوجود باحة سماوية تتوسطها بحرة تتدفق فيها المياه من وسطها ، أو من أفواه التماثيل النحاسية الموجودة على أطرافها . ولا بد من هذه الباحة في البيت مهما بلغت مساحتها ، فهي رئته التي يتنفس بها ، وملتقى أبنائه مجتمعين أو متفرقين ، وذلك لتمضية الوقت بسبب كثرة الفراغ ، سواء حول البحرة ، أو بجانب الحوض أو على أطراف الليوان . وتمتد على أطراف الباحة ، أحواض ترابية ضيقة تغرس فيها أشجار الليمون والنارنج والكباد والمشمش الهندي ودالية العنب التي تتدلى عناقيدها عندما تثمر ، وأشجار الزينة ونباتاتها كالفل والورد الجوري والياسمين ، والورق ، والشمشير والهوى والليلك والشب الظريف والأرطاسيا . مما يجعل الروائح الزكية تفوح دائماً في أرجاء المنزل . وإذا لم تتوفر الأحواض الكافية يستعاض عنها بشقف الزريعة (الأصص) التي توزع هنا وهناك . ويزيد في جمال الباحة وجود بعض الرسوم والتزيينات أحياناً ، تُرسم على الجدران .

وفي أحد أطراف الباحة يوجد الليوان ، وهو أعلى درجة من مستوى



حي شعبي

الباحة ، حتى لا تصله المياه . وهو القسم المتمم لها لكنه مسقوف للجلوس فيه ، عندما تبسط الشمس أشعتها على كل الديار ، فيجلس السكان في ظل بعض الأشجار أو في الليوان . وتوضع في أطرافه الطنافس (الطراريح) . وفيه مدخل قاعة أو قاعتين ، تستخدمان للجلسات العامة . وربما يكون في إحداها بحرة صغيرة تبعث مياهها المتدفقة الرطوبة صيفاً . وفي طرف آخر من الباحة باب يؤدي إلى قاعة أخرى تستخدم لاستقبال الضيوف . وجرت العادة أن ينزع الضيوف نعالهم عند عتبة القاعة (أي عند مدخلها) . وربما توجد أكثر من قاعة تستخدم للجلوس أو النوم صيفاً . وفي طرف آخر باب يؤدي إلى المطبخ وهو غرفة واسعة يوجد فيه موقد للحطب (وُجاء) تعلوه مدخنة (وفي البيوت الكبيرة تتعدد المواقد) . وقد يوجد في طرف المطبخ درج يؤدي إلى السقيفة ، وهي جزء مرتفع توضع فيه المواد التموينية أو الأدوات الفائضة عن الحاجة . كما توجد فيه النملية لوضع الأطعمة وصونها من النمل والحشرات وتصنع من الخشب أو المعدن ولها أبواب من السلك الضيق الثقوب (منْخُل) للتهوية . ويراعى في تحديد مكان المطبخ أن لا تكون واجهته قبلية حتى لا تدخله الشمس ولتتوفر فيه الرطوبة لحماية الطعام من الفساد قبل توفر البرادات . بينما يجب أن تكون غرف النوم قبلية (نوافذها نحو الجنوب) لتتعرض لأشعة الشمس . وعلى مقربة من باب المطبخ يوجد الكبّاس (مضخة يدوية) منصوباً على البئر المغطاة والتي تزود الدار بالمياه ، قبل تمديد مياه الفيجة إلى البيوت .

وربما يتساءل المرء الغريب عن ذلك الشبك المعدني الذي يتدلى بحبل من أحد أغصان الشجرة ، أو من أحد أعمدة السقيفة (سألة الدالية) . إنه



باحة منزل دمشقي

الكَبَكْ الذي توضع عليه صحون وطناجر المأكولات خوفاً من فسادها . واستعيض عنه في الأربعينات بالبراد الحديث . وفي أحد أطراف الباحة درج يبدأ بدرجات حجرية لا خشبية لتقاوم المياه ويؤدي الدرج إلى الطابق الثاني . ويلاحظ في الطابق الأرضي عدم وجود نوافذ تطل على الشارع زيادة في الحشمة والاحتجاب ، وتوجد تحت الدرج فجوة صغيرة عليها باب تسمى (الداكونة) ، توضع فيها بعض المهملات . وقبل أن ننتقل من أرض الديار نقول أن وجودها في البيت أدى إلى ولع السكان بتربية بعض الحيوانات كالهر والطيور المغردة والسمك في البحرة . كما فرض وجود الأحواض ظهور بعض القوارض كالفئران والزواحف كالأفعى والبزاق والحشرات المؤذية كالعراتيل ، والبعوض كالناموس والبق والذباب ويبقى الإنسان في حرب معها .

يشمل الطابق الثاني عدة غرف يؤدي إليها ممر طولاني . تستخدم للجلوس والنوم في فصل الشتاء . ولها نوافذ تطل على باحة المنزل ، وأخرى على الزقاق . وتغطى الأخيرة بخصوص خشبية تسمح للجالس بالرؤيا دون أن يراه أحد من الخارج . وبعض هذه النوافذ الخشبية تسمح بالرؤيا إلى آخر الزقاق وتوضع فيها شَرْبَة الماء (القلة) لتحتفظ ببرودتها . وفي طرف هذا الطابق درج يؤدي إلى الطابق الثالث وهو عبارة عن غرفة أو غرفتين أمامها مساحة من السطح غير مسقوفة تسمى (مَشرَقة) ، يحجبها عن الشارع جدران مرتفعة ، وتسمى هذه الغرفة العالية : طيّارة أو عُلّية . تستخدم لتربية وكش الحمام أو لوضع المونة أحياناً . وقد تكون غرفة المونة في الطابق الأرضي وهي تضم ما تجمعه الأسرة وتدخره لكل أيام السنة مثل : السمنة

والجبنة والبرغل والعدس والكشكة وأكياس الملوخية اليابسة وخيطان البامية والتفاح والسفرجل ، وصفائح السكر وأحياناً أكياس الدقيق .

وتمتاز جدران البيت الشامي بسماكتها لأنها مبنية من الطين الدَّكْ ، فتتوفر فيها فجوات صغيرة تسمى واحدتها : كُتبيّة . لوضع الكتب فيها عندما كان الناس يهتمون بجمع الكتب وقراءتها ، ومع تفشي الجهل في أواخر العهد العثماني ، بقيت الكتبية موجودة اسماً وفعلاً ، ولكن تبدل محتواها من الكتب إلى بعض التحف كالزبادي الصيني والشيني والأواني الزجاجية المزخرفة بخيوط من الذهب . وإذا كانت الفجوة في الجدار كبيرة تسمى : اليّوك . توضع فيه مفروشات النوم (فرشات ولحف ومخدات وشراشف وناموسيات ...) التي تفرش على الأرض مساء وترفع نهاراً حتى لا يضيع جزء من مساحة الغرفة بوجودها . وقد أهمل اليوك والكتبية في البناء الحديث ، لاختلاف هندسة البناء . وحلت مكانها غرفة النوم بأسرتها الحديثة ، والمكتبة التي تفنن النجارون بتصميمها .

وكان سقف الغرفة يتألف من عمود خشبي غليظ يعتمد على الجدران ويحمل أعمدة خشبية عرضانية ، تعلوها قطع خشبية مبسطة وضيقة تحمل الطبقة الترابية والطينية التي تغطي السقف . وفي بيوت الأغنياء ، تُغطى الأعمدة ببعض الألواح الخشبية المزينة بالرسوم المختلفة الجميلة .

ومن المناظر المألوفة عند مد الفرشات مساء ، نصب الناموسية وهي من نسيج خاص ، لدرء أذى البعوض والحشرات . وقد تحلل الناس منها بعد استخدام المبيدات الحديثة واتخاذ إجراءات صحية عديدة في المدينة .

وتكثر الفجوات الصغيرة أو الرفوف على الجدران في الباحة والغرف ، لتوضع عليها مصابيح الإنارة . وقد تعلق هذه المصابيح بعد إشعال النور فيها مساء بسلاسل مدلاة من سقف الغرفة .

نرى مما تقدم أن للبيت القديم مساوئه رغم جماله وتوفر الراحة فيه فهو ذو سعة كبيرة ، بحيث يصعب توفير خدمته لولا كثرة سكانه . وكان السكان يعانون من كثرة الحشرات والبعوض ، وتسرب مياه الأمطار للغرف العلوية (الدَّلْف) . فلا بد من استدعاء الطيان مع قدوم فصل الشتاء لضبط الشقوق في سقف الغرف المعرضة لماء المطر . كما يحتاج التنقل بين أقسامه العلوية والسفلية إلى جهد كبير . لذلك ، وتوفيراً للجهد ، كانوا يربطون مزلاج باب الدار بحبل أو شريط معدني يوصل إلى الطابق الثاني . فعند سماع قرع الباب بالسقاطة ، والتأكد من هوية الطارق عن طريق الصوت أو الإطلالة من النافذة ، يُشد الحبل فينسحب المزلاج ويدفع الطارق الباب ويدخل .

ويعتبر هذا البيت الكبير مجمعاً بشرياً ، تدب فيه الحيوية والنشاط ، كما تعكر صفاءه وهدوءه ، المشاجرات والمنازعات . وأيضاً للبيت الحديث مشاكله رغم نظافته وأناقته وجماله ، فيشعر سكانه بالحاجة الماسة للخروج إلى المنتزهات ، وخاصة الأطفال منهم لتقيد حريتهم في البيوت المغلقة . كما أن جدران البيت الحديث لا تحجب الصوت ومساحتها محدودة . فيشعر سكان الأبنية المتجاورة أنهم يعيشون مع بعض لا تخفى على أحد منهم خافية ، فأصوات الجميع مسموعة ومشاكلهم معروفة . ويعاني سكان الطوابق العليا من صعود السلالم إن لم تتوفر المصاعد الكهربائية . لذلك نجد لكل بناء محاسنه ومساوئه .

الحياة اليومية : يتصف البيت القديم بكثرة غرفه ، وبعضها يتسع لاجتماع كل أفراد الأسرة دفعة واحدة . أما بقية الغرف فيستقل بها الشباب المتزوجون . والبيت الشامي يضم كل أفراد الأسرة من الأجداد إلى الأحفاد . وكلما تزوج شاب ، كان نصيبه غرفة مستقلة للنوم فقط . فقلما يجلس الرجل مع زوجته منفردين أثناء النهار أو السهرة . ورغم ارتداء الحجاب عند الخروج من المنزل ، كانت كل النساء يجلسن مع كل الرجال في السهرة وعلى الطعام دون حجاب وذلك من الجهل بالأصول الدينية . وكان يضبط نظام الحياة في هذه المملكة الصغيرة التي قد يتجاوز تعداد أفرادها القاطنين معاً ٦٠ ـ ٧٠ شخصاً . يضبطها الوالدان . وإذا ضاقت الدار بأهلها ، فمن السهولة إضافة غرفة جديدة في أحد أركان المنزل .

وعندما بدأ نمط الحياة الجديدة يدب في المجتمع ، وانتشر العلم والثقافة بين أبناء الجيل الجديد ، وأصبحت لهم مفاهيم حديثة وتطلعات خاصة ، أصبح من الصعب على الفتاة المثقفة والتي تشارك زوجها العمل والمسؤولية ، أن تعيش تحت أمرة حماتها التي ألفت حياة قديمة بتقاليد خاصة . كما أصبح الشاب ينشد حياة خاصة يشعر فيها بذاته وكيانه ويريد أن يتصرف بتربية أولاده بعيداً عن قيود ومفاهيم ، كانت أساس التربية في مطلع هذا القرن . فتفرع عن كل دار دمشقية قديمة ، دور عديدة . وتولد من كل حي ، أحياء . وبذلك كان لابد من اتساع المدينة لا بسبب تزايد السكان فقط ، وإنما لاختلاف نمط الحياة أيضاً . وإن كانت البيوت القديمة تمتاز بسعتها وكثرة غرفها ، فإن الأسرة الحديثة ، تكتفي بمنزل محدود المساحة يضم ثلاث أو أربع غرف فقط .

وتنحصر الحياة اليومية في نشاط ساكنات الدار ، لأن الرجال يتوجهون إلى أعمالهم في الأسواق من الصباح حتى المساء . وتكون السيدة الوالدة مسؤولة عن تنظيم الحياة والعمل في الدار . ولها الإشراف والتدخل في الأمور الرئيسية الحيوية . ولشخصيتها دور كبير في توفير الهدوء والسلامة بين أفراده . وتنضوي تحت لوائها بناتها العازبات ، وهن الأكثر قرباً منها وعطفاً . وزوجات الأبناء (الكناين) وتختلف محبتهن عند الحماة حسب انصياعهن لأوامرها وحسن سلوكهن معها . وكثيراً ما تجلس بالنهار قرب البحرة أو في الليوان تراقب العمل في البيت ، وتصدر أوامرها وهي تلف سيكارتها وتولعها . وكان التنافس شديداً في البيت الواحد خاصة بين نسائه ، سواء كنَّ بنات أو زوجات ، أو كنّات أو حماوات ، يتنافسن بما لهن من مال وجمال وولد . وبما لهن من مكانة عند رب الأسرة . وقد يصل التنافس إلى مشاحنات ومهاترات ، ويتحزبن أحزاباً وكتلاً ، خاصة الكناين ضد الحماية وبناتها . وتحاول الحماة بدورها أن تتصدى لهن باستمالة إحداهن لتتجسس لها ، وتنقل أخبار خلواتهن .

توجد لنساء البيت أعمال يومية جماعية أو فردية يقمن بها . فبعد أن تودع كل سيدة زوجها وتنظف غرفتها ، يشتركن في تنظيف أركان البيت ، وخاصة أرض الديار ، ثم يشتركن في تحضير مواد الطبخ من تقشير وتخريط وتنظيف الخضار واللحوم . وتشرف الحماة على كل هذه الأعمال . وطبعاً الكمية المعدة للطبخ كبيرة تتناسب مع عدد أفراد الأسرة . وعند الانتهاء من الطبخ ، تقوم المسؤولة في ذلك اليوم بغسل الأواني ، وكان الجلي يتم بالصفوة (رماد الحطب والفحم) ويحتاج لقوة وعزيمة ، فالطناجر كلها ثقيلة من

النحـاس . ويتم الطبـخ على المـوقـد والحطب ، ثم أصبـح على مـوقـد يعمـل بـالبترول (بـابـور الكاز) . وفي الخمسينـات دخـل البـوتـوغـاز إلى المنزل الحـديث . وتعمـل إحـداهن في تحضير مصـادر الإنـارة (مثـل الكاز والفانوس ...) بوضع الزيت الخاص فيها ، وضبـط الفتيل ومسح الزجـاجـة لاستخدامها مساء فهي وسيلـة الإنـارة توزع في أرجـاء المنزل . كما تقوم أخرى في أيام الشتـاء بإشعـال المنقل ، ويختلف عـدد المنـاقل حسب طبيعـة حيـاة الأسرة وإمكانياتها . فقد يشعلن اثنين أو ثلاثـة أو أكثر لتوزيعهـا في الغرف . وتحفظ عادة جمرة في الرماد للاستفادة منها في اليوم التـالي بإشعـال الفحم من جديد . وكل يومين أو ثلاثة أيام تكون إحـداهن مسؤولـة عن عجن الـدقيق لإرساله إلى المخبز ، وهذا أيضاً عمل مرهق يحتاج لجهد ، فتضع الخميرة والماء مع الدقيق وتدعكهم جيـداً حتى يتحول الـدقيق إلى عجين ، ويغطى شتـاء حتى يتخمر للصباح . ويأخذ أجير الفران المعجن صباحـاً ويعود بـه بعـد العصر ، بعد أن تحول العجين إلى أرغفة من الخبز المنضج جيداً (خبز مشروح) ولجودة نضجه يغرز الفران قضيباً من القنب أو سيخاً من المعدن لتماسك الأرغفـة مع بعضهـا ولا تطير بـالهواء أثنـاء نقلهـا . أمـا الخبز الحـديث (الأفرنجوني) فهو مقتبس من الغرب ، ويتم تحضيره في الأفران وتشتريـه الأسر الغنيـة أو المتفرنجة لأنه من علائم التطور .

وعنـدمـا تنهي كل منهن عملهـا اليـومي ، ولا يبقى للحماة طلبـات أو ملاحظات ، ينفردن لأعمالهن الخاصة فلا يجوز أن تبقى الفتـاة بـدون عمل ، بعكس ما يتهمها المغرضون . فالمثل العامي يقول : الكار (المهنة) أسوارة من ذهب ، الفقيرة بتستر فيه حالها والغنية بتقّل خلخالهـا . وكن يمـارسن أعمـالاً

كثيرة في المنازل دون الحاجة للخروج منها مثل : الخياطة والتخريج (وضع الخرج للعباية والشروال) ، والتطريز ، وشغل الدولاب والطيار (ملء مواسير النول بالخيطان) والغزل وعمل الصوف وصناعة أكياس الورق ، وتنظيف القلوبات لبائعيها (الجوز واللوز ...) وغيرها من الأعمال التي تضمن لهن مورداً مادياً . ومن الفتيات من تمضي وقتها بالجلوس مع الأخريات في غرفة الجلوس يمضين الوقت بالثرثرة ولعب البرجيس . ولا يليق ببنات البيوت الثرية أن يعملن أي عمل ، بل اعتدن الكسل طوال النهار . وحتى أعمالهن المنزلية يقوم بها الخدم ، بل يمضين معظم وقتهن متكئات على الأرائك ، يثرثرن بأخبار عائلية تتناول من حولهن . ويتناولن طوال النهار الفواكه والسكاكر والموالح وقد يعتدن التدخين . وعندما انتشرت عادة شرب القهوة أصبحن يتطلعن لمستقبلهن بتنجيم الفنجان .

أما اليوم المخصص للحمام ، فلا يكون فيه عمل منزلي آخر إلا الأعمال الضرورية ، ثم تخرج الحماة ومعها رعيتها ، يحملن البقج (البقجة فيها المناشف والثياب ، النظيفة وعدة الحمام من طاسات وحناء وكيس وليفة) ، وبعض المأكولات ، ويتجهن بعد الظهر إلى الحمام ويمكثن هناك للاستحمام حتى المغرب . وتذهب السيدات للحمام كل أسبوعين أو أكثر مرة واحدة . وطبعاً بعد توفر الحمام المنزلي أهمل حمام السوق ، وأصبحت السيدة تستحم ربما يومياً أو حسب الحاجة .

ومن الأيام المتعبة للسيدات ، يوم الغسيل . فتجمع الثياب وكل

مايحتاج للغسيل وتوضع في الطَّبَق (وعاء نحاسي كبير) وتغمر بالمياه من المساء حتى الصباح ، على أن توضع الثياب الملونة لوحدها والبيضاء لوحدها . وهذا ما يسمى (بنقع الغسيل) . وتقوم إحداهن من الصباح الباكر لتسخين المياه ، فالغسيل يستهلك كميات من المياه الساخنة والصابون ، ويستغرق الغسيل اليدوي يوماً كاملاً وجهداً كبيراً . وتتوزع البنات على الأطباق ليمر عليها الغسيل حتى ينتهي ويعالج الأبيض منه بماء النيلة ليكسب لوناً زاهياً . وأخيراً يُفض الغسيل بالماء البارد وينشر على الحبال . وقد وفر الغسيل الآلي جهداً ووقتاً على سيدات اليوم لانشغالهن في أمور أخرى . فتتم عملية الغسيل كاملة في الغسالة الآلية ، دون أن تمس المياه والصابون الأيدي الناعمة ، أو طلاء الأظافر (المينيكور) . إنها الحياة العصرية التي وفرت فيها الآلة جهداً كبيراً على جيل السبعينات .

ولا بد بعد الغسيل من كي الثياب في يوم آخر ، بعد أن تكون الفتاة تحرت الثياب فقد يحتاج بعضها لتركيب أزرار أو رتق ثقب أو إصلاح جزء ممزق ثم يتم كي الملابس . ومكواة الأمس تحتاج لجهد كبير في حملها فهي ثقيلة وتعمل بالفحم المشتعل فتحتاج لتحضير . ويتطلب الكي مهارة وانتباه لأن المكواة ذات حرارة واحدة لاتتبدل . وربما تستغني سيدة اليوم عن الكي المنزلي لضيق الوقت أو طلباً للراحة فترسل الثياب إلى الكواء (المكوجي) .

وتوجد للنساء أعمال موسمية لاتتكرر دائماً منها : تخزين المواد التموينية كالجبن والملوخية والبامية وغيرها فهي تتطلب جهداً ووقتاً ، وكانوا يشترون الملوخية بعيدانها مثلاً .. وفي مواسم الأعياد يستمر العمل حتى

منتصف الليل في تحضير الحلويات كالتويتات والمعمول ... وبذلك نرى أن المرأة في العشرينات كان عندها من الأعمال ما يملأ وقتها ولكن الآلة وتطور نمط الحياة وتوفر بعض الأدوات والأجهزة الحديثة كالغسالة والبراد وطنجرة البخار والمعلبات ، والثلاجة ، وفرت على السيدة جهداً كبيراً ووقتاً واسعاً لتملأه بأعمال تفرضها الحياة الحديثة .

يبقى أثر الرجال ضعيفاً في الحياة المنزلية لأنهم يمضون معظم وقتهم خارج الدار . فيخرج الرجل منذ الصباح إلى عمله ، سواء كان في المتجر أو الورشة أو أي عمل متنقل ... ويستمر حتى المساء . وقد يصطحب طعامه بالسفرطاس فيتناوله أثناء عمله ظهراً . أو ينتظر حتى عودته لتناول الوجبة الرئيسية مع أسرته في البيت . وتغلق الأسواق قبل المغرب لعدم توفر الإنارة الكافية في الشوارع والأحياء . وبعد تناول الطعام في البيت ، يخرج بعض الرجال ليؤدوا واجباتهم الدينية في المسجد ثم يمضون بقية سهرتهم مع أفراد الأسرة ، ولا يجوز للأولاد المتزوجين أن ينفردوا في غرفهم مع وجود والدهم بين أفراد أسرته . ومن الرجال من يقصد المقهى لسماع الحكواتي وتدخين (نفس أركيلة) مع رفاقه من أهل الحي . وعلى العموم ينام الجميع في وقت مبكر ليستيقظوا باكراً .

أما اليوم فيحيي عدد كبير من الناس سهراتهم حتى منتصف الليل ، في الملهى أو المقهى أو أمام شاشة التلفاز أو المطالعة . وتفتح الأسواق متاجرها حتى وقت متأخر لتوفر الإنارة والمواصلات . ولكن الدولة حددت مؤخراً موعداً موحداً لإغلاق الأسواق .



مقهى شعبي

حتى التربية الاجتماعية اختلفت مع تطور نمط الحياة ، وانعكست آثارها في المجتمع . فكانوا يقولون : الولد سر أبيه . لأنه يحمل أخلاقه وتربيته ، وبذلك يحافظ على سمعة أسرته ، إن كانت تشتهر بالعلم أو التجارة أو صنعة معينة ، أو الشجاعة (الْمَرْجَلَة) . لذلك كانت الرغبة بإنجاب الذكور تطغى على الإناث . فيتعلم الطفل منذ نعومة أظافره مبادئ الأخلاق والعادات الاجتماعية عندما يصطحبه جده إلى الحارَة ، فإذا صادف رجلاً آخر ، يقول الجد لحفيده : بوس إيد عمك . وبذلك يعرف الطفل أن تقبيل اليد من علائم الاحترام الذي يجب أن يكنه الصغير للكبير . وإذا وجد قطعة خبز على الأرض رفعها وقبّلها ووضعها على طرف الجدار ، تقديراً للنعمة ، وإذا صدر من الطفل صوت مزعج أو ركض في الطريق يؤنبه جده ويستنكر عمله . وعندما يتجاوز الطفل العاشرة ، يلتحق بعمل والده ليساعده ، فيلقنه سر المهنة وأدب التعامل مع الناس في البيع والشراء . وبذلك يحافظ على مهنة والده ويَرِثه في عمله ويقتبس من أخلاقه وعاداته .

أما طفل اليوم فيشترك في تربيته وتوجيهه عدة جهات إلى جانب أسرته التي ضعف أثرها فيه . فهو يلتحق منذ الثالثة من عمره بدار الحضانة ثم المدرسة فيتأثر بأستاذه وزملائه ، كما يقتبس معارفه من الشارع والراديو والتلفاز والمجلة والكتاب . وبذلك تتعدد مصادر التوجيه والتربية ، ويضعف أثر الوالد الذي استهلك العمل وطبيعة الحياة العصرية كل وقته . وكذلك الفتاة التي يقول المثل العامي الذي يصف حالها سابقاً : طُبْ القدرة على تمْها مابتطلع البنت إلا لأُمها . لأنها كانت تلازمها طوال النهار ، ولا تعرف غيرها . فتأخذ عنها طريقة العمل في المنزل ، وفن الطبخ ، وأصول التعامل

مع الجيران والكناين . ولا يؤثر في تربيتها إلا مصدر آخر عندما تنتقل إلى دار زوجها ، فلها هناك تربية أخرى لتتلاءم مع الحياة الجديدة .

بينما فتاة اليوم تفارق أمها منذ أن تلتحق بالمدرسة . فتتأثر بمعلمتها وزميلاتها وكذلك وسائل الإعلام المختلفة ورغم أن أثر المنزل أقوى في البنات من الذكور ولكنه ضعف كثيراً عند الجميع .

وبذلك لم يبق للأسرة الواحدة طابع خاص معروف بعد أن تفرق أفرادها واختلفت مهنهم ، ومستوياتهم العلمية والمادية ... وضاعت شهرة الأسر الكبيرة الغنية التي كان أربابها يمتنعون عن تزويج بناتهم لأسر أخرى ، وربما يرغبون أن يبقين عازبات لتبقى الثروات محفوظة في الأسرة وكذلك أخلاقها التي تميزت بها . لذلك كانت نسبة العوانس في هذه الأسر كبيرة .

ولما كان أطفال الأمس يلتحقون بأعمال أوليائهم منذ الصغر ، فإن الأموال تبقى بيد رب الأسرة ولا يتمتع الطفل باستقلاله حتى لو بلغ سن الزواج ، فوالده يحدد له سن زواجه ويكون ذلك في سن العشرين تقريباً وتبقى نفقته مرتبطة بإرادة والده الذي يعطيه ما يكفيه . أما شباب اليوم فتمتد فترة عدم المسؤولية عندهم طالما أنهم على مقاعد الدراسة ، فتبقى نفقتهم على ذويهم وتتأخر سن الزواج للشاب أو الفتاة حتى انتهاء دراستهم ، أي حتى الثلاثين أحياناً . وتمتد فرص التعارف بين الزملاء والزميلات كثيراً حسب طبيعة الدراسة أو العمل .



المراجع

ابن كثير	البداية والنهاية
أبو خليل شوقي	الإسلام وحركات التحرر
أبو خليل شوقي	أطلس التاريخ العربي
البارودي فخري	مذكرات فخري البارودي
ترجمان سهام	يا مال الشام
حسين مؤنس	أطلس تاريخ العالم الإسلامي
الحامي محمد حسن	الأزياء الشعبية
خادم الأربعين محمد أمين	العقد الثمين في مقام الأربعين
داغستاني كاظم	البيت الشامي الكبير
دهمان محمد أحمد	في رحاب دمشق
ريحاوي عبد القادر	مدينة دمشق
زهدي بشير	محاضرة بعنوان دمشق
سكاكيني وداد	سابقات العصر
شهابي قتيبة	دمشق تاريخ وصور
الشهبندر عبد الرحمن	مذكرات عبد الرحمن الشهبندر
الطنطاوي علي	دمشق
العظم خالد	مذكرات خالد العظم
العلاف أحمد حلمي	دمشق في مطلع القرن العشرين

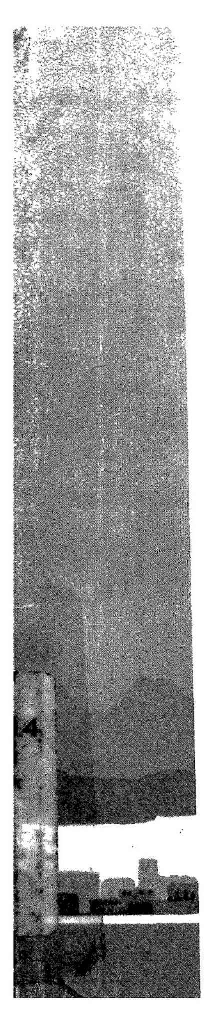
القاسمي جمال الدين	قاموس الصناعات الشامية
القاسمي ظافر	مكتب عنبر
قساطلي نعمان	الروضة الغناء في دمشق الفيحاء
قصاب حسن نجاة	حديث دمشقي
كرد علي محمد	خطط الشام
كرد علي محمد	دمشق
كرد علي محمد	غوطة دمشق
كيال منير	رمضان وتقاليده الدمشقية
كيال منير	فنون وصناعات دمشقية
المالح وصفي	تاريخ المسرح السوري ومذكراتي
مردم بك خليل	يوميات الخليل

الحكومة السورية في ثلاث سنوات .
مذكرات شخصية .

المجلات

الحوليات الأثرية .
الشرطة والأمن العام .
العاصمة .
العمران .
المضحك المبكي .
J. LECERF ET R. TRESSE: LES ARADA DE DAMAS.

الفهرس



دمشق في نصف قرن

التطور العمراني الكبير الذي مرّت به مدينة دمشق خلال نصف قرن .

والتغير الاجتماعي السريع الذي رافق هذا التطور في مختلف مظاهر الحياة .

ذلك مادفع المؤلف للمبادرة إلى وصف هذه الفترة الانتقالية الدقيقة من تاريخ دمشق .

لقد كان المؤلف موفقاً كل التوفيق في تصوير المجتمع الدمشقي ، وهو يتأهب لوداع القرون الماضية ، ويستعد للدخول في حضارة القرن العشرين ، فجاء كتابه مثيراً للذكريات الجميلة عند الكبار الذين رافقوا رحلة التغيير .

أما الشباب الذين ارتسمت صورة دمشق القديمة في أذهانهم من خلال مابقي من حاراتها وبيوتها ، وعاداتها ، وحكايات الآباء والجدات عنها ، فسوف يجدون في الكتاب إجابات على الكثير من تساؤلاتهم .

ولسوف يجد المؤرخون والباحثون الاجتماعيون في الكتاب بما تضمنه من وثائق ومستندات ومعلومات مصدراً غنياً لدراساتهم .